

العدد ١٠٠٢٠ - الثلاثاء ٢٣ من نوفمبر ١٩٩٩ م - ١٥ من شعبان ١٤٢٠ هـ

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر

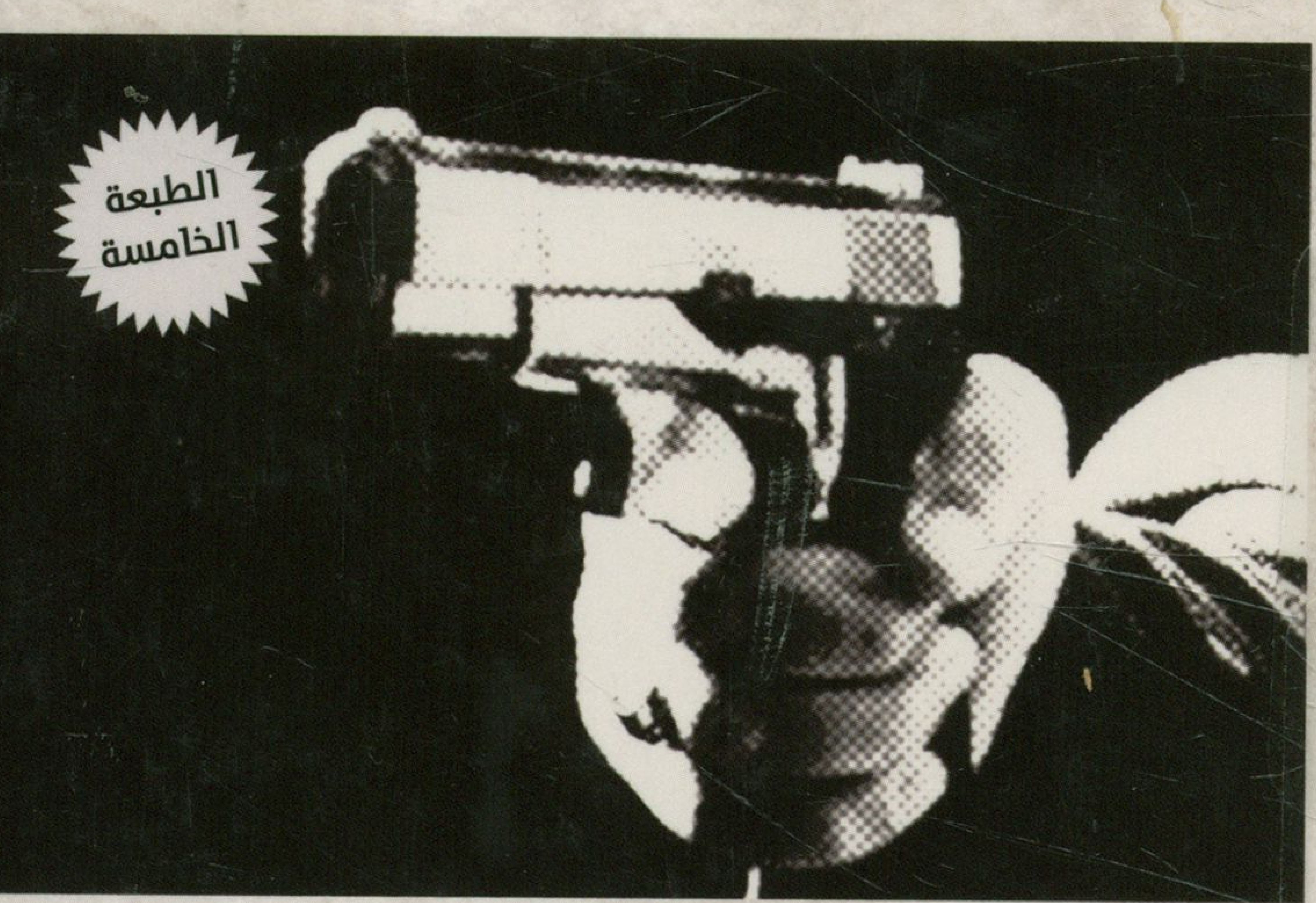
مقتل الرجل الكبير

الرواية التي صادرها نظام مبارك

إبراهيم عيسى



الحقيقة تلك، التي تتمنى ألّا تكون قد عرفتها أبدًا



ـتتح السـيد رئيس الجمهورية ـكتبة الكبرى يوم الاثنين ٢. ـرس ١٩٩٥، وذلك في حضور ـيدة الفاضلة قرينة السيد ـرئيس، ورئيسة البوندستاج الألماني، ووزير خارجية ألمانيا، ورئيس مؤسسة برتلسمان الألمانية والسيدة حرمه، والسيد السفير رئيس مجلس إدارة المكتبة، والسيد سفير ألمانيا الاتحادية بالقاهرة، وعدد كبير من

أهم المشروعات الثقافية الرائدة على

قرينة السيد الرئيس، ووزارة الثقافة المصرية ممثلة في صندوق التنمية الثقافية، ومؤسسة برتلسمان الألمانية.
تقوم فلسفة المكتبة على أن المكتبة: رسالة .. ورؤية .. وواقع حي يتفاعل مع الجمهور، وهي الأساس للبنية الثقافية في المجتمع.
تهدف المكتبة إلى تشجيع الأفراد من كافة الأعمار والفئات على تنمية عادة القراءة والاستفادة من المواد الثقافية والتعليمية المتاحة بالمكتبة وتنمية هذه

الحديثة إلى إ... جديد إلى أهـ... تمثل في التعا... مؤسسات المجتـ... والتعليمية للارتقـ... استعمال الكمبيـ... وتنميتها لدى ... المجتمع.
ونظرًا للخبرات الـ... اكتسبها العاملـ... العامة في مختـ...

مقتل الرجل الكبير

الطبعة الرابعة نوفمبر ٢٠١٢
الطبعة الخامسة ديسمبر ٢٠١٢
دار بلومزبري ـ مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر، فيلا رقم ٣، المدينة التعليمية
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر
www.bqfp.com.qa

صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٩٩

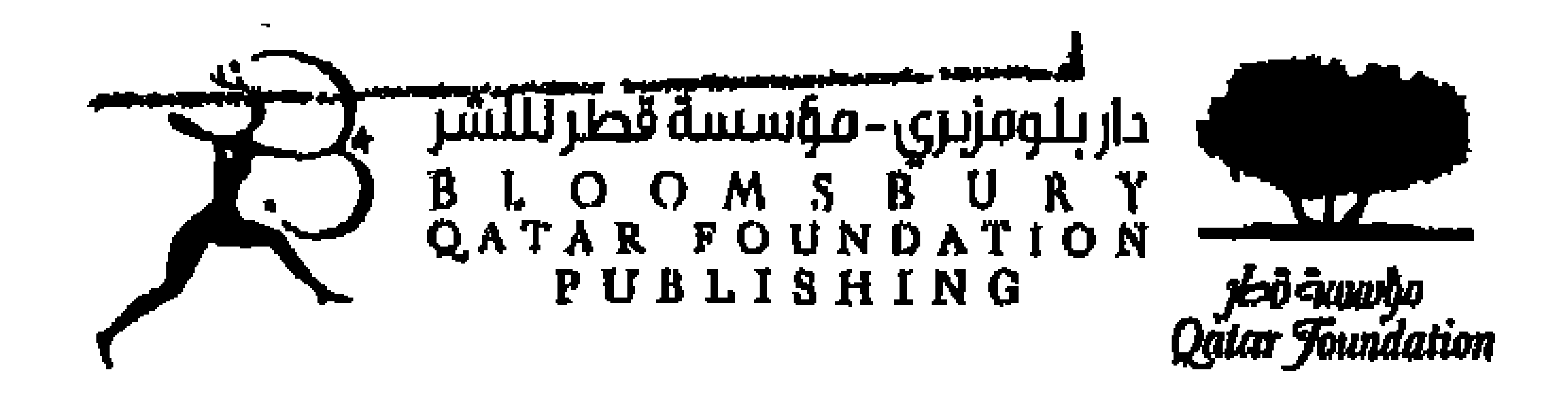
الترقيم الدولي: 9789992195628

طبع في مصر بشركة صحارا للطباعة

إبراهيم عيسى

مقتل الرجل الكبير

رواية



إهداء

إلى جمال فهمي.

الحزن محاوطكي

وهمك تاعبكي

وليه مش قادرة تبكي

الأعيان خانوكي

سارقين طين أبوكي

لعدوك باعوكي

ولإيد الزمن

باعوكي

وشافوكي

وهُمَّ بيدبحوكي

وضحكوا وفاتوكي

وقبضوا الثمن

عروكي في ميدانهم

ولا واحد أدانهم

وعلُّوا أداءهم

وبقالهم جرس

جلادك محامي

وحاميك حرامي

وبإيه ينفع كلامي

يا ساكنة الخرس

عبد الرحمن الأبنودي

من مسلسل «النديم»

١

لم يكن أمامه إلا أن يشعر بالذهول، فشعر.

ماذا يفعل المرء إزاء شيء كهذا سوى أنه لا يفعل؟

طرق على باب الرئيس بأدب وبتردد. لقد تأخَّر في نومه هذا الصباح فخرق عاداته المقدسة. مرَّت نصف ساعة كاملة على موعد خروجه من الباب مرتديًا التيشيرت الأبيض من ماركة «لاكوست» الرياضية، ومن نفس الماركة شورتًا أبيض ينتهي بلون أزرق سماوي عند حوافه. الرئيس يملك ١٢ طاقمًا من نفس اللون والشكل، وغالبًا لا يتحمل بقاء ملابسه الرياضية على جسده بعد مباراة التنس الصباحية، فيمشي من مضمار الملعب داخل القصر الرئاسي إلى الجناح المنزلي عاريًا إلا من لباس داخلي. وفي السنوات الأخيرة لم يعد هناك فارق كبير بين شتائه وصيفه (عقدت العاصمة مؤتمرًا دوليًّا جمع خبراء الطقس والمناخ في معظم بلدان العالم، الأمر الذي تكلَّف في ست ليالٍ جزءًا مبالغًا فيه من الميزانية المخصصة لعقد ٣٧ مؤتمرًا في خلال السنة في عاصمة البلاد، مؤتمرًا مخصوصًا تحت عنوان «محاولة إعادة الشتاء إلى بلادنا»).

آخرة الحكاية، أن الرئيس لم يظهر على غير عاداته المقدسة، وكان الواجب على سكرتيره الخاص أن يوقظه، وهي أمور من النُّدرة حتى إنها لم تحدث.

في ذلك الصباح ومنذ سنوات، وعلى الرغم من مأساة الخبر، إلا أن سكرتيره لم يوقظه من النوم. انتظر حتى خرج مرتديًا ملابسه الرياضية، واتجها معًا إلى ملعب التنس. كان سفير قديم للسويد في زيارة إلى العاصمة بعد أن انتقل منها منذ سنوات، وطلب لقاء الرئيس لملاقاته في مباراة تنس؛ كانا قد تعودا إقامتها عامًا تلو آخر في أثناء خدمة السفير لبلاده في العاصمة، وقد رحَّب الرئيس فورًا، وتم تحديد الموعد بهذا الصباح. حضر الرجل مبكرًا في سيارة رئاسية، أقلَّته من الفندق حتى غرفة خلع الملابس في الملعب الرئاسي، وخرج إلى الملعب في انتظار الرئيس الذي حضر في موعده بالضبط. تصافحا بحرارة، وخبط الرئيسُ سفيرَ السويد السابق في صدره حتى تنحنح الرجل، وقال للسفير بأسلوبه الصارم:

- ما أخبار المقويات الجنسية يا «جو»؟

ضحك السفير وردَّ في سعادة:

- اسأل إدارة الفندق يا فخامة الرئيس عن ليلة أمس في غرفتي.

دارت مباراة حامية؛ سببها أن الرئيس في الغالب كان حاقدًا على الليلة التي لم يعرف تفاصيلها في غرفة السفير بالفندق. لم ينهزم الرئيس منذ عشرين عامًا في أي مباراة تنس لعبها؛ حتى إنه ذات مرة زار البلاد في جولة سياحية المصنفُ العالمي رقم واحد في لعبة التنس، قرر الرئيس أن تتحمل البلاد جميع تكاليف زيارة اللاعب وإقامته في قصر تابع للقصور

الرئاسية، واعتباره ضيفًا رسميًّا، الأمر الذي جعل اللاعب يعتذر لارتباطه بالفوج السياحي الذي جاء معه، فأمر الرئيس باعتبار الفوج السياحي وفدًا رسميًّا في ضيافة الدولة، وكان طبيعيًّا أن يخسر بطل التنس العالمي مباراته مع الرئيس ـ بصعوبة ـ بعد ذلك بثلاثة أيام.

فاز الرئيس ـ قطعًا ـ بمباراته مع السفير السابق، وخرج من الملعب خالعًا فانلته. ساعتها كاد السكرتير يفعلها ويقول له الخبر الأسيف، لكنه تردد حتى سبقه الرئيس إلى حمَّام السباحة. كان الحرس متناثرين بانتظام، والصمت لغة صاخبة في المكان كله، حيث تخترقه جلجلة الماء تحت ذراعي الرئيس. جلس السكرتير على مقعد خشبي في ركن حول حمَّام السباحة، ومرَّ الوقت كعجلات قطار على صدره حتى عنَّت من الرئيس لفتة إليه وسأله في اقتضاب:

ـ هل جاءتك أخبار من لندن هذا الصباح؟

كان الرئيس يقصد المستشفى الذي تُعالج فيه السيدة الأولى منذ أسابيع في العاصمة البريطانية لندن. وأخيرًا وجد السكرتير نفسه مضطرًّا أن يتكلم فقال له:

ـ نعم يا سيادة الرئيس. وصلتنا أخبار.

ـ هل هي بصحة جيدة؟

ـ مع الأسف يا سيدي الرئيس! البقية في حياتك!

قالها السكرتير وهو يخشى التضحية بمستقبل أولاده، حيث يعلم أن الرئيس متى غضب من خبر اعتبر الشخص المُبلِّغ مسؤولًا عن حدوث الخبر وسواده وسوئه. ولم يكن ليفاجأ كثيرًا لو أن الرئيس سجنه عقابًا على

خبر كهذا، كأنه الطبيب المسؤول عن صحة السيدة الأولى في جناحها بالمستشفى الإنجليزي. كان السكرتير يرتعش فعلًا، وقد ظن وقتًا أنه يبول على نفسه ـ لحسن حظه كان مجرد إحساس غير حقيقي. لكن الرئيس استمر في سباحته، وسادت جلجلة الصمت مرة أخرى عبر ذراعي الرئيس وهو يضرب ماء حوض السباحة. طال الصمت، وطال العوم، وكأن القصر الرئاسي كله وقتها يمشي على قطع زجاج مكسورة توترًا وترقبًا.

أول ما تحدث به الرئيس فور خروجه من حوض السباحة، أن ردَّ على السكرتير:

ـ في حياتك البقية.

ثم ارتدى الروب الأبيض، ومضى يعطي أوامره حول مراسيم الجنازة والحداد الوطني، وطلب حضور ابنه إلى القصر فورًا.

حتى ذلك الصباح لم يكن أحد قد استطاع إيقاظ الرئيس، وربما لم يكن أحد في حاجة إلى إيقاظه، حيث كان نشطًا في يقظته، مبكرًا فيها، صحيًّا ورياضيًّا، على الرغم من تجاوزه الثمانين من عُمره (كان عُمره سرًّا قوميًا، ممنوع التصريح أو التلميح به في أي مطبوعة أو قناة تلفزيونية)، لكن اليوم كان السكرتير مطالبًا أن يطرق بابه وجلًا ومذنبًا تمامًا.

لم يستجب الرئيس لطرق الباب.

لا حِس ولا خبر.

كان الرئيس قد أمر بإلغاء الكاميرا التلفزيونية التي تُغطي غرفته والممر المؤدي إليها، وقال لمدير أمن القصر:

ـ جرى إيه يا تيس! عايز تصورني وأنا نايم على سريري؟!

وعبثًا حاول مدير الأمن شرح أنه يمكن توقيف الكاميرا متى طلب الرئيس ذلك في أي لقاءات غرامية خاصة، لكن الرئيس رفض المبدأ تمامًا وأصر بحزم على إلغاء الكاميرا (مدير الأمن اللي تدرَّب في بعثة خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية على أمن الرئاسات والزعماء؛ تكلفة البعثة ٦ ملايين دولار تقريبًا، كانت منحة من الحكومة الأمريكية، الأمر الذي جعل الرئيس يدفع ٦ ملايين دولار أخرى بنفسه من خزانة الدولة لتدريب شخص آخر؛ حتى لا يقع في قبضة شخص واحد محترف يفرض شروطه، ثم مات الشخص، وراحت الملايين الستة). توعَّد الرئيس مدير الأمن لو وصلت إليه أي معلومة عن تصوير غرفة النوم فسوف يعدمه بنفسه (كان الرئيس قد أعدم بنفسه في الأعوام العشرة الأخيرة حوالي ستة أشخاص).

هل كان لذلك أن يحدث؟

أن تفتح بابًا لغرفة فتجد مصيبة.

السكرتير نفسه ـ طيلة عمره ـ لم يفكر في أي من هذه اللحظات التي تسرق الرجولة. أن تفتح باب منزلك فتجد دبابات في الشارع تُعلن احتلال الوطن، أخفُّ وطأة من أفظع كوابيس فَتْح أبواب الغرف المغلقة.

لقد سبق أن فتح باب غرفة نومه فرأى زوجته تضاجع عشيقها! صار ساعتها مبهوتًا ومذهولًا ومنتشلًا تمامًا من الوعي. في حالات يعرفها ـ طبقًا لموقعه الخاص الذي يسمح له بتفتيش خصوصيات الناس وخصائص نوافذهم ـ كان بعض الأزواج يُطلقون الرصاص وآخرون يُصابون بالشلل أو الذبحة الصدرية. أما هو فقد شعر بالذهول والعجز المريع، ولم يعرف

ماذا يفعل! عرفت زوجته وعشيقها، نهضا من السرير وارتديا ملابسهما وخرجا إلى الصالة، وودعت الزوجة العشيق قائلة:

ـ رُوح إنت دلوقتي.

خرج العشيق بسرعة وهو يستكمل ارتداء ملابسه، ولم يشأ أن يمضي من دون أن يتكلم فقال:

ـ ابقي طمنيني عليكي في التلفون.

كأن سكرتير الرئيس كان ينتظر تلك الجملة، كأنها كلمة السر، فأخرج مسدسه وأطلق عليه الرصاص، انتثر معه جسده وخرَّ دم أكثر من المتوقَّع في مثل هذه الإصابات. التفت إلى زوجته التي اغتصبها الذُّعر كليةً، وبدا أن شدة ارتجافها تهز أثاث الصالة.

ظل الرئيس يسأله عن تفاصيل تلك الليلة مدة عام تقريبًا. وكان قد أصدر أوامره بلمِّ الموضوع، خصوصًا أن العشيق كان طالبًا في الجامعة لا يزال، وابنًا لوزير مخلص في الوزارة. ورفعت الشرطة يدها عن أي ملابسات في هذه القضية، ولا يوجد سطر واحد في أي ملف رسمي يحكي طرفًا من هذا الكلام، بل تم دفن جثة الشاب العشيق بشهادة صحية تُثبت أنه ميت بالسكتة القلبية. وبقيت الزوجة زوجةً للسكرتير وقتًا طويلًا بعدها. وكان يحلو للرئيس إذا رآها ـ وأحيانًا يطلب أن يراها ـ أن يسألها عن الفرق بين زوجها وعشيقها.

لا شيء يمكن أن يحدث أسوأ من أن تفتح باب غرفة فتجد زوجتك عارية في حضن عشيقها، ربما الأسوأ من ذلك فقط هو أن تكون أمك وليست زوجتك.

إلا أن ما شاهده السكرتير بمجرد أن فتح باب غرفة الرئيس الداخلية، جعله يدرك أنه لن يفاجأ بعد الآن أبدًا، أو أن المفاجأة ماتت في حياته بعد تلك اللحظة.

تسمَّر بدنه، وتثبتت أنفاسه، وهو يرى الرئيس نائمًا على سريره الواسع والفسيح وقد نفض عنه غطاءه، وتبعثرت ملاءاته، لكن النومة مستلقية وهادئة تمامًا؛ فقط غزير الدم ينبثق من صدره وبطنه ويمضي لينسكب على الملابس الحريرية والملاءات، ثم يقطر قطرة وراء أخرى، حنفية دم خربة على السجادة المفروشة حول السرير كله، الرئيس واضع ذراعيه بجانبه مفرودتين في راحة، وملامحه بلا غضب أو فزع، وخنجر كبير عريض مشرشر ولامع مغروس في بطنه، ومقبضه الفضي بلا آثار دماء.

تلقَّى رئيس الحرس مكالمة على هاتفه المحمول، عرف من الرقم أنه هاتف السكرتير الشخصي للرئيس، ردَّ عليه:

ـ يا صباح الفل يا بك.

تكلَّم السكرتير من دون أن ينتظر آخر حروف كلمات رئيس الحرس:

ـ تعالَ بسرعة لوحدك غرفة نوم الرئيس.

شعر رئيس الحرس بنبرته الملتاعة وهمسه المحفوف بالمخاطر، تساءل:

ـ خير؟! الرئيس زعلان من حاجة؟

في اقتضاب أجاب:

ـ الرئيس مقتول في غرفة نومه وغارق في دمه على سريره.

تأخَّر رئيس الحرس في الوصول إلى غرفة نوم الرئيس عدة دقائق، تأكَّد السكرتير الخاص أنها طالت أكثر من اللازم. كان على رئيس الحرس أن يفعل شيئين قبل أن يأتي: الأول أن يدخل الحمَّام المُلحق بمكتبه حتى يُغيِّر هدومه الداخلية؛ فقد بال على نفسه من هول الخبر. والثاني أن يقف تائهًا غارقًا في ذهوله يسأل بعض حرَّاسه عن الطريق إلى غرفة نوم الرئيس؛ لقد تاه في مكانٍ عمل به كل هذه السنوات من الهول الهائل الذي تلقَّاه.

لم تكن مشكلة رئيس الحرس أن الرئيس مات مقتولًا في غرفة نومه؛ حيث مسؤوليته المباشرة عن أمنه، لكنَّ المشكلة الكبرى التي حطَّمت ضلوعه أن الرئيس قد مات. فهو ـ من بين كثيرين جدًّا في هذا الوطن ـ قد وصل به الظن حد العقيدة أن الرئيس لن يموت أبدًا.

٢

تلقَّى سائق السيارة إشارة باللاسلكي تطالبه بالعودة فورًا مع حمولته من الضباط إلى القصر الرئاسي. سمع الضباط العشرة في السيارة صوت اللاسلكي الآمر والحاد، ارتمى كل واحد في خندقه من الصمت والتفكير، بينما توقَّفت السيارة في نحيب عجلاتها العريضة الغليظة، وفي ذلك الطريق الصحراوي الطويل المُغرق في وحشته استدارت وباتت جاهزة للانطلاق عائدة إلى القصر الرئاسي. ساعتها أخرج أقدم الضباط الموجودين بالسيارة سيجارة وأشعلها، فكان ذلك إذنًا عمليًّا بالتدخين في ذلك الصباح الذي تمرَّد على أن يكون عاديًّا.

ـ تفتكر فيه حاجة يا سيادة الرائد؟

خرج الدخان مع نفثات غضبه:

ـ أكيد فيه حاجة طبعًا. أمَّال عايزنا نرجع ليه.

ـ لقد سلَّمنا خدمة الليل.

ـ إذن ماذا حدث في الليل؟

ضرب بيده على ظهر السائق الذي ضغط على البنزين، وأخذت السيارة الأمريكية تجري، تحاول أن تروي عطشهم لمعرفة سر هذا الصباح الأغبر. كانت القواعد أن يتسلَّم الجناح الرئاسي كل ثماني ساعات عشرة من الضباط للحراسة، أي أن ثلاثين ضابطًا يحرسون الجناح مدة أربع وعشرين ساعة.

أما الحراسة المرافقة، فهي فريق آخر تقوده قواعد مختلفة، لكن المسؤولين عن الجناح الرئاسي في القصر هم أنفسهم الذين يحرسون أي جناح رئاسي يقضي الرئيس فيه ليلة، سواء كان في القصر، أم في البلاد في أثناء زياراته التفقدية الكثيرة، أو خارج البلاد في أي من القصور المضيفة، أو الفنادق الفخيمة التي ينزل فيها الرئيس.

كانت الجملة التي يحفظها ضباط الجناح، تلك الجملة التي رددها عشرات المرَّات خبير الأمن الأمريكي الذي درَّبهم في أحد قصور واشنطن التابعة للمخابرات الأمريكية لمدة شهرين كاملين: «مهمتكم أن ينام الرئيس مطمئنًّا؛ تحمونه من تسلل الأعداء والخصوم والاغتيال والأرق والكوابيس».

وكان يضيف عند أي استفسار رذل من أحدهم: «نعم إحدى مهامكم تفتيش زائريه في الأحلام، وإن أمكن ملازمة الرئيس في حلمه حتى نطمئن تمامًا».

طبعًا عبور عشرة آلاف ميل بين واشنطن والعاصمة كان كفيلًا بإعادة صياغة هذه الأوامر والقواعد على نحو يناسب حرسًا يحرس الرئيس منذ ثلاثة آلاف سنة حضارة.

كان كل ضابط في السيارة يشعر أنه يركب محفته إلى قبره، وليست تلك السيارة التي كانت رؤيتها علامة نهاية اليوم بالنسبة إليهم. يتسلَّمون العمل بعد وصولهم بساعة، حيث تتم إعادة تفتيشهم، وكانت القاعدة أن يخلعوا ملابسهم تمامًا، ويستحموا بماء مخصوص يسمح بنوع فريد من الأشعة تحت الحمراء أن يكشف ما إذا كان تحت جلدهم أي مادة أو معدن يصلح للتجسس أو للقتل. بعدها يتسلَّمون ملابسهم التي يتم الكشف عليها بجهاز الليزر، ثم يتسلَّم كل فرد منهم في حجرة منفردة سلاحه مع كلمة سر خاصة لاستخدام هذا السلاح فقط، بحيث لا يستطيع أي ضابط استخدام سلاح زميله من دون معرفة كلمة السر.

يتم توزيعهم على الأماكن العشرة للحراسة، في الوقت الذي يذهب فيه أفراد الخدمة السابقة للاستحمام مرة أخرى وارتداء ملابسهم المدنية، ثم كتابة تقرير عن الساعات الثماني؛ كل ضابط عن زميله التالي له في موقع الحراسة، وهي تقارير مكتوبة على نموذج مطبوع يتطلَّب فقط مجرد كتابة أسطر سريعة بخط اليد، ومجمل تقييمه مع علامات صح وخطأ على بعض الفقرات. ثم يتناولون طعام الإفطار، بعدها يركبون السيارة العسكرية المخصصة للانتقال من القصر والعودة إليه، حيث من الممنوع تمامًا على أي ضابط استخدام سيارته الخاصة أو التصريح لأي شخص من الأمن بالدخول بسيارته، وهي الأمور الصارمة التي لم تستطع قوانين الفوضى التاريخية التي يمارسها أبناء هذا الشعب التحايل عليها. عندما اقتربت السيارة ـ التي تُقل الضباط ـ من القصر في قلب الصحراء، بدا أول ما بدا صورة الرئيس تتردد أمام الأعين آلاف المرَّات، حيث هذا السور بارتفاع ثلاثة أمتار ومسافة ستة كيلومترات مكوَّن من ملايين قطع الطوب، وقد تم تصميمه على أن يحمل مقطعًا من وجه الرئيس، بحيث تتمكن أربع

قطع طوب، اثنتان فوق واثنتان تحت، من تكوين صورة ملونة للرئيس، ثم تتكرر هذه الصورة مع كل أربع قطع طوب بحيث لا ترى سورًا صخريًّا ولا حجريًّا، بل سورًا من صور الرئيس التي لا تخطئها عين على بُعد مئات الأمتار، بحيث يصنع عالمًا من الرهبة والهيبة تخلع القلوب على الداخلين والخارجين، والرُّكع السجود. كانت فكرة الطوب اختراعًا إيطاليًّا جاءت به شركة من «ميلانو» بمجرد انتشار خبر بناء القصر الرئاسي الجديد، حيث دخلت عشرات الشركات صراعًا مدويًا من أجل الحصول على صفقة بناء القصر، وكانت المناقصة المطروحة تتطلَّب شركات مقاولات عملاقة مع شركة اتصالات لاسلكية وأمنية مع شركة أثاث وديكور. وقد نجحت الشركة الإيطالية في الفوز بالصفقة التي تُدر عليها ربحًا لن يقل عن مليار دولار؛ بعد أن قدَّمت الفكرة الانتهازية العبقرية وهي صورة الرئيس على الطوب. لكن الجميع يعرف أن الفكرة وحدها لم تفتح الباب المغلق، بل إن اختيار الشركة الإيطالية لشركة مقاولات وطنية، كمقاول باطن لها، هو الذي دفع بالحكومة إلى الموافقة، على الرغم من أن كل الشركات الأجنبية فعلت ذلك، إلا أن الشركة الإيطالية تميَّزت بأنها اختارت شركة يملكُها رجل أعمال قريب من الرئيس وأشد قربًا من ابن الرئيس الذي يملك ثلاثين في المائة من أسهم الشركة. ولم تكتفِ الحكومة بالمليار الذي حصلت عليه الشركة نتيجة رضا الرئيس عن القصر في صورته النهائية وبمناسبة افتتاحه، بل منحتها كل عقود ترميم المعابد والآثار في البلاد. وعلى الرغم من انهيار أعمدة أقدم معبد في جنوب البلاد بعد أن رممته هذه الشركة، إلا أن الذنب وقع كله على الرومان الذين بنوا المعبد وليس على الرومان الذين رمموا المعبد.

الصحراء الشاسعة التي تحيط بالقصر كانت اختيارًا واضحًا من الرئيس الذي خرج ذات يوم من الحمَّام مقرِّرًا بناء قصر رئاسي جديد يبعد عن

العاصمة وفي وسط الصحراء، ولم يحاول أحد أن يسأله لماذا؟ وما عيبُ القصور الحالية؟ (للرئيس أربعة قصور في العاصمة ومثلها في أهم مدينتين بالبلاد وثماني عشرة استراحة في أرجاء الوطن). فضلًا عن أنه أعجِب بموقع إحدى البنايات في وسط العاصمة والتي تطل على النهر، فأنشِئت استراحة فوق سطح الدور السادس والثلاثين يشاهد منها الرئيس إذا عنَّ له الوحي مشهد العاصمة من فوق البناية المفضلة لديه، وقد منحها الرئيس بعد عامين لسائحة أجنبية التقى بها في إحدى زياراته للمناطق الأثرية في البلاد، حيث طلبت أن تُلتقط لها صورة معه، وأعلنت عن رغبتها الحميمة في العيش في البلاد، فأهداها الرئيس هذه الاستراحة، وقد تابعت إذاعات الوطن ومحطاته التلفزيونية هذه الهدية الكريمة من الرئيس (لكن أحدًا لم يعقب على ما نشرته وكالة أنباء فرنسية تؤكد أن هذه السائحة هي زوجة أشهر مالكي شركات السلاح في العالم، ونشرت صورًا قديمة لها مع زوجها، والعجيب أنها بثَّت صورة لها مع الرئيس وزوجها فوق ظهر أحد اليخوت منذ خمس سنوات).

وقد تأسس القصر بحيث يضم جناحًا رئاسيًّا للمعيشة والنوم، وثانيًا لإدارة شؤون البلاد، وثالثًا للراحة والاستجمام، ورابعًا لضيوف البلاد المخصوصين والمكرمين، وخامسًا لموظفي القصر وإدارة الأمن، وسادسًا للمتاحف التي تضم صوره وأوسمته وأوشحته مع وجود ملاعب للتنس وحمَّامات للسباحة ومسرح ودار عرض سينمائية، حيث كان الرئيس يدعو ضيوفه من حكام الجيران لمشاهدة مسرحية يتم عرضها في المسرح الرئاسي لليلة واحدة خصيصًا للرئيس أو للرئيس وضيوفه. وقد روى أحد نجوم البلاد مرة أنه في أثناء إلقاء حواره في مسرحية أمام الرئيس، اعترض الرئيس على الحوار وناداه من الصف الأول:

ـ ما ينفعش الكلام ده يا محمد. قولها حاجة تانية.

ولما لم يفهم محمد ماذا يفعل، صعد الرئيس إلى خشبة المسرح وألقى الحوار بالكلمات التي يريدها، فصفَّق الحاضرون كثيرًا. وفي مسرحية أخرى لم تُعجب الرئيس النهاية فغيَّرها وأعاد إخراجها ليلتها حتى يهدأ بالًا. وفي إحدى مشاهدات الرئيس لفيلم من إنتاج شركة وطنية لم تُعجبه النهاية وانزعج كثيرًا منها، إلى الحد الذي طالب بتغييرها، فشرحوا له أن هذا يتطلَّب إعادة تصوير مرة أخرى ومونتاج وإخراج وبلاوي زرقا، ثم تكاليف مالية قد تقود منتج الفيلم إلى الإفلاس، خصوصًا أن الفيلم يتم عرضه منذ أسابيع في دور العرض داخل البلاد. لكن الرئيس أصر وقرر تغيير النهاية على نفقة مخصصات وزارة الإعلام. وتم استدعاء المخرج والمؤلف والمنتج، حيث وافقوا بالإجماع على النهاية الجديدة التي يريدها الرئيس، ودعوه إلى أن يشرِّفهم في أثناء تصوير الفيلم. المدهش بعدها أن الرئيس لم يتح له وقته مشاهدة النهاية الجديدة، ثم انسحب حماسُه لهذا الموضوع تمامًا بعد طلبه أن تُعرض عليه السيناريوهات المقدَّمة من المنتجين للتأكد من صحة نهايتها، ثم لما فتر حماسه بعدها بأسابيع كان ضابط شؤون اتصال بالقصر يقرأ السيناريوهات ويعدِّل فيها بطريقته ويوقِّع تحت تعليمات السيد الرئيس. ولما أبلغ أحدُ الفنانين مصادفةً الرئيسَ، في أثناء عشاء على شرف أحد الضيوف الأجانب، وأخبره بهذه المعلومات، غضب وثار، وقرر سجن الضابط، وإيقاف الإنتاج السينمائي في البلاد مدة عام، لأن الفنانين صدَّقوا أن هذه التعليمات التافهة على السيناريوهات هي تعليماته.

وقد ثارت واقعتان في أثناء بناء القصر الرئاسي كان لهما صخب عالمي وزخم محلي:

الواقعة الأولى حدثت بعد أن اختار الرئيس موقع القصر الجديد في أثناء تحليقه بطائرة هليوكوبتر كان يقودها فوق العاصمة:

ـ أنا عايزه في الحتة دي.

ولمَّا فشل خبراء التربة الأرضية وأساتذة العمارة والبناء في إقناع مستشاري الرئيس أن هذه القطعة لا تصلح، وأصر المستشارون على تنفيذ رغبة الرئيس، ولمَّا تأكد الخبراء أن هذا معناه انهيار القصر على دماغ الرئيس بعد أشهر من بنائه؛ اقترح أحد الخبراء أن يحلق مع الرئيس مرة أخرى بالطائرة، كي يشير إلى المنطقة التي اختارها. وقد راهن، كما قال لأصدقائه، أن الرئيس لن يتذكر أي منطقة اختار، وأنه سوف يستغل ذلك لإقناعه بمنطقة أخرى. وقد فاجأ الرئيسُ الخبيرَ بأنه اختار نفس المنطقة التي اختارها من قبل، وقد فاجأ الخبير زملاءه بأنه وافق على صلاحيتها تمامًا! وبدأ البناء في المنطقة التي أجمع الخبراء على عدم صلاحيتها، لكن أحد المهندسين المفصولين من الشركة الإيطالية المنوط بها بناء القصر باع قصة لجريدة ألمانية أكد فيها أن عددًا من مهندسي وفنيي جهاز مخابرات أجنبي تسربوا إلى الشركة وعملوا في بناء القصر، وقد وضعوا في الجدران والأسقف والتربة أجهزة تجسس خارقة التقدم. وبدأت القصة في التسلل إلى آذان العالم، فما كان من الرئيس إلا أن هشَّها كذبابة على أنفه، حيث قرر هدم ما تم بناؤه وإعادة البناء في منطقة أخرى مع تحويل أطلال القصر الذي لم يكتمل بناؤه إلى متحف، دليلًا على قدرة البلاد على مواجهة الأعداء.

الواقعة الأخرى أن كاتبًا صحفيًّا قدَّم إلى رئيس تحرير صحيفة قومية من صحف البلاد مقالًا احتوى نفاقًا غير مستور لقصر الرئيس وقال فيه: «إنني أطالب السيد الرئيس بالتوقف عن بناء هذا القصر؛ لأن لديه في وطننا

٨٠ مليون قصر في قلوبنا، وأطلب منه أن يفعل مثلما فعل الأمريكان حيث بنوا بيتهم الأبيض في قلب المدينة، في قلب الناس، وأنت يا سيادة الرئيس لا تقل حضارة وعظمة عن كل رؤساء الأمريكان، بل تتجاوزهم بحكمتك وتاريخك.. سيدي الرئيس: «لقد أنجزنا بناء ملايين القصور لك في قلوبنا ولا حاجة لك بقصر جديد خارج قصورنا».

هل كان النفاق ملتبسًا إلى الحد الذي جرت بعد نشر المقال ثلاثة أحداث متلاحقة:

الأول: أنه قد تم فصل رئيس التحرير الذي وافق على نشر المقال.

الثاني: أنه قد منعت الصحيفة ستة أسابيع متتالية.

الثالث: أن الرئيس أمر بترحيل هذا الكاتب فورًا إلى الولايات المتحدة الأمريكية طالما أن الحال هناك يعجبه، وقام الضابط المسؤول برميه في مطار نيويورك ـ بدون تأشيرة وبدون جواز سفر ـ فقد أخذه بالبيجاما من شقته إلى أول طائرة أقلعت إلى نيويورك وأنزله في المطار وقال له:

ـ الرئيس بيقولك أهي أمريكا أهه يا روح أمك روح بأه امشي جنب البيت الأبيض في قلب الناس.

عندما وصلت السيارة التي تُقل حرس الليلة الماضية إلى بوابة القصر الأولى سمع الجميع صوت جنازير تزلزل الأرض الأسفلتية التي تلتف حول القصر. نظروا فذهلوا وانفزعوا وارتاعوا وضاعوا تمامًا، رأوا عشرات الدبابات العسكرية تتقدم نحو القصر موجِّهة مدافعها صوب الأسوار.

٣

كانت دقات قلوبهم مثل دقات أحذية عسكرية تسير على أرض خشبية، لم يعرف أيهم الخبر قبل الولوج إلى القصر. الشيء الذي تمكن أن يفعله مدير القصر الرئاسي بأصابعه، المرتعشة وزغللة عيونه وارتباكه المفضوح من دون أي محاولة للستر، أن اتصل بهم تباعًا وبصوت يحاول أن يحتفظ بآخر علامات تماسك الرجال قال لهم:

ـ الرئيس يريدكم حالًا.

فكر وزير الإعلام أن يكون الرئيس قد غضب من برنامج التلفزيون الصباحي الذي يتابعه الرئيس يوميًّا. في مرات عديدة طلبه أمين الرئاسة بصورة عاجلة، فينخلع قلبه حتى يدرك أن الرئيس يريد لقاء مذيعة هذا الصباح للاستفسار منها عن أشياء بعينها. أحيانًا يأتي الأمر الرئاسي للمذيعة وهي تقدم البرنامج، فتعتذر على الهواء مباشرةً حيث تمضي للرئيس في صحبتها وزير الإعلام. وفي الغالب كان الرجل ـ وخاصة في سنواته الأخيرة ـ يلقنهما درسًا في مفهوم الإعلام، ويحكي عن برامج يراها في القنوات الفضائية للبلدان المجاورة. وذات مرة ظل

يحكي عن برنامج شاهده عن حياة ممثلة، وكيف أنه عرف لأول مرة أن محاولة للاغتصاب قد تعرضت لها في طفولتها أو صباها، وأنها تزوجت ست مرات من أزواج في الحياة الفنية أو رجال أعمال. وقد دبت في ذهنه فكرة أدهشت الجميع، فقد قرر أن يدعو الممثلة إلى مأدبة عشاء، ولما جاءت استقبلها بنفسه أمام المطعم الرئاسي، ثم دخل بها إلى ركنه الخاص حيث لطمتها المفاجأة لدرجة أن صدرها ـ وقد كشفت معظمه في فستان أسود متهتك ـ راح يصعد ويهبط كأنه يلعب في بطولة جمباز؛ لقد أعد لها الرئيس مفاجأة قاضية، حيث جلس أزواجها الستة في انتظارها على نفس المائدة، والأدهى والأمرُّ أن الشاب ـ الذي صار الآن عجوزًا ـ الذي حاول اغتصابها من ثلاثين عامًا تقريبًا أحضره الرئيس بعد أن داخ عليه جهاز الأمن كله. وحين وصف الرئيس المشهد للمذيعة ووزير الإعلام لم يفته وصف ارتعاشات الأزواج، ثم لهجة الحوار التي سادت حتى تفجر من الضحك الليل كله، وندم بعدها أنه لم يسجلها بكاميرا الفيديو الخاصة كي يحتفظ بالشريط ليراه أكثر من مرة. لكنه تذكر أن لقاءات هذا الركن مسجلة كلها بكاميرات الأمن السرية وطلب الشريط الذي تم إعداده ليلتها، وباتت هذه السهرة جزءًا مقررًا من أماسي الرئيس مع ضيوفه من البلدان المجاورة، وكلما عز عليهم الضحك وانفلاتات الحديث عن الجنس المحرم، شغَّل لهم هذا الشريط، حتى إنه تلقى يومًا هدية من رئيس إحدى هذه الدول عبر سفيره في العاصمة كانت عبارة عن سهرة حمراء حامية بين مطربة شقراء وأحد عشاقها، كانا يسجلانه لاستثارة أنفسهما، لكن قوات أمن الدولة المجاورة استطاعت الحصول عليه خصيصًا لرئيس الدولة الذي آثر أن يهدي نسخة منه إلى صديقه رئيس البلاد.

حاول وزير الإعلام أن يستفسر من أمين الرئاسة، لكنه بعد أن أتم الكلمة الأخيرة في جملته أغلق أمين الرئاسة السماعة حانقًا على ثرثرة من أجل شفاه أو جسد مذيعة، وكان الرئيس يتابع تلفزيون البلاد إلى الدرجة التي صارت معها المذيعات أهم ما يشغل الرئيس في السنوات الأخيرة، وصار شغفه بمتابعة حياتهن وأموالهن جزءًا من المهام الرسمية لأمنه الشخصي ووزير إعلامه، لدرجة أنه أصدر قرارًا بإنشاء إدارة أمن المذيعات في وزارة الداخلية لا هَمَّ لها سوى تقديم تقارير مكتوبة ومصورة عن أفكار المذيعات وآرائهن وسلوكهن وعلاقاتهن الجنسية، وكان مدير أمن المذيعات هو الشخص الأكثر قربًا في وزارة الداخلية للرئيس، يختاره بنفسه من قائمة مرشحين يقدمها وزير الداخلية لرئيس الوزراء ثم له شخصيًّا، وأن تقارير أمن المذيعات هي التقارير الوحيدة في شؤون الدولة التي تصل إليه عبر مدير الأمن مباشرة، وليس عبر المراسلات الحكومية والرئاسية المعتادة. وكان من أهمية هذا المنصب أن تولى ثلاثة من وزرائه مسؤولية وزارة الداخلية تباعًا، حتى إن كل وزير داخلية بات يحاول أن يدس لمدير أمن المذيعات الدسائس والحيل لمعلوميته أنه المنافس الأول له على كرسي الوزارة. وكان الرئيس يعرف المذيعات بالاسم والصورة والموقف العائلي، وكان يتصل بهن في منازلهن أحيانًا، وكثيرات من المذيعات حضرن إلى قصر الرئاسة كثيرًا، ومكثن ساعات في المناطق المحظور تصويرها، وحدث أن فاجأ الرئيس وزير إعلامه ذات مرة في مبنى التلفزيون، حيث قرر أن يمتحن بنفسه المذيعات الجديدات حين علم من إحدى المذيعات أن امتحانًا سوف يُعقد هذا اليوم لعدد جديد من المذيعات، وقد مكث الرئيس وقتها ٦ ساعات يمتحن المذيعات الشابات وصنَّف الناجحات منهن إلى مذيعات نشرات أخبار وبرامج

مرأة وأطفال ورياضة وغيرها من أعمال التلفزيون. وجلس مع الوزير في مكتبه بعد الامتحان عدة دقائق، قال له فيها إنه أحيانًا ما كان يغضب عندما يرى مذيعة صدرها واقع، ولّا شكلها راجل وتقدم البرامج للشعب، إن المطلوب أن يحب الشعب مذيعاته ويكنَّ واجهة حسنة لسمعة بلادهن، ولذلك آثر أن يختار بنفسه المجموعة الجديدة من المذيعات، وعندما قام من جلسته وهمَّ بالخروج من المكتب وخلفه لهاث الوزير، التفت الرئيس وخبطه على كتفه:

ـ وأنا أتحداك يا سيدي لو طلعت أي واحدة اخترتها صدرها وحش.

وصار اهتمام الوزير بصدور المذيعات عملًا قوميًّا ووطنيًّا انشغل به فترة، حتى قرر أن يكون حجم ومقاس صدور المذيعات كلهن بدرجة واحدة، ووزع عليهن مجموعات هائلة من الأثداء الصناعية البلاستيكية، وأكد أنه لو رأى صدر واحدة مشفوطًا أو منفوخًا «فنهار أبوها أسود». وكادت إحدى المذيعات تطيح ذات مرة بوزيرها والحكومة كلها، حيث كانت شابة في أواخر الثلاثينيات على درجة من الحسن الفتان والتعهر المحبوك والمحتدم، وتمتلك جسارة مقتحمة وطباع ضباع في الافتراس والقنص يختار الرجل أمامها يغشاها أم يخشاها، بيضاء بحمرة، عيونها جمرة خضراء، وشفتاها عريضتان ممتلئتان نهمتان، وعودها مضبوط في مصنع حياكة رفيع. أدركت عندما دخلت على الرئيس في مكتبه أن ثلاثة وثمانين عامًا قد انحشرت بين فخذيه ساعتها، وأن حبورًا هائلًا قد تملكه فتكلم معها في كلام فارغ وتهتهات تائهة حتى وضعت يدها على فخذه وتركتها برهة من دون رهبة، فانشطر قلب الرجل واحتضنها في نزق المراهقين في الثمانين. وبكل ما تبقى له من خيالات الشهوة، كان هناك

سباق بين المذيعات حول احتلال صحة الرئيس الجنسية، لأنه لم يصل مع واحدة منهن لأكثر من قبلات فيها حمى صحيح لكن ليس فيها بعد ذلك شيء، لكن المؤكد أن تلك المذيعة استنفرت نطفًا مخزونة من سنين، الأمر الذي أسقط قلب الرئيس في حجر هواها، ولاحقها محمومًا بالسؤال عنها والكلام معها ودعوتها إلى القصر، وزيارته لها في منزلها، ثم أعرب لأمين الرئاسة عن عزمه الزواج منها. وقد خبأ مدير أمن المذيعات ملفها بمجرد ما عرف نية الرئيس وأعد ملفًّا آخر بادر بتسليمه للرئيس قبل أن يطلبه، والأمر لم يكن في حاجة إلى ملف من دون ملف، قد كان الوزراء والمسؤولون كلهم يتحدثون عن هذه المذيعة وقدومها الطاغي على دائرة النفوذ والحكم.

وقد فتح خادم حبشي بوابة القصر الخرافي الفخيم في حضن النهر لمدير أمن التلفزيون الذي كان قد عرَّف نفسه في غرفة الأمن الأمامية للقصر أمام البوابة الكبيرة مباشرة وسمح له بالدخول. وفي صالون هذا القصر الخاص استقبله صاحبه الملياردير الشاب ورجل الأعمال الذي لا يتجاوز عمره السادسة والثلاثين، ولا يقل وزنه عن مائة وستين كيلو، رحب به وهو يقدم له سيجارًا كوبيًّا طويلًا وسميكًا:

ـ على فكرة يا سيادة اللواء: هذا السيجار من مجموعة سيجارات نادرة كانت موجودة في خزانة «كاسترو» بعد مماته.

لم يستعجل الملياردير أن يسأله عن سر حضوره، وتعجل مدير أمن المذيعات أن يلقي حمولته عن ظهره:

ـ أنا هنا لأخبرك بأنني لم أقدم للرئيس ملف المذيعة.

ضحك الملياردير وهو يطلق الدخان حول حواف كلماته:

ـ فاهم.. فاهم.

استكمل مدير الأمن ما جاء من أجله:

ـ ثروتكم تتجاوز المليار دولار والعائلة لها ممتلكات في البلاد ومصالح ومصانع وشركات وأراض وعقارات.. أي أن لديكم ما تخافون عليه؛ لذلك لم أقدم الملف الذي يؤكد أن هذه المذيعة عشيقتك منذ سنوات.

ـ وما السر في ذلك.. البلد كلها تعرف.

ـ تغور البلد في داهية، المهم ألا يعرف الرئيس.

ـ أوتظن أن الرئيس لا يعرف؟

شم مدير الأمن رائحة كريهة في «أوتظن»، فتمهل في كلامه وثبت عينيه على صورة والد الملياردير وزعيم العائلة، وقال:

ـ وممن يعرف غيري؟

بسرعة وبحسم أجاب:

ـ من وزير، من مذيعة، منها نفسها!

ـ هل تظن أنها سوف تخبر الرئيس عن علاقتها بك؟

ـ احتمال.

ـ وماذا ستفعل ساعتها؟

ـ إنت لو مطرحي ماذا ستفعل؟

ـ ليس في يدك ما تفعله، تحاول أن تجعله ينسى أنها نامت تحتك يومًا ما، أو تأخذ بعضك وتخرج من البلد.

صليل ضحكته أربك اللواء:

ـ لا الرئيس ولا الحكومة تتحمل أن تخرج كل هذه الفلوس من البلد، سوف يتجاهل الرئيس تلك الحقيقة لمصلحة البلد.

ضرب اللواء فخذيه بقوة:

ـ ولمصلحته.. أما أنا حمار.

ابتسم الملياردير:

ـ ولا حمار ولا حاجة.. لكن يبدو أنك لم تتعلم كثيرًا من متابعة المذيعات في بلدنا.

نهض من مكانه بسرعة وربت على كتف اللواء:

ـ أنصحك الآن وبسرعة أن تعيد الملف القديم والحقيقي للرئيس.

ولما هم مدير أمن المذيعات بالانصراف، ناداه الملياردير مستمهلًا:

ـ إذا لم يكن لديك مانع، أنا لديَّ مجموعة أخرى من الشرائط مع المذيعة في لحظات ساخنة، إذا كنت تريد أن تزود بها مجموعتك التي سترفعها للسيد الرئيس.

ومشى مدير أمن المذيعات.

ظنت المذيعة خلاص أنها «إيفا براون» الراقصة التي أحبها الرئيس

الأرجنتيني وخاض معها كفاحه، فأحبها الناس حتى الهوس، باتت تتصرف كذلك.

لم تكن تعرف شيئًا عن «إيفا براون»، لكن منه لله أحد الصحفيين الذي كان قد تعرف عليها في بداية مشوارها، حكى لها هذه القصة بعد أن وصلت إلى القصر الرئاسي فأمدها بحدوتة صالحة قبل النوم.

تهيأ الجميع لزواج الرئيس من سيدة تصغره بحوالي خمسين عامًا، كانت عشيقة معتمدة لملياردير شهير في البلاد، لكن شيئًا غامضًا قد جرى حيث اختفت المذيعة من الساحة ولم يعد أحد يراها، وكف الرئيس عن الكلام عنها في سهره مع سفير عربي مغرم بالشعر. كشف الرئيس عن هواية جديدة حطت عليه وهي كتابة الشعر، وبدأ يتلو قصيدة طويلة في حب امرأة، كانت خليطًا من الطفولة والمراهقة والتفاهة، ولكنها في النهاية كانت تعبيرًا عن ولع بامرأة حقيقي من ذلك الذي يلحق به العجائز في آخر أعمارهم كمن يلحق بقطار خرج من المحطة حيث تشبث بعربته الأخيرة. وقد نالت القصيدة بطبيعة الحال إعجاب الحاضرين وتهليلهم، الأمر الذي شجعه على نشرها في الصفحة الأولى في الجريدة الرسمية اليومية تحت توقيع سيد العشاق (ولم تكن هناك قطة في البلد لم تعرف أن الرئيس كاتب هذا الشعر).

المهم قلق وزير الإعلام أول ما قلق من غياب المذيعة المجهول والغامض، وسكوت الرئيس عن ترديد اسمها على الفارغ والملآن كما كان يفعل، وحاول أن يستفسر من مدير أمن المذيعات، لكنه لم يشف غليله، ومن الأمن الوطني. لكنه عثر على أسئلة كثيرة مما حظي بأجوبة، وأدرك أن كل الأجهزة والمسؤولين يسألون عن سر غيابها، ولم يجرؤ أحد أن

يسأل الرئيس على الرغم من أن الأسئلة كانت محشورة في حلوق الجميع. وكان كلما التقى وزيرٌ وزيرًا، فإن أول سؤال يحتل مقدمة الحوار: «فيه أخبار عن المذيعة». وطارد الجميع رجل الأعمال بحثًا عن إجابة، فكان يضحك حتى ينفجر الدم من وجهه، ثم يرسم ملامح الجدية.

وبدأت شائعات تملأ البلاد أنها كانت جاسوسة دسها جهاز مخابرات عالمي، وعلى الرغم من أن وصول الشائعات للرئيس كان شبه مستحيل؛ لحنقه الغريب على من يبلغه بأيٍّ مما يردده الناس في الشوارع، إلا أن هذه الشائعات وصلته وضحك جدًّا عليها حتى تحرك طقم أسنانه وقال:

ـ مخابرات عالمية بتتجسس عليَّ.. ليه طيب ما أنا بأقول لهم كل حاجة.

ثم سرت وانبرت شائعة أخرى، مفادها أن الرئيس قد أهدى هذه المذيعة إلى ولي عهد إحدى الممالك العربية جزاء صفقة ضخمة خرج منها الرئيس بملايين الأموال.

وباتت الشائعات تسري وتجري حتى نسي الناس وهمد فضولهم.

ولكن الرئيس نفسه أذاع سره وكشف أمره في اجتماع مع اتحاد رجال الأعمال في الذكرى العاشرة لاختياره رئيسًا فخريًّا لرئاسة الاتحاد.. ولقد بُهت جميع من حضر وكل من سمع، بل إن الملياردير نفسه غاص في انفعال مكتوم حيث يجلس على بُعد رجلين من الرئيس.

قال الرئيس:

ـ وبعدين، البلد كلها قالت أصل الريس ح يتجوز فلانة، يا سلام على النصاحة.. هو أنا لمَّ أعوز أتجوز ح أخبي، وبعدين قالوا لا، دا الكلام صحيح وفلانة المذيعة بتقوله في كل حتة، وأنا سكت وصبرت لغاية

ما الموضوع كبر وطول، مسكتها من إيدها وهزأتها وقلت لها بقى أنا أتجوز راجل..

سكت ثم واصل:

ـ إيه مش مصدقين.. المذيعة دي كانت راجل وعمل عملية تحويل جنسي بقت ست.. تفتكروا معقولة أتجوز راجل!

٤

لم تطف طيوف الخوف بقلب وزير الداخلية حين تلقى لحظة استيقاظه من النوم مكالمة أمين الرئاسة التي تحث على الحضور فورًا إلى القصر الرئاسي كطلب عاجل من السيد الرئيس، صحيح أن هذا الحدث لم يحدث منذ ست سنوات هي طول عمره في الوزارة، كان كلما احتسى نصف الكأس الثانية من خمر ناقع الأثر يفخر أنه أكثر وزير داخلية عاش على عرشه في عهد السيد الرئيس.

لم يرتبك لكنه اندهش، لم يخف لكنه فكر ودبر. لبس ثيابه الرسمية وأمر السائق بالاستعداد، وضربت نوبة الحراسة كعوب أحذيتها في الأرض، وصهلل حد السونكي في انعكاسات الشمس الطالعة الطازجة. طلب من السائق أن يعجل من سرعته، وبدأ يتصفح الجرائد التي تُترك له في العادة على المقعد الخلفي كي تكون بجواره في مشواره من البيت إلى الوزارة، لكنه بعد برهة ألقى بها جانبًا.

كلما كان الرئيس يريد أن يثني عليه، يقوم أمين الرئاسة بالاتصال به

تلفونيًّا ويخبره برضا الرئيس عن موقف أو تصريح أو قضية، أما إذا كان الرئيس يريد أن يوبخه فإنه يتصل به مباشرة:

ـ إنت نايم على روحك؟

ـ ليه بس يا سيادة الرئيس؟

ـ قول لي لو إنت مش نافع في الداخلية وعايز وزارة نسوان أديهالك.

ـ أنا باستسمح سيادتك تهدا بس وتؤمرني فيه إيه.

في كل مرة كان أمين الرئاسة يسبق الرئيس مثل موتوسيكلات المواكب الرسمية الرئاسية، ويطلبه في الهاتف السري، يخبره بأن الرئيس غاضب من الشيء الفلاني حتى ينتبه ويحذر ويستعد. كانت العلاقة قد توثقت روابطها واشتد تعقد عقدة حبلها مع أمين الرئاسة، منذ لجأ إليه حين قتل ابن شقيقه شخصًا بسيارته، كان مخمورًا، وفي صحبته بنت من هؤلاء اللواتي يجبرن القدر على خذلان من يخضع لهن. كتبت الصحافة في اليوم التالي، وبدا أنها وجدت أخيرًا فريسة في غابة مهجورة، لم تلمِّح للاسم ولم تقل صراحة تفاصيل الحادث، لكن أمين الرئاسة أدرك أنه لو دخل خصومه هذه الحلبة فإن الجلبة الصحفية سوف تدغدغ سمعته، وتقدمه ممسحة لحذاء الرئيس. في اليوم التالي خرست الصحافة تمامًا وانقطع لسانها عن هذا الحادث، قد أفلح في حركة خاطفة ومثيرة للإعجاب في دس أكياس قطن في حلوقهم. بقي كيف يمحو آثار الحذاء من على جسده، فلم يكن أمامه سوى اللجوء لوزير الداخلية قال له:

ـ إن الحل الوحيد أن يعترف بسرعة ونسرع بإجراء محاكمة تقضي بما تقضي به.

ـ يعني إيه؟! الواد يترمي في السجن كام سنة ويضيع مستقبله، إنت عارف أنا لم أنجب وأعتبره مثل ابني، وهو شاب نابه وذكي، لا أريد لخطأ مثل هذا أن يقضي على مستقبله.

رد وزير الداخلية ـ وهما يرتكنان على ظهر أريكة في آخر مكتبه الواسع:

ـ مستقبله ولّا مستقبلك؟

بسرعة كمن يحثه على الوصول إلى حافة السطح:

ـ مستقبله ومستقبلي!

ـ وإنت خايف من إيه؟ أهل القتيل وممكن نرضيهم بأي مبلغ. الصحافة واشترت خاطرك، وسكتت، ثم إن الواد ما زال صغيرًا، وكم مليون حادثة مثل تلك منذ سنوات طويلة وأنت غير مسؤول عنه ولم تقد سيارته.

نهره أمين الرئاسة بعيونه ثم غرس كلماته في نحره:

ـ سيادة الوزير.. إنت عارف ولّا بتستعبط؟

ـ عارف وباستعبط.

أكمل كأن شيئًا لم يكن:

ـ الواد ابن أخي كان شريكًا لابن نائب رئيس الوزراء في أعمال تجارية واسعة، انتهت بمخاصمة بينهما كبيرة، لم يتم حلها حتى الآن، والموضوع فيه ملايين، لو شم نائب رئيس الوزراء وابنه رائحة فضيحة للواد سوف يقضمون ظهره.

وكانوا قد شموا فعلًا واستطاعوا الوصول إلى أهل القتيل ومنحوهم مبلغًا ضخمًا من المال حتى يتمسكوا بالقضية، وأخذوا عليهم عهودًا وعقودًا مما أفشل جهود أمين الرئاسة سواء في دهاليز القضية أو في سراديب القضاء، وباتت لعبة يتابعها السياسيون كل يوم: عمَّ تُسفر وهل ستقضي على كليهما؟

المحاكمة التي أسرعت كل الأطراف في حث سرعتها قضت بسنة سجنًا لابن شقيق أمين الرئاسة، وظهر أن المعركة انتهت لصالح نائب رئيس الوزراء وابنه وخاصة أنهما قد حصلا على نصف التعويضات الواجبة لشركة ابنه من أصول أمين الرئاسة وذلك قبل صدور الحكم بأسبوع حتى لا يعملا على دفع الحكم إلى منطقة نهائية لا رجعة فيها. لكن لولا تدخل وزير الداخلية ما أمكن أن يتم إطفاء الحريق في ستائر حياة أمين الرئاسة، فقد أدخل الولد السجن فعلًا وسوَّد الأوراق اللازمة، لكن من صباح اليوم التالي كان الولد خارج السجن يقضي حياته الطبيعية، بينما تؤكد الأوراق أنه سجين، وبعد انتهاء المدة وبقدرة قادر ضاع الملف الخاص بالقضية وملف السجين نهائيًّا، واستقر في خزانة أمين الرئاسة، ومعه استقرت علاقته بوزير الداخلية إلى حد بعيد، مما كان يستلزم منه أن يقدم بين الحين والآخر خدمة خفية لوزير الداخلية على سبيل رد الجميل وكفٍّ قبضة المبتز عن جيبه.

حتى إنه عند اندلاع أزمة الجاز لم يتخل عنه أمين الرئاسة، على الرغم من الغضب الصارم عليه من الرئيس الذي كان يسبه أمام الجميع ودفعه بقبضة في بطنه ارتج لها قلبه حتى أحس أن مس النار أرحم.. على الرغم من أن الأزمة كلها كانت بسبب خطبة للرئيس، إلا أن

وزير الداخلية لبسها وحده، وكان مطلوبًا منه أن يجد حلًّا قبل أن يعقدوا حبلًا على رقبته.

يومها كان النهار عاديًّا للغاية والموضوع أسهل من أن يهتم به أحد، حين خطب الرئيس أمام البرلمان خطبته السنوية، وكان من عاداته أن يستمر في الخطبة أكثر من ثلاث ساعات يحكي فيها تاريخ ولايته منذ ثلاثين عامًا، عامًا عامًا، وكانت تختلط عليه الأعوام والأسماء والأحداث، لدرجة أن الخطبة تنشر في اليوم التالي في الصحف بعد أن يعيد كتابتها وزير الإعلام، فضلًا عن عملية مونتاج سريعة لحذف القصص الوهمية والأسماء المغلوطة. وقد فكروا أن يصدر قرار بعدم إذاعة الخطبة على الهواء مباشرة، لكن لما علم الرئيس بنيتهم وبَّخهم، وكاد يخلع حذاءه لوزير الإعلام، ولم ينقذهم من ثورته سوى حضور مذيعته المفضلة التي اقترحت في غمرة محاولة تهدئة الرئيس أن تقرأ هي خطاباته بصوتها كما كان يفعل الرواة مع الشعراء العظام في التاريخ العربي. واستخف الجميع بما سمعوا إلا الرئيس نفسه الذي أخذ الاقتراح على سبيل الجد وطلب منها أن تردد خلفه افتتاحية خطبته المعتادة، فكررت وكركع هو من الضحك وقال ـ ختامًا للموضوع كله:

ـ أما عيلة هبلة صحيح.

في خطابه الافتتاحي أمام البرلمان الذي أفاض فيه ومط فيه ونسي فيه وكذب فيه كما يريد، توقف فجأة وصمت تمامًا، فاستيقظ النائمون على صوت هذا الصمت الثقيل، واعتدل من اعتدل، وتأكد مهندسو الصوت من عافية أجهزتهم، وارتبك مصورو التلفزيون ماذا يفعلون؟ لكن الرئيس أنقذ كل هؤلاء من الارتباك حين تكلم بصوت غاضب حانق ثائر كأنها نوبة صرع سياسي:

ـ من يومين كده سمعت إن فيه ناس مش عاجبها حال البلد، طبعًا أنا عارف إن فيه ناس ناكرة للجميل، والشعب زي أي حاجة في الدنيا، فيه النظيف وفيه الوسخ، أنا بأقول من هنا لشعبي وبكل تاريخ الصراحة اللي بيننا: «اللي مش عاجبه البلد يا جماعة يولع بجاز.. إحنا ماعندناش أحسن من كده.. أكثر من كده إيه؟ لذلك بأقول بوضوح وصراحة: اللي مش عاجبه يولع بجاز».

أدرك رجال الرئيس ساعتها أن هذا شيء مخالف لكل قواعد اللعبة، وأن الرئيس قد تخلى عن حنكته، وربما كان لتصلب الشرايين علاقة بما جرى (آخر فحص طبي لصحة الرئيس أثبت أنه أكثر شبابًا من شاب في الخامسة والثلاثين، وأنه لا يعاني من أي علة على الإطلاق).

لكن الجميع راهن على أن البلد ـ إذا كانت لا تزال البلد التي نعرفها ـ لن تثور أو حتى تحس على دمها وتغضب وتتضايق مثلًا.

من ثَم لم يعلق أحد ـ كائنًا من كان ـ على كلمة الرئيس في خطبته، ولكن بعد يومين بالضبط جرى حادث غريب أمام مبنى البرلمان، حيث كان المارة يمشون في طرقهم المسموح بها أمام البرلمان وسيارات الأمن في مواقعها وحرس الوزارات في أبراجهم والشارع الرئيسي المطل على البرلمان في حركته اليومية الصاخبة، حيث تقدم شاب في العشرين تقريبًا من عمره، يرتدي قميصًا أبيض وبنطلونًا أبيض، وأخرج من حقيبة سوداء يحملها عبوة جاز كبيرة، دلقها على نفسه بسرعة فأغرق جسده تمامًا، ثم في لحظة خطف وأشعل عود ثقاب وولع في نفسه.

شب حريق مريع في جسد الشاب الذي أخذ يلتف حول نفسه، ويدور ويلف ويحرك ذراعيه المشتعلتين بالنار في الهواء. أثار المشهد الرعب

في القلوب، حتى إن كثيرًا قد أُغشي عليهم وسقطوا على الأرصفة، بينما شُلت أيادي سائقي السيارات واندقوا في الأرض بلا حركة، أما رجال الأمن فأقدموا على حركة بعد فوات الأوان وحاولوا أن يتدخلوا، لكنهم اكتشفوا أن لا حيلة لهم، فقط أحاطوه بالمدافع الرشاشة وهو يقفز على الأرض بجسده المشتعل كحركات الأكروبات في السيرك.

لم يسمع أحد في هذا الوجود إلا صوت الريح يضرب هواءه في لهب النار المشتعل في جسد الشاب.

حار الناس في الخبر الذي انتقل بسرعة انتقال القنوات الفضائية، لكن لم يلتفت المسؤولون إلى الحدث إلا عندما أذاعت إحدى الإذاعات الأجنبية أن خطابًا وصلها عن طريق الإنترنت يؤكد أن حادث إشعال الشاب النار في نفسه أمام البرلمان في بلادنا، كان ردًّا على خطبة الرئيس التي قال فيها: «اللي مش عاجبه يولع بجاز». ولأننا لا يعجبنا ما يجري فقد قررنا أن نُشهد العالم على أننا نولع بجاز حسب نصيحتكم.

انقلبت الدنيا على دماغ وزير الداخلية، فقد صار هو الشخص الوحيد الآن المسؤول، عن حُسن جمال صورة البلاد في الخارج، والإمساك بهؤلاء الذين استخفوا بمخاطرة مواجهة الرئيس، وكان القرار الأول هو إغلاق الشوارع المؤدية للبرلمان والمحيطة به وعدم التصريح بدخول أحد سوى الموظفين في البرلمان أو الضباط أو أعضاء البرلمان والمسؤولين.

لكن الحدث التالي لم يكن في أيٍّ من تلك الشوارع، لقد كان مبنى التلفزيون يشهد ازدحامًا يوميًّا من الموظفين الذين يرغبون في إعلان شكواهم وآلامهم على شاشات التلفزيون للحصول على أموال من أصحاب الصدقات والمتبرعين للغلابة، وعلى الرغم من وجود أكثر من

دبابة وعربة مدرعة أمام المبنى، إلا أن شابًّا في الثلاثين من عمره، تقدم نحو باب مبنى التلفزيون الشاهق وأخرج من تحت قميصه كيسًا كبيرًا من البلاستيك مليئًا بالجاز، أغرق به نفسه متعجلًا وبأصابع مرتعشة، وبينما يفيق الناس للحدث إذا به يشعل النار في نفسه، فتهبُّ لهبًا حارقًا خانقًا. وسط صراخ وعويل وفوضى وصفارات إنذار المبنى وحركة الدبابات الزائفة ولَهْث أحذية العسكر نحو المكان، كان الشاب يرقص وهو يشتعل ويقفز على الأرض ويلوح بذراعيه، ويتحرك يمينًا ويسارًا ويلف حول نفسه ويقترب من العساكر حتى يدنو ويبعد حتى يكاد يلتصق بالناس، وكلما حاصر وزير الداخلية مكانًا رسميًّا أتاه الحريق في مكان آخر. أغلق المناطق المحيطة بالبرلمان والتلفزيون ومجلس الوزراء والوزارات الرئيسية، فجاءه الحريق مشتعلًا في جسد شاب من المولعين بجاز أمام استاد كرة قدم في أثناء خروج جمهور مباراة مهمة ومزدحمة، أو أمام دار عرض سينمائية تشهد افتتاح مهرجان سينمائي. جماعة المولعين بجاز التي لا يعرف أحد عنها شيئًا والتي أتت بعد أعمار طويلة من استسلام المعارضة في البلاد لرخاوة الحكم ورخاء السلطة، بدأت في تحديها للحكومة أن تخبر وكالات الأنباء بمكان وموعد الحريق القادم الذي سوف يشعل فيه أحد أعضاء الجماعة نفسه بالنار احتجاجًا على خطبة الرئيس التي تطالب المعارضين بأن يولعوا في أنفسهم بالجاز.

وقد حاول وزير الداخلية أن يطوق القضية بإذاعة عشرات الأحاديث للشيوخ عن حرمانية الانتحار، واستجاب وزير الإعلام وأذاع كل هذه الفتاوى، واشتدت حرب الدين على هؤلاء، بينما استعمل وزير الداخلية كل إمكانيات التقنيات الحديثة في تشريح الجثث المحترقة كي يعرف مَن هؤلاء. وبينما جاءته مئات البلاغات التي تم اكتشاف عدم دقتها أو عدم

صحتها، جاءت نتائج التشريح دونما أن تصل لأي شيء سوى بصمات أصابع ضاعت ومعالم أسنان لم تهد أحدًا إلى حل، فقط ثبت أن الجاز من النوع سريع الاشتعال وأن جميع الذين أحرقوا أنفسهم كانوا يرتدون اللون الأبيض.

وانتشرت قوات الأمن السرية كالمجانين في كل مكان وبدأوا يشتبهون بالعابرين والمارين، لقد كان الرئيس يوبخ وزيره في اليوم عشرات المرات ويهدد بإقالته إذا لم يجد حلًّا لهؤلاء الكلاب، حتى تمكنت قوات الأمن من ضبط شاب أمام مصلحة الشهر العقاري يرتدي الملابس البيضاء ومعه كيس بلاستيك ممتلئ عن آخره بالجاز، اشتبهوا فيه فاحتجزوه وبدأوا في استجوابه ولجأوا إلى تعذيبه، وبينما أوشك على الموت أكد أنه لا يعرف أن هناك جماعة بهذا الاسم أساسًا، وأنه فقط ضج من حياته وبطالته وحال دولته، فقرر أن يشارك الموتى موتهم والمحترقين حريقهم. وأسرعت جماعة المولعين بجاز بإرسال بيان وقف نشاطهم أولًا: لتمام بلوغ رسالتهم، ثانيًا: إنهم لا يريدون لأحد أن يتخذ رسالتهم وشهادتهم ذريعة للانتحار والخلاص من الدنيا.

وبينما بدأت أصداء هذه الحوادث تضمر في الذاكرة إذا بالرئيس يُقدِم على فعل آخر اختلطت فيه الغرابة بالطرافة بالسياسة، حتى لم يكن هناك شخص في البلاد لا يتحدث فيه مع أحد أو حتى مع نفسه.

كان الرئيس في زيارة لافتتاح المعرض الزراعي السنوي حين توقف مع مرافقيه عند جناح مزرعة بط ودواجن، وبينما مال وأمسك بطة يقيسها ويتحسسها، كان ينغمس في حوار مع أحد الوزراء أو المسؤولين في المعرض، واستغرقه الحديث مع الوزير، مشى وهو يمسك البطة يتنقل

من جناح إلى آخر، والكل من حوله خائف ووَجِل من لَفْت انتباهه لضرورة ترك البطة، بينما انتهز المصورون ذلك والتقطوا له عشرات الصور ممسكًا بالبطة في يده من جانبي جناحيها وهي مستكينة كأحد رعاياه تمامًا.

ثاني يوم الصبح كانت صحف العالم كلها تنشر صورة الرئيس مع البطة، فما كان من إعلامنا سوى أن تعامل مع البط بقداسة مريعة وأرجع ذلك لعوامل تاريخية، وظهرت مقالة في الصحيفة الرسمية الأولى عن «العلاقة بين الإنسان والبطة.. اختلافات وتشابهات».

وجاء الموضوع على دماغ وزير الداخلية حين اقتحمت ثلاث سيارات نقل مبنى الحزب المركزي الذي كان الرئيس يلتقي فيه مع بعض أعضاء هيئته التنفيذية. لقد كان صاحب السيارات الثلاث أحد أعضاء البرلمان من أرياف البلاد، جاء للرئيس بهدية: حوالي ثلاثة آلاف بطة، أنزلها من السيارات النقل في أفواج منتظمة ومزدحمة، كأنها صفوف مظاهرة عسكرية، حتى امتلأت بهم الساحة المحيطة بمبنى الحزب، وصعدت البطات على ظهور السيارات وأسقفها ودرجات سلالم المدخل الرئيسي مع أصواتها المختلطة و«كاكات» لا تحصى ولا تعد، ولما بلغ الأمر للرئيس ضحك وأمر بإرسال البط إلى وزارة الزراعة للتصرف. وقد أصابت النائب خيبة أمل من تحويل هديته للزراعة، فتساهل في قيادة رجاله الذين جلبوا البط، فتمردت مئات ودخلت إلى الميدان الرئيسي، فانهار المرور تمامًا، وتعطل ساعات طويلة، حتى إن الأمن فضل أن يرحل الرئيس من مبنى الحزب في طائرة هليوكوبتر، لأن البط صعد الكباري وعطل سيرها وتكدست السيارات كأنه يوم الحشر.

لكن البط لم يشأ أن يرحل عن الساحة السياسية إلا بعد ضيق صدر

الرئيس بالبط، حيث فوجئ يوم إلقاء خطبة عيد العمال، أن العمال الحاضرين للاحتفال قد جلبوا معهم مئات البط؛ كل واحد جالس ممسك ببطة على حجره، فاستفز الرئيسَ المشهد، فتوقف قبل إلقاء خطبته، وفي منصة الاحتفال صرخ فيهم:

ـ تعرفوا أنا لو باربي بط كان أحسن من تربية شعب زيكم.

وزاد احمرار وجهه وانفلات صوته وارتجاج يده واهتزاز ميكروفونه.

ـ كله يخرج بره القاعة، وسيبوا البط على الكراسي.. أنا ح أخطب للبط يا رعاع.

٥

افتقد الدراجات النارية التي تُخلي الطرق أمامه كأن العالم يفتح ذراعيه ـ فخذيه ـ له، الصوت الذي يدوي معلنًا قدومه للعابرين والسائرين كان يذيبه سعادة، نشوة، كأنها ارتقاء جسد ملكة. السيارات السوداء العالية التي تمنح إحساسًا بالارتفاع والعلو والترفع التي تسبق سيارته الطويلة ذات السواد الغامض العميق، آيات السلطة تمخر في عباب العامة. الشوارع حين تتعطل، والمرور حين ينتظر، والموكب حين يمرق، والنفير الزاعق ورنين النجدة، وأسنة رماح المدافع الرشاشة، والملابس الكاملة السوداء ذات رابطات العنق المحكمة، وبروز انتفاخ المسدس فوق خصور الحرس، وعلم الوطن يرفرف لسانًا من فم النفوذ النافذ في وجه العاديين الرعية الرعايا، كان يمثل أنه مستغرق في قراءة ملف، أو مهاتفة مسؤول. لكنه ببصره كله، بحواسه كلها، يثب على التفاصيل، يرقب المشهد بسواده الجلي، ملمح الفرح خبيء في طيات جلده، يسعد بالسواد الذي يعطي إحساسًا للجميع بالغموض، السرية، المجهول، المستور، الممنوع، المُحصَّن.

عندما اقترحوا عليه تغيير لون سيارات موكبه ورَكْبه بلون آخر رفض، قال إن موكب رئيس الوزراء بسواده ساد منذ زمن ولا يصح تغيير عادة السادة. لكن في خباء سره وخفاء أمره، كان لا يريد للسواد أن ينزاح شيئًا فشيئًا، لونًا فلونًا صار يتوحد مع سر السواد وسواد السر. قيادة الأمر كانت تلمس أنامله حينًا، وتراوغ حينًا آخر، دهاء الرئيس ما كان يخشاه. لعل هذا الصباح أكثر ما جرحه وعكر فرحه أن أمين الرئاسة أخبره بالحضور إلى القصر الرئاسي؛ كان هذا طبيعيًا، لكن فسد معه سده العالي من الطمأنة أنه طلب منه أن يأتي من دون موكب.

حين كانت مواكب سياراته كانت مراكب سيادته.

لكنه ـ الآن ـ في طريقه إلى صحراء زرع فيها القصر الرئاسي، كان قلبه أسيفًا وقلقه مخيفًا وربيعه خريفًا.

ـ هل حل غضبه؟ هل نزل مقته؟

تقلبت أمعاؤه وارتج نبضه ووجل جلده، أيصير كل ما كان هباء منبثًّا؟! أترحل السيارات والحرس والرهبة والهيبة والسلطة والإمرة والإمارة؟

كان كل يوم يعدي يعدو يحاول أن يبقيه، فهو يوم من السلطنة يبرق، هل تفوت الأيام حتى يخلو الزمن من اسمه كرئيس للوزراء؟

كان الرئيس متقلبًا، لكنه نجح في أن يتقلب على أي جنب يريده. تعلم مشية القردة، مواء القطة، حتى يرضى عنه فيبقيه على كرسيه. كان يحلم بهذا المقعد منذ سنوات حين حبا إلى أول مقعد في مجلس الوزراء، يرتج عمره مع كل تغيير وزاري، يرتعش إيمانه كلما ترددت شائعة عن تعديل أو تغيير، كان مستعدًّا أن يعمل خادمًا للوزراء أصحاب النفوذ،

وخادمًا للأقربين عند الرئيس. كان يبعد عن الصراعات ويسلم جسده لمن يركب، فقط ليتركوه هنا. يشم سجاد مبنى مجلس الوزراء، طلاء الحوائط، يتحسس بروز الخشب في المقاعد، رسوم البلاط، نقش الأسقف، كل ليلة على فراش سريره يرتعد خوفًا من أن يمر الصبح على جثة منصبه. تعلق بالوزارة حتى أدرك ـ قطعًا ـ أنه سيموت لو تخلت عنه، فزاد جريه وجبنه وهضم قلقه من زوال النعمة فرحة بنزولها، وأوقعه توقعه حلول النقمة في براثن العلة. كان يدخل مرضًا يخرج من مرض، لكنه كان يرفض أن ينام على وسادة في مستشفى؛ مخافة أن يعود مُعافى من مرضه مُعفَى من سلطته ووزارته.

حتى جاء اليوم الذي سطع فيه نور شمسه وغار منه غم نفسه واستدعاه الرئيس في عجلة ليخبره بأنه قرر تعيينه رئيسًا للوزارة، لا يزال يتذكر، قفز قلبه وغمره نهر من السعادة حتى فاض فبلل روحه، انحنى على كف الرئيس وقبلها؛ امتنانًا لا حدود له وعبودية لا تردد فيها، يتذكر أنه من صباحها لم يمس زوجته ولا أيًا من النساء، نشوته بسلطته أشبعته حتى الامتلاء. من صباحها.. كان غرامه موجهًا إلى بوق السيارات السوداء، إلى لون سيارته، وإلى طريق يخليه الحرس من السيارات والعابرين حتى يمر، كان يهبط بقدميه من السيارة بعد أن يفتح الحارس بابها مترددًا وئيدًا، يتمنى أن يظل عمره كله في المقعد الخلفي الوثير الطري، يسند ظهره على المسند ويرقب الموكب مارقًا والطريق يخلو من الناس والسيارات.

كم تمنى أن يطلب من سائقه أن يبطئ من سيارات حراسته أن تتمهل: مستعجلين على إيه؟! أليس الأسفلت يبرق تحت العجلات؟ أليست تغاريد العصافير تتدنى وتتقزم أمام نفير أبواق السلطة؟ أليس الحارس

بخوذته المعدنية فوق رأسه، على دراجته النارية كرؤوس الخيول في مواكب الخلفاء والأمراء؟

حين انسحب عنه موكبه، احتلته الريبة وظنون الشك ورعشة الحمى. حاول أن يخفيها عن حرسه، وسائقه ظن أنه بال على نفسه اضطرابًا، فأخذ يمسح بجنون وتوتر مكبوت بنطلونه بورق المناديل، لم يغضب الرئيس في شيء.. لكن مَن يعرف؟

آخر مرة هل تجاوز حده من الأحلام في جلسته مع الرئيس؟ هل بان عليه جموح الرغبة؟ طلب منه الرئيس أن يعد قائمة بتغيير وزاري شامل.

وضع أوراقه في ملفه ومضى إليه في القصر، وجد أن اللقاء في جناح المتحف، وماله؟ هذا هو المكان الذي يشعر فيه الرئيس بتمام لذته وكمال عافيته وعلو ذاته. المتحف يحمل اسمه ويحتل أبرز مواضع المباني في القصر الرئاسي، بلونه الأبيض وقبته السماوية وتضاريسه العربية ومدخله الرحب وأشجاره الباسقة وأعلامه المرفرفة وبوابته الأندلسية وخضار أرضه.

يدخل المرء ليرى قاعات متساوية في دائريتها تمتلئ جدرانها بصور الرئيس. في كل قاعة مجموعة لمناسبة. في قاعة الرياضة صورة بكل الأحجام والمساحات والارتفاعات للرئيس وهو يلعب التنس، في ملعبه الرئاسي، في نادي الرفعة، في ملاعب الرؤساء الأجانب، بالشورتات البيضاء، بقبعة في الصيف تحمي من الشمس، تحت ملعب مغطى. في الشتاء، صور مقربة ليده تمسح المضرب، لقدمه تجري على النجيلة، لعينه تتابع الكرة، لظهره ينحني لالتقاط كرة، لعنقه يعلو لصد رمية، لقبضة كفه على كرة يستعد لإطلاقها في الإرسال، لابتسامته مع الخصم، لمصافحته

مع المهزوم بعد الهزيمة، لمداعبته بطل التنس العالمي، لصورة تجمعه مع بطلات التنس لدى حضورهن لبطولة في البلاد.

وقاعة تجمع صوره وهو يتسلم الدكتوراه الفخرية من شتى جامعات العالم بروب العالم الأسود الحريري، بقبعة التخرج المثلثة بوشاحات شتى في ألوانها تلف كتفيه، بمصافحته للأساتذة الذين يقلدونه الدكتوراه، ووجوههم تعكس عالميته وشهرته النابضة؛ صور مع رئيس جامعة بكين، موسكو، برلين، بروكسل، كوالالمبور، واجادوجو، جوهانسبرج، بنسلفانيا، القاهرة، بوخارست، كييف، الزقازيق، أم القرى.

الوجوه البيضاء والسوداء والحمراء والبنية التي تصافحه وتحتضن صوره.. يلبس روب الأستذة، يتسلم الدكتوراه، يتقلد الوشاح، يصافح، يعانق، يحيي، ينزل السلالم، يتكلم في الميكروفون، يخلع الروب، يعطي الحقيبة الجلدية التي تضم الشهادة إلى سكرتيره، يعانق طالبة تهنئه. قاعة الملابس العسكرية تضم صوره وهو يرتدي بذلات البحرية الجوية، الدفاع الجوي، الصاعقة، والكوماندز، بذلة القائد العام، بذلة المشاة، بذلة سلاح المهندسين، بذلة الاستعراض العسكري، بذلة ضابط إنجليزي، زي ضابط ألماني، في زي قوات المارينز الأمريكية، قبعة روسيا القطنية على رأسه، فوق حصان بزي سلاح الفرسان، فوق جمل في زي سلاح حرس الحدود، بزي قوات حفظ السلام الدولية.

لا يرتاح الرئيس إلا في قاعة الشعب، حيث تمتلئ الجدران بصوره مع الشعب في كل مكان، عبر كل هذه السنوات، مزدحمين على رصيف قطار وهو يطل برأسه مشيرًا بيديه بالتحية. عشرات الآلاف يجرُون وراء سيارته في موكب يطوف الشوارع، مئات الطلاب من الشباب حوله

في زيارة للجامعة، وفد نسائي يحيط به في مقر المؤتمرات العامة، أعضاء مجلس النواب يتزاحمون لمصافحته، مئات الأطفال يرقصون حوله بملابس سندريلا، الجونلات البيضاء المرفوعة والدثار الحريري المزركش، الفنانون في طابور لمصافحته في أثناء زيارة أحد استديوهات التلفزيون، مئات العمال يلتفون في مصنع حوله وهو يرتدي البالطو الأبيض والقبعة البلاستيكية، آلاف الجنود يهتفون له في زيارته لموقع عسكري، الأجانب والسياح في أحد المعابد يلتقطون الصور معه، مزاحمة المثقفين والصحفيين حوله وهو يفتتح معرضًا للكتاب.

من شدة راحة الرئيس في هذه القاعة، سماها الواحة، وأمر بوضع مكتب صغير في أحد أركانها، وفي الأمور المهمة الخاصة بمقدرات الأمة يستدعي الرئيس المسؤول إلى هذا المكان حيث يتباحثان والأمة تشهد عليهما.

وقد استقبل رئيسَ الوزراء في هذا المكان حتى يستقرا على التغيير الوزاري الشامل بعد أن امتلأت البلد بشائعات حول قرب حلوله ودنو حدوثه.

وضع رئيس الوزراء الورق وقال للرئيس وهو يرتعش من الوجل والفرحة:

ـ تحب سيادتك نبدأ بمن؟

رد الرئيس في صحة وعافية لا تشي أبدًا بسن الثمانين الذي تجاوزه:

ـ بالزراعة.

قال رئيس الوزراء:

ـ سيادتك أنا رشحت أربعة لتولي هذا المنصب الوزاري المهم.

عقَّب الرئيس:

ـ مهم ليه؟

ارتج رئيس الوزراء:

ـ نعم!

ـ بأقولك مهم ليه؟

حاول أن يجد أي حروف تشكل أي كلمات ترضى أن تجيبه بسرعة:

ـ إنتاجنا الزراعي انخفض في السنوات الأخيرة.

في حسم:

ـ وإنت كنت فين؟

ضعف وتحلل رئيس الوزراء تمامًا:

ـ سعادتك الأرقام بدأت في الانخفاض قبل أن تشرفني بتكليفي تولي رئاسة الوزارة.

في براءة قال الرئيس:

ـ ومتى توليت أنت رئاسة الوزارة؟

ـ من ثلاث سنوات.. آه..

ثم صمت الرئيس قليلًا وقال:

ـ يعني إنت عاوز تغير وزير الزراعة؟

أحس أنه طفل أسنانه مسوسة أمام مدرسة الحضانة، فقال بتهتهة:

ـ يا أفندم أنا مش عايز أغير حد خالص.. سيادتك الذي أمرت بتغيير وزاري.

ـ فيه وزير الزراعة؟

ـ سعادتك قلت شامل.

ـ وشامل يعني فيه وزير الزراعة؟

في أسى واستئناس قال رئيس الوزراء:

ـ ليس شرطًا يا سيادة الرئيس، ممكن يبقى شامل ولا يشمل وزير الزراعة.

في سرعة سأله:

ـ ويبقي ساعتها شامل إزاي؟!

ـ يعني فيه استثناءات بالتأكيد.

أطرق برأسه ثم عاجله بحكمة سريعة:

ـ لأ.. إحنا قلنا شامل يبقى شامل، صحيح محدش حيحاسبنا، لكن إحنا قلنا شامل، خلاص يبقى شامل.. قولي: «إنت رشحت مين؟».

استعاد رئيس الوزراء ريقه الغائب:

ـ رقم واحد أستاذ بكلية الزراعة اسمه..

حدق فيه الرئيس مستفهمًا وناقمًا:

- اشمعنى كلية الزراعة؟

ارتبك رئيس الوزراء:

- يا أفندم دا عشان وزارة الزراعة.

علا صوت الرئيس ولقنه درسًا:

- وهوه يعني وزير الزراعة لازم يبقى أستاذ في كلية الزراعة؟

تراجع رئيس الوزراء فورًا:

- لأ.. مش لازم.

فتراجع الرئيس غاضبًا:

- مش لازم إزاي.. يعني أجيب أستاذ في كلية الآداب أجعله وزيرًا للزراعة؟

لم يعرف ماذا يقول رئيس الوزراء فانكتم، فصاح فيه الرئيس:

- انكتمت ليه.. ما تقول رأيك؟

في استكانة:

- الرأي رأيك يا أفندم!

لف الرئيس برأسه ونظر للسقف وأخذ يشرح لثلث ساعة تفاصيل ازدحام الناس على أرصفة القطارات لرؤيته ورئيس الوزراء يؤمن على كلامه، حامدًا الله أن موضوع وزير الزراعة لم يفجر غضب الرئيس.

سكت الرئيس فجأة وقال:

- طيب ح أقولك حاجة.. إحنا نأجل تحديد اسم وزير الزراعة لغاية ما نستقر.. هو لازم يبقى أستاذ زراعة ولا لأ.

- أوامرك يا سيادة الرئيس.

- طيب نتوكل على الله كده ونختار وزير إيه؟

- اللي تشوفه سيادتك.

شاخطًا فيه:

- إنت شايف إيه؟.. إنت رئيس الوزراء.

بسرعة:

- نتكلم عن وزير الداخلية.

بحسم:

- خلاص نتكلم عن وزير الثقافة!

استسلم رئيس الوزراء كمصارع سقط تحت جسد خصمه:

- بالنسبة لوزير الثقافة أنا رشحت ثلاثة أسماء.

في لهجة الناصح قال الرئيس هامسًا في رقة أبوية:

- اسمع كلامي.. العالم المثقفة دي محتاجة وزير حاسم حازم.. محتاجين راجل بجد.

أمَّن رئيس الوزراء على كلامه؛ فلم يُعِرِ الرئيس اهتمامًا لموافقته وأضاف:

ـ آه زي الوزير اللي موجود دلوقت؛ هوه صحيح خـ.. لكن بستين راجل.

ـ أنا مرشح لسيادتك اسمًا هنا لمثقف كبير.

ـ خول برضه؟

بتردد وفقدان بوصلة التكهن:

ـ هو سيادتك تؤمر بإيه؟

ـ في إيه؟

ـ في وزير الثقافة.

ـ مش فاهم.

ـ يعني عايز سيادتك خول ولا مش خول؟

ـ وهي تفرق؟

ـ الحقيقة...

ثم سكت كمن حط عليه الخرس، توقف الكلام في حلقه، لا راضي يطلع ولا راضي ينزل.. حل الرئيس الموقف بتدخله في الصمت:

ـ طيب أنا ح أقولك حاجة، إحنا نأجل الكلام في وزير الثقافة لحد ما نعرف إحنا عايزينه خـ.. ولا مش خـ..

أخذ رئيس الوزراء نفسه بالعافية أخيرًا وبلع ريقه وانسحب ضيقه وعاد الرئيس ليتكلم:

ـ مَن الوزير التالي؟

ـ كيف ترى سعادتك؟

في صخب وغضب وحماس قال الرئيس منفعلًا:

ـ نتكلم عن وزير الصحة؟

في أدب جم وهمس نَم عن ارتجاج الأمر عليه سأل رئيس الوزراء:

ـ سيادتك عايزه إيه؟

ـ هوه مين؟

ـ وزير الصحة.

ـ يعني ح أعوزه إيه؟!

ـ سيادتك يعني عايزه دكتور ولا مش دكتور؟

شخط فيه الرئيس ونطر:

ـ إنت بتستهبل.. وزير الصحة عايزه دكتور ولا مش دكتور.. طبعًا دكتور.

خلاص داخ رئيس الوزراء تمامًا وتمتم:

ـ طبعًا طبعًا.

لكن الرئيس عاد بظهره للوراء واضطجع:

ـ لكن والله فكرة وجيهة.. ليه ضروري وزير الصحة يبقى دكتور.. هوه يعني ح يكشف على الشعب في مكتبه بالوزارة ولَّا ح يضرب حقن لوكلاء الوزراء والموظفين..

ثم انتفض الرئيس قبل أن يعطي لرئيس الوزراء فرصة في موافقته:

ـ لكن شوف أنا كل يوم قاعد أقرأ في الجرايد عن الإهمال في المستشفيات والناس اللي بتموت فيها.. اسمع هيه الناس فاكره إيه.. قال يعني عشان دخل مستشفى مايمتش، ليه يعني هوه شعب بيستهبل وعينه فارغة أنا عارف، فاكر إن ما دام عندنا مستشفيات ماحدش يموت، ليه يعني ناس ماعندهاش ريحة العقل ولا الدم.. عشان كده أنا عايز وزير الصحة اللي جاي حتى لو كان كمساري يكتب على مدخل كل مستشفى الآية الكريمة: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾، أما نشوف بأه مين ح يعترض على إرادة ربنا.

أخذ رئيس الوزراء يكتب هذه الملاحظات كأنه يدون الوحي، ولما صمت الرئيس استسمحه رئيس الوزراء سائلًا:

ـ قلت إيه سيادتك في وزير الصحة؟

ـ فيه إيه؟

ـ عايزه سيادتك إيه؟

ـ خـ.. ولا مش خـ..؟

ـ لا يا أفندم، دكتور ولا مش دكتور.

صمت الرئيس كثيرًا وطويلًا، تنهد ووضع كفًّا على فخذه ثم ضرب بالأخرى على المكتب، ثم عاد بظهره للوراء، ثم حدق في السقف، ثم صرخ في وجهه:

ـ إنت لم تشرب أي حاجة!

ضرب الجرس فأسرع السكرتير بالدخول، شتمه الرئيس:

ـ جاي تجري زي دكر البط ولم ترسل السفرجي بأي حاجة يشربها السيد رئيس الحكومة.

تراجع جسده، وكلامه، وقال السكرتير:

ـ سيادتك كنت أمرت ماحدش يدخل عليكم الاجتماع ويقاطع سيادتك.

شاعرًا بالمفاجأة:

ـ أنا قلت هذا الكلام؟

ـ نعم سيادة الريس.

سيادة الرئيس لم يعجبه الكلام، فسأله:

ـ ليه يعني ماحدش يدخل؟

ـ يمكن عشان أسرار التغيير الوزاري؟

قام الرئيس منتفضًا في ثورة بلا ذرة مقدمات:

ـ أهوه يا سيدي، لا رئيس الحكومة طفح حاجة ولا إحنا عملنا التغيير الوزاري، فين السفرجي بقى؟

٦

الغريب أنه تلقى الاستدعاء على هاتف المكالمات العادية وليس على الهاتف الخاص، كما أن المتحدث لم يكن الرئيس بنفسه وشخصه كما تعود معه كمدير جهاز الأمن الوطني، حيث قرر منذ فترة ألا يتعامل مدير الجهاز مع أي مسؤول غيره ولا حتى بوسيط بينهما. كان إحساس الشك فيمن حوله يطفو فجأة على شعوره الساكن الآن بأنه نجح في إخلاء البلد ـ نفيًا أو قتلًا أو قهرًا ـ من الذي يمكن أن يرفع رأسه أمامه. كان من المستحيل أن ينظر مسؤول لعين الرئيس مباشرة، دائمًا نظره فوق أو تحت، مرمي عند نقطة بعيدة طرف جاكت الرئيس، على كتفه، على رابطة العنق، لأنه لم يعد أحد يجرؤ على وضع عينه في عين الرئيس، وقد ارتاح منذ زمن من التفكير في منافسين أو طامحين في عرشه أو حالمين برحيله، بل صار الكل حوله يخشى رحيله أو موته بعد اثنين وثلاثين عامًا في الحكم. صار الناس يصدقون أن الدنيا تقف على قرني ثور، وأن الوطن يستند على كتف الزعيم، إذا ما مات أو استغنى، أو ضجر، ضاع البلد.. سقط وانهار.. فهو الوحيد الذي عرفوه رئيسًا وزعيمًا، ولا يتصورون أن البلد يمكن أن تستمر من دونه. يستيقظون

في الصباح، فإذا بهم لا يجدونه على شاشة التلفزيون أو في صدر الصفحات الأولى، أو تماثيله على الطرق الرئيسية، وصوره الزيتية الملونة على الطرق الفرعية، وخطبه في الإذاعة، والدعاء له في صلاة الجمعة، والاحتفال بعيد ميلاده، وعيد توليه عرش الرئاسة. لهذا كانت مهمة مدير جهاز الأمن الوطني أصعب من أن يتخيل أحد، فليس سهلًا أن تشعر بالتوجس بينما كل من حولك خاضع خانع، وليس سهلًا أن تستشعر الخطر وكل من حولك أرانب.

ومع ذلك نجح الرئيس في تشكيل عقلية وروح مدير الجهاز الوطني، درَّبه على الإحساس الدائم بالخطر، على القفز من السرير لو زقزقت عصفورة على شجرة في الجنينة، على تحسس مسدسه لو أخرجت طفلته لعبة المسدس الرشاش من الدرج كي تلهو به أمامه، على التجسس على مكالمات طفله الصغير مع زملائه في فصل أولى ابتدائي أول.

استغرق منه الأمر كثيرًا.

فالرئيس حين ينام هادئًا يصحو وقد شك في الجميع واستجوب الكلَّ وطلبه على الهاتف ليحضر فورًا، ليفتحا الملفات. وبعد تشغيل الكمبيوتر السري للرئيس الذي يحتوي على كل منمنمات الوزراء والمسؤولين الشخصية، وشرائط الفيديو التي تُلتقط للرئيس في أثناء حضور المؤتمرات أو افتتاح المعارض والمصانع، يدققان النظر فيمن يسيرون حوله، من يمد الخطوة أكثر:

ـ ماله «ص» بيمشي ورايا بيجري كأنه عايز يحصلني.. أنا ملاحظ إن كلامه كتر فعلًا.

من يمشي بجواره دونما أن يتراجع خطوة ليقف وراءه كما يقف المصلون وراء الإمام:

ـ ألست معي أن «ك» عنده طموحات أكثر من اللازم وحاطط كتفه من كتفي كأنه الرجل الثاني ولّا ولي العهد؟!

ويسهران الليل بطوله في تتبع نظرات المسؤولين في موكب الرئيس، هل ينظر الوزير إلى أعلى حيث السماء والسقف؟ أم يمعن نظره في الأرض حيث السجاجيد ونقوش البلاط؟! هل يقف أمام عدسة التلفزيون سعيدًا بكثافة الأضواء عليه وتثبيت الصورة فوق وجهه؟ أم يفر بنظراته عازفًا عن أنوار الأضواء.. يتفحصان أصابع المتحدثين أمام الرئيس من الوزراء أو المسؤولين يشرحون له رسومًا توضيحية أو خرائط جغرافية أو تشكيلات هندسية، هل ترتعش أصابعهم وترتجف أكفهم أم إنهم ثابتو الكف، مستقرو الأصابع؟ هل يشوِّحون كثيرًا أم إن حركتهم طبيعية مستكينة؟!

كان الرئيس أحيانًا يشعر بنعاس فيأخذ مدير الجهاز الوطني إلى غرفة نومه الرئيسية حيث يستلقي على ظهره نائمًا فوق السرير، بينما مدير الجهاز جالس على مقعد خشبي كبير يدون الملاحظات والدلالات التي يحللها الرئيس بين غفوة وغفلة، ومدير الجهاز يسرع بدق سن القلم على الورقة المسنودة على لوح خشبي فوق فخذيه، ينظر إلى الحائط حيث ذلك الخنجر اليمني في جرابه الفضي المزدان بالنقوش ودرر المجوهرات ومقبض الخنجر بخشبة الأبنوس وانحناءاته الذهبية اللامعة.

حين كلفه الرئيس بهذا المنصب قال له بوضوح وحزم:

ـ إن كل من يعارضني شخص غير وطني، خائن، وعميل. كل من

يحاول اغتيالي أو المشاركة في قتلي ليس من أبناء الوطن حتى لو كان جدوده يعيشون هنا لسابع جد.. هات أوراقًا رسمية، أختامًا من عشرات السنين، جوازات سفر قديمة، هويّات مزورة، شهادات جنسية أجنبية. اقتل ناسًا حتى يكذب ناس آخرون، عذِّب، شوِّه، المهم أن تخرج للناس جميعًا تؤكد لهم بالصوت والصورة والورقة والمستند واعترافات المتهمين وشهادات الشهود أن من فكَّر لحظة في التخلص مني شخص ليس من هذا البلد، أجنبي عميل، حتى لو كان ابن رئيس مصلحة الجوازات والجنسية، تعرف ليه؟ لأنني أريد أن أعلِّم هذا الشعب، أن أغرس فيه طاعتي والولاء لي، حتى يصبح كأنه مولود به، ليس فقط أن يستغرب ويندهش من الذي يعارضني، بل يشك في أنه مواطن مثله، من هذا البلد، من هذا الوطن، من أبوين طبيعيين.

كانت الكلمات تخرج من فمه بحمى غضب، ورذاذ أعصاب هائجة، كان ذلك بعد يوم واحد فقط من محاولة اغتياله التي رجته أيامها بعنف وحاولوا التكتم عليها وعلى تسربها، حيث كانت فضيحة يصعب التخلص منها ببساطة، وواقع الأمر ـ يقول مدير الجهاز ـ إننا نجحنا أن نقلل من خطورتها للرأي العام العالمي، لكننا لم نستطع أن نخفف من مأساتها.

كان يومها مناسبة الاحتفال بمرور مائتي عام على إنشاء حديقة الحيوان الوطنية، وكان الرئيس يريد لهذا الاحتفال أن يكون عالميًّا مذهلًا في محاولة لإثبات اهتمام سيادته بالبيئة والطبيعة، حيث صار الاهتمام بها موضة سياسية في تلك الفترة، لذلك تم تشكيل لجنة دولية للإشراف على الاحتفال، ورصدت عشرات الملايين من أجل استيراد حيوانات جديدة ومنقرضة للحديقة، وإعادة بناء وتشكيل الأقفاص وبيوت الحيوانات،

وإعادة حفر البحيرات الداخلية، وتجديد المياه في الجنينة كلها، وشراء ملابس جديدة لعمال وحراس الجنينة، والاستعانة بشركة أمن خاصة تشرف على التعديلات والتنقلات، مع اهتمام خاص بجبلاية القرود واستقدام عشرات القرود من إفريقيا لهذه المناسبة خصيصًا. الحادثة التي عكرت هذا الاحتفال قبل أن يبدأ وتمكنًا من إخفائها هي ما حدث حين سفَّرت البلد مجموعة من حراس ومدربي الحيوانات إلى ألمانيا للتدرب على حراسة خاصة للأسود والأفيال.. وبعد تمام بعثتهم وقرار عودتهم إلى البلاد وقبل أسبوعين من الافتتاح الجديد، سقطت الطائرة التي كانت تقلُّهم وماتوا جميعًا، الأمر الذي جعلنا نستعين بحراس ومدربين من السيرك الوطني، وخاصة لقفص الأسود الذي تم تصنيعه خصيصًا وفق رسم هندسي لأحد فناني العمارة والديكور الكبار في إيطاليا. وقد دعا الرئيس شخصيات عالمية ودولية معروفة باهتمامها بالحيوانات، وقرر أن يصطحب معه في هذا الافتتاح والاحتفال كل وزراء البلد تأكيدًا على العلاقة الطيبة التي تجمع رئيس وزراء الوطن بالحيوانات.

وكانت الأجواء الكرنفالية تعم حديقة الحيوانات التي امتلأت بالورود والزينات الورقية وشرائط الألوان الطائرة، وعزفت فرق الموسيقى الموزعة في جميع أرجاء الجنينة الألحان الراقصة والاحتفالية، وأقامت ثلاث فنانات استعراضات حية بالصوت والصورة مع عشرات الأطفال من تلاميذ وتلميذات معاهد الباليه.. وجَّهوا تحية مفعمة بالحفاوة للنجمة الأمريكية السينمائية التي وهبت نفسها للحفاظ على فرو وجلود الحيوانات في أركان العالم.. اشتعلت الفرحة في قلب الرئيس، خاصة أن رؤية قفص الأسود قد ملأته غبطة وسعادة، ربما وصلت حد النشوة، حين شاهد سبعة من الأسود ضخام الجثة غزيري الشعر، أنيابهم صلبة

ومخالبهم بارزة وشواربهم أسطورية، وانحناءات أبدانهم كأنها مغزولة بإزميل مثَّال، أُعجبت عشرات الشخصيات من وزراء البلد وضيوفه الدوليين بهذا المشهد الرهيب المهيب، وخاصة حين بدأت الأسود تزأر في صيحات الملوك الذين ملكوا غابات العالم كله. كان حرس ومدربو الأسود ثلاثة من الشباب في أواخر العشرينيات، رياضيي الأجسام ومفتولي العضلات وأنيقي الملابس، يقفون أمام الأسود ويتحركون حولهم في القفص الواسع الذي يضم في واجهته بابين صغيرين (أو كأنهم صغيران) أقفالهما من الداخل، ثم مَمر متر من العشب الأخضر الجلي الرطب، ثم وقفة الرئيس وضيوفه ووزرائه. كان وزير الزراعة يشرح شيئًا للرئيس، وضيف دولي يحكي عن أصل ونوع وسلالة هذه الأسود وموطنها، حين بهت الجميع، وشُلت أفكارهم، وتصلبت أجسادهم، وتوقفوا عن التنفس، وخُرسوا وصُموا في وهلة، حين انفتحت أبواب القفص.. كأنها تُدار بالريموت كنترول عن بُعد، وقفز أسَدان في لحظة منضبطة وبتنسيق خرافي كأنهما يتدربان عليه منذ آلاف السنين، قفزا وعبَرا بجسديهما المتر الفاصل بين القفص والرئيس، ونشبت مخالب قدم أحد الأسدين وهو يقفز بكتف الرئيس الذي سقط في نفس الثانية التي قفز فوق جسده أسد ثالث نط من القفص. ترنح الوزراء واحدًا تلو الآخر، سقطوا في فوضى زلزال نشب، سقط بعضهم فوق بعض، وداس آخرون يجرُون على أجساد آخرين مرميين على الأرض، بج الدم من أجساد كثير من الضيوف الدوليين، ذعر أصحاب النجمة الأمريكية التي كرست حياتها للرفق بالحيوانات، أُغشِي عليها وقد سقطت في حضن رجل واقف، فسقطا معًا متكورين في مئات البالونات الموضوعة على جانب القفص، غطسا ولم يتابعهما أحد بعدها. عض

أسد رقبة شخص، ثم التفت فضرب بمخلبه شخصًا آخر، أسد ثانٍ وقف فقط يزأر ويرفع ساقيه الأماميتين، والناس تعدو أمامه وتتأرجح وتترنح، وتتمرجح وتهوي وتقوم وتجري بظهرها مثبِّتة عيونها عليه. كان ضابط مرور من تشريفة الاحتفالية وحده الذي تذكر أن الرئيس على الأرض أمام الأسود، فجرى بخوذته المعدنية وعصاه الحمراء حتى وصل إليه مبهوتًا مبهور الأنفاس، والعجيب أنه قد وجده حيًّا يقظًا تمامًا، فقط مزقٌ خفيف عند كتف البذلة. جرَّ الضابط الرئيس وهو نائم على ظهره مترين بعيدًا وهو يزحف على الأرض، تنبهت الأسود لفرار الرئيس فبدأ ثلاثة منهم يولون اهتمامهم بالضابط الذي يجر الرئيس زاحفًا بظهره على الأرض مجرورًا مع الرمل والخضرة والتراب وبذلته الممزقة. بدأ الأسود يتحركون نحوهما حين وقفت ذراع الضابط ممسِكة بذراع الرئيس، ومذهولًا من تنبُّه الأسود وتعمدها المشي خلفهما كأنها تقصده، مرتبكًا وموتورًا مذعورًا، خاطب الرئيس النائم على الأرض:

ـ قم اجر يا سيادة الرئيس.

سمع الرئيس ذلك، هبَّ شبابه من تحت الثمانين عامًا، نهض بسرعة الرغبة في إنقاذ الروح ووقف على حيله ونظر إلى الأسود وهو يتمتم متهتهًا ومذهولًا:

ـ مش معقول.. مش معقول.

ثم أخذ يجري رافعًا ساقيه بأقصى ما يستطيع، رامحًا بأقوى ما لديه، يسابق ريح الموت ومخالب القتل. وجد الوزراء الرئيس يجري فكأنهم أفاقوا على أهمية الجري، أخذ العشرات بالبذل الرسمية والقمصان البيضاء والأحذية اللامعة وعمليات القلب المفتوح وتصلب الشرايين

وسن السبعين يجرُون بعزم ما فيهم، والأسود وراءهم تمشي وتجري وتقف وتزأر كأنها واثقة من إتمام مهمتها.

في اللحظة التي رأى فيها الرئيس جبلاية القرود أحس أن الله يريده أن يبقى لشعبه.. فقفز وقفز خلفه عشرات الوزراء والضيوف والصحفيين ومصوري التلفزيون، كأن مخططًا كان معمولًا به لمواجهة الأسود بالقرود.

وصل الأسود وقد بلغ عددها الآن سبعة بتمامهم حتى سور الجبلاية، صعدت بمخالبها وأقدامها إلى سطح السور وبدأت تسير عليه ممعنة النظر في مشهد تكدس الرئيس ورفاقه وسط كومات من الصخور وكذا قرد يلاعب رأس الرئيس وآخر يشد الجاكت وثالث جالس على فخذيه والرئيس آمن معها، رعشته تحيط أجسادها بتدليل مداعب ويربت على شعورها وظهورها. لم تر الأسود سوى حَمار مؤخرات القرود في المواجهة حيث غطت القرود على رؤوس وأجساد البشر.

وقفت الأسود رافعة سيقانها لأعلى كلٌّ على حدة، كلٌّ بعد الآخر، وتسلَّم كل أسد من زميله شعلة الزئير المدوي الغاضب الصاخب.

حتى ظهر الحراس الثلاثة الآن قادمين وقد أعياهم الأسى وخيبت الأسود آمالهم، وقفوا فوق السور ناظرين إلى الجبلاية العميقة التي اشتبكت فيها أذرع حكام البلد بسيقان القرود، ووجوههم البضة بمؤخرات القرود، دماؤهم وكسور ضلوعهم بقفز وتنطيط القرود، الجبلاية معقدة الصخور، متشابكة المنحنيات والتضاريس، والرئيس يتخفى خلف قرود تتعافى عليه.

في تلك اللحظة صرخ الحراس الثلاثة:

ـ حسبي الله ونعم الوكيل.

أخرَجوا مسدسات مفككة من تحت طيات ملابسهم، ركَّبوا أجزاءها وأحكموا تثبيتها، ثم استداروا للأسود التي هبطت من فوق السور بمجرد رؤية مدربيهم قادمين نحوهم، رفعوا المسدسات في الهواء وأطلقوا الرصاص تباعًا بحسرة وألم وخيبة أمل وضيعة على أجساد الأسود، فخرجوا بين ميت وجريح جرح الموت، وتحول زئيرهم إلى طنٍّ وأنٍّ وزنٍّ.

ثم تبادل الحراس الثلاثة النظرات طويلًا وعميقًا، على الرغم من خطف اللحظة وارتباك الفوضى وقشعريرة الرصاص ورعشة الموت وانفجار الرعب.

أطلقوا الرصاص كلٌّ على الآخر ليتتحروا موتى بأسرارهم.

٧

ليلتها كان حاضرًا في صالون الجناح الرئيسي في القصر الجديد الذي كان مزدحمًا إلى حد الفوضى، صخب وضجة وتوتر ورهبة وخوف وارتباك، كل هذا مبثوث في فضاء المكان، تلمحه العين الخبيرة بالأسرار الخبيئة في العيون وحركات الأجساد وتقديم التحيات والكلمات المقتضبة والحروف المدموغة والأنفاس المضغوطة والسكون المرتعد والإحساس بأن نبضات البدن رعد مُدَوٌّ في عروق مخنوقة. كان ولا شك يحس أن شيئًا ثقيلًا ومريعًا قد جرى، إلا أنه لم يبذل جهدًا ضائعًا في فض كمون الغموض لأن استدعاءه ولا شك كان بسبب هذا الجلل الذي لم يفصح عن سبب كونه ولا حضور كنهه حتى الآن.

كان قد شاهد جزءًا من بدايات الاحتفال بمرور مائتي عام على إنشاء حديقة الحيوان الذي افتتحه الرئيس هذا الصباح، لكن الإرسال التلفزيوني انقطع وعاد بعدها بفترة. أكدوا نهاية الاحتفال وعودة الرئيس إلى منزله دونما تفسير للانقطاع سوى الأعطال الفنية، حاول أن يعرف ماذا حدث بحسه الأمني المدرب، لف المحطات الفضائية عبر الطبق الهوائي، لكن

لا حس ولا خبر، كان يعرف أن الرئيس قد أصدر قرارًا بألا يصور الأحداث والمناسبات التي يحضرها سوى التلفزيون الوطني، ومهما كانت عالمية الحدث الذي يجري في عاصمة بلاده، فلا يمكن لأي كاميرا غير وطنية أن تصور شيئًا، وكان يعيد بنفسه توليف المشاهَد المصورة ثم يعاد بثها، وفي حوادث غير اعتيادية وأمور استثنائية ـ غالبيتها فرح ـ كان يسمح بالبث المباشر، من هنا أدرك أن الأمور سوف تدخل خانة التوقعات والاستنتاجات حتى يصدر بيان رسمي يوضح ما غمض. في الطريق بعد تلقيه الاستدعاء الرئاسي عرف من سائقه الخاص أن كلامًا يدور وشائعات يتسمعها الناس حول تعرض الرئيس لمحاولة اغتيال في أثناء إعادة افتتاح الحديقة، لكن الإذاعات الأجنبية التي أدار لها الراديو خصيصًا في السيارة لم تقل شيئًا.

في نفس اللحظة التي انتهى فيها من رشف فنجان القهوة، طلب منه أحد سكرتارية الرئيس الحضور إلى قاعة الاجتماعات، عندما انفتح الباب فوجئ بعشرات الكاميرات ومصابيح الإضاءة وازدحام صحفيين، طلب منه السكرتير أن يبقى لحظة، توقف عند ركن القاعة القصي عندما دخل الرئيس ومعه نجمة السينما الأمريكية، كانت في ثوب أبيض نصف عار وزهو العجائز الفاضح، ابتسم كلاهما للأضواء والكاميرات، وبدأت وقائع مؤتمر صحفي لم يستمر سوى ثلثي ساعة. سأل من سأل واستفسر من استفسر، صحفي واحد فقط نسأل عن الاضطرابات التي سمعوا عنها في أثناء احتفال حديقة الحيوان، نفى الرئيس باسمًا أي اضطرابات، وأضاف بسرعة: لعلك تقصد ثورة بعض حيوانات الحديقة أمام الأضواء والكشافات الخاصة بالتصوير، لقد كان أمرًا عاديًّا لا يشكل أي تعكير لصفو الاحتفال. ثم تدخلت

النجمة فشرحت كم كان الاحتفال رائعًا وشكرت الرئيس على اهتمامه بالحيوانات، وحرص سيادته بنفسه على حضور هذا اليوم الذي صار رائعًا بمشاركته، ووعدت أنها سوف تحضر مرة أخرى للبلاد كي تتمتع بجمال شتائها كما هو مشهور عنها.

انفض المؤتمر ورأى الرئيس يلوح له أن يأتي، مشى خلفه حين انصرفت النجمة بعد مصافحة الرئيس بحرارة وطبعت على خده قبلة، ثم أخذه من يده ودخلا قاعة جانبية، جلس عندما أمره الرئيس بذلك ثم فوجئ بالرئيس يطلق شخرة من أعماقه، وبدأ حديثًا عاصفًا يتهم فيه كل من حوله بالجبن والتفاهة، ثم توجه بالكلام إلى وجهه تمامًا:

ـ طبعًا عرفت ماذا حدث النهارده؟

قال:

ـ لا في الحقيقة.

صرخ:

ـ واضح أنك حمار مثلهم.

ثم أضاف بعصبية:

ـ اليوم يا أستاذ تعرضت لمحاولة اغتيال، ولولا أنه ليس هناك تلفزيون أجنبي بيصور كانت بقت فضيحة بجلاجل، تعرف كم كلفتني تغطية هذا الحادث حتى الآن؟ أكثر من عشرة ملايين دولار.. رشونا كل من كان موجودًا حتى لا يذيع سر ما حدث، هددنا وسجنا العشرات في أقل من ساعة، تعرف الممثلة القحبة اشتركت في هذا المؤتمر

بكم؟ بثلاثة ملايين دولار.. وطبعًا ح تطلع إشاعات من هنا للصبح.. كل هذا ليه، لأن رجالتي حمير.. هل أنت حمار مثلهم.. قل لي من الأول عشان أكون على نور؟

سكت الرجل حتى تكلم الرئيس:

- أنا قررت النهارده أعينك مديرًا لجهاز الأمن الوطني، ومن بكره الصبح عايز تقرير كامل عن العيال اللي حاولوا اغتيالي في الجنينة.. جثثهم في الداخلية وقد أبلغت الجميع بالقرار.

أخيرًا فهم.. وبعدها نطق:

- لكن سيادتك أنا تركت الخدمة في الجهاز منذ عامين وكنت في البلد إجازة من إجازاتي سفيرًا للبلاد في أوروبا.

قال الرئيس وهو يخرج من القاعة وبمنتهى الانزعاج والقرف:

- كل ده خلص واتغير.. اتفضل روح شوف شغلك.

وراح مدير الجهاز يرى شغله، وبعد معاناة أيام طويلة قدم للرئيس تقريره: مروضو الأسود لا يوجد أي أرشيف لهم في أيٍّ من الجهاز المدني، ولا أي جهاز أمني.. لا بطاقات شخصية ولا جوازات سفر ولا صور، لا علاقة لهم بالسيرك، إدارة الجنينة اتفقت مع ثلاثة مروضين آخرين بعد حادث وفاة مروضي الأسود في ألمانيا، يوم الاحتفال حضر الثلاثة الجدد ولم يهتم أحد بمعرفة هوياتهم أو التأكد من شخصياتهم.. وجدنا الثلاثة الأصليين مخدرين وفي غيبوبة في مستشفى العاصمة نتيجة حادث تصادم وقع لهم في أحد الشوارع المطلة على النهر.

لم يكن العالم مهتمًّا كثيرًا بما يجري في البلاد، حيث لم يكن الرئيس يؤرق أحدًا خارج حدود وطنه، وكان هناك غزو أمريكي لعاصمة إحدى دول أمريكا اللاتينية طغى على الأحداث، كما أن الرشاوى والتهديدات أدت إلى نتيجة مبهرة في إخفاء حادث ومحاولة الاغتيال.

لكن بعد شهر من تسلمه مسؤولية الجهاز الوطني حدث ما هو أسوأ من جنينة الحيوانات، حيث كان الرئيس في زيارة لإحدى المناطق السياحية في شمال البلاد حين دار حوار بينه وبين وزير السياحة في حضور عدد من الوزراء والصحفيين الذين يتابعون الحدث، ولا أحد يعرف حتى الآن ماذا قال وزير السياحة إلى الدرجة التي أغضبت الرئيس للغاية، إلى حد أنه نسي نفسه واندفع ناحية وزير السياحة الذي خاف وبهت من اندفاع الرئيس فتأخر قليلًا من هول الدهشة والتفت كمن يبحث عن أحد يحميه وهو يلهث، فإذا بالرئيس يمد قدمه ويضربه حتة دين شلوت في مؤخرته وهو يصرخ:

ـ إنت بترد عليَّ كمان!

ارتفعت أمواج الفوضى وتلاحمت مشاعر الذهول بين الحاضرين، وأسرع البعض يحاول تهدئة الرئيس فأمسك بذراعيه، وكان الرئيس يفلت منهم مُقرِّرًا ـ وهو يلعنهم ـ أن يضربهم بالشلوت هم أيضًا، بينما أمسك الحرس الرئاسي بوزير السياحة حتى لا يفر من أمام الرئيس فتبقى واقعتهم سودا، ربما أراد أن يضربه مرة أخرى.

في وسط هذا اللهاث والارتباك، استطاع مصور يعمل لإحدى وكالات الأنباء أن يمر بكاميرته قبل أن ينتزع الحرس كل أفلام الكاميرات الأخرى، ومضى يومان من دون أن ينزعج أحد حتى فوجئ مدير جهاز

الأمن الوطني بالصحف الأجنبية تُصدر صباح أحد الأيام صورة الرئيس يضرب وزير السياحة بالشلوت في صدر صفحاتها الأولى، والغريب أن الغزو الأمريكي لعاصمة في أمريكا اللاتينية كان لا يزال مستمرًّا، إلا أن هذه الصورة طغت على كل اهتمامات الصحف وقنوات التلفزيون في العالم كله.

كان الرئيس قد أمر وزير السياحة بنسيان الموضوع، وقال بعزم ما فيه في مجلس وزراء عُقد خصيصًا لهذه القضية:

- إن أي وزير يعاير زميله وزير السياحة بضربه بالشلوت فلن يتورع الرئيس أن يضرب هذا الوزير الآخر بالشلوت وقصاد الكل!

وحينما أخبرت الرئيس بأن وزير السياحة يشيع أنه سوف يستقيل احتجاجًا على ذلك الشلوت، أمرني أن أقول له التالي:

١ - إذا استقلت فسوف نقدم مخالفات الوزارة إلى النيابة وسوف تسجن وأنت تعرف ماذا فعلت وماذا أخذت من ملايين.

٢ - لو استقلت فلن تضمن وظيفة في أي بنك أو شركة كعضو أو رئيس مجلس إدارة ولن تحصل سوى على معاشك من الوزارة.

٣ - لو كنت راجل استقيل.

لكن ظهور الصورة جعل الموضوع يكبر إلى حد حافة الخطورة على سمعة البلاد الدولية، فطلب الرئيس من مدير جهاز الأمن الوطني أن يتحرك بسرعة، وقد تحرك فعلًا؛ استأجر الجهاز شركة تقنيات الخدع السينمائية والجرافيك وهي الأشهر في الولايات المتحدة الأمريكية والعالم، ودفع خمسة ملايين دولار من أجل أن يظهر مهندسوها في برنامج دعائي مدفوع

الأجر يذاع على شتى شاشات العالم يؤكد أن الصورة مركبة وهي تحمل خدعة ولا شك.

وتولى الجهاز حملة لمؤسسة صحفية إنجليزية استأجرت عشرات الخبراء فيما يشبه المسابقة حول تأكيد أو نفي الصورة، واشتدت الخلافات بينهم مما أربك العالم المهتم تمامًا.

وظهر وزير السياحة ضاحكًا معلِّقًا على الصورة بأنها دعابة سخيفة.

ثم ركز الجهاز على مصور الوكالة الصحفية الذي التقط الصورة، فاعترف أنها صورة مزيفة، وحصل مقابل ذلك على مليون دولار، بينما اعتذرت الوكالة عن نشر الصورة في بث يومي لها لمدة أسبوع.

لكن المذهل أن تقارير الجهاز التي تم رفعها للسيد الرئيس عن الرأي العام المحلي تضمنت مفاجأة حقيقية، فقد استقبل الشعب هذا الشلوت بفرحة وتشفي وشماتة في الوزارة، وكان سائقو التاكسي الليليون يبثون تقاريرهم أن مستقلي التاكسيات كانوا يحبون الرئيس على هذه الفعلة، وأكدوا أن الوزارة كلها عايزة الضرب بالشلوت. أما المقاهي فبدأ زبائنها في اقتراحات محمومة حول من يستحق من الوزراء الآخرين الضرب بالشلوت كذلك.. وكشفت التقارير أن سكان جنوب البلاد قد تحمسوا لفكرة ضرب المسؤول بالشلوت، وأنهم أرسلوا برقيات مبايعة وتأييد للرئيس على خطوته الحكيمة بضرب الوزراء بالشلوت.

وقد ثبت أن أكثر من ستمائة موظف ومدير عام قد تقدموا بشكاوى في أقسام البوليس ضد رؤسائهم لأن الرؤساء احتدوا عليهم في العمل

وضربوهم بالشلوت أسوة بالسيد الرئيس، وانتشر في البلاد شعار مكتوب على كل جدران المصالح الحكومية بخط يكاد يكون واحد يقول:

ـ «أشتاتًا أشتاتًا أشتوت.. حكومة عايزة الضرب بالشلوت».

ولما بلغ هذا الرئيسَ كاد يتراجع عن نفي حقيقة الصورة، لكنه ضحك أسابيع متتالية على وفاء شعبه له ومبايعته لشلوته.

٨

جلسوا في الصالون..

فسيح ومريح، مقاعده مبطنة بوسائد من القطن ومغلفة بحرير منقوش بزهور صغيرة دقيقة بين الصفار والزرقة، كانت فناجين القهوة قد تبعثرت في أرجاء الصالون فارغة أو نصف فارغة، وخيوط البن السائل مرسومة إثر الشرب على ظهر الفناجين، وآثار السجائر ملقاة في كل زاوية؛ تحت الأحذية، في الطفايات، وعلى أطراف السجاجيد. عندما قام العمال بتنظيف الحجرة بعد فض اجتماعها، أحصَوْا أن حوالي سبعة من الأشخاص دخَّنوا ١٨ علبة سجائر (وصلت أن استَلَفوا علبة سجائر الحرس والعمال بأصنافها المحلية)، وشربوا ٤١ فنجان قهوة معظمها سادة، واستهلكوا ١١ زجاجة مياه معدنية.

وحين فتح العمال الباب كان الدخان خانقًا يملأ الصالون كأنه آثار حريق، والهواء المحبوس في الغرفة بات ملوثًا ومكتومًا، حتى إنه لا يوجد أحد دخل المكان ثلاث ليال تالية إلا وقد كحَّ أو تنحنح أو طرد بلغمًا أو قال يا ساتر.

رعشة الأيدي وهي ترشف فنجان القهوة، وهزة الأعصاب المتوترة المفضوحة في طحن السيجارة في الطفاية من دون أن يدخن نصفها، ورَفْع النظارات عن الأعين وتدليك الوجه بكل الكف، والوقوف والجلوس والمشي في الغرفة ثم التوقف فجأة، وتمدُّد أحدهم على ظهره فوق كنبة بعيدة وقد أرهقه الجلوس حتى أنَّت فقرات عموده. كانت شمسهم كأنها تغرب من تلك الغرفة، وكان كل منهم يحاول أن يتشبث بآخر أشعة منهوكة تداري ضعفها في لحظات الوداع فتسرع بالرحيل.. كانت زلزلة الأرض تحت مقاعدهم مؤكدة، وكان كل واحد منهم يحاول أن يجد عمودًا يرتكن عليه حتى يتفادى سقوط السقف أو انفجار الأرضية، لا شك أن كلًّا منهم كان يتمنى أن يغمض عينه ويفتحها فلا يجد ما وجده قد وُجد ولا ما سمعه قد جرى، أو على الأقل يغفو فيصحو فإذا بكل هذا حلم كابوسي عابر أو حادث كارثي وقد نجا منه.

وزير الإعلام عملها، غفا على الكنبة وهو يدرك أن النهاية حلت والأقدار طلت. لعله رأى فيما يرى النائم، أو فيما يستيقظ من ذكرى في نفس المستيقظ أنه واقف على حبل في السيرك محشو بالأضواء المبهرة والأنوار الكثيفة المتقاطعة على وجهه وجسده، وهو يسير على الحبل مرتديًا بنطلونًا مما يرتديه راقصو الباليه ولاعبو السيرك، عاري الصدر، يمشي على الحبل، ثم يقفز فوقه ضاربًا بكعبيه الحبل الممطوط الممدود فيطير في الهواء، يمد يديه ـ وسط تصفيق الجمهور ـ إلى اللوح الخشبي العريض المعلق بأحبال متينة في سماء السيرك، يلمسه، يمسكه، تشتد حرارة الجمهور في اندفاع حماسي، يهتفون باسمه، يستدير بذراعيه ثم بجسمه كله على الزانة الخشبية، ثم يطير في الهواء دورة ثم اثنتين ويفرد ساقيه وذراعيه ثم يثني ساقيه إلى صدره

ويضم ذراعيه إلى جنبه، وينظر للحبل صارمًا جادًّا، سوف يهبط فوقه الآن تمامًا ليقفز عليه قفزتين، ثم يثبت قدميه ويسير على الحبل بحرفنة يشتعل فيها إعجاب وحماس المتفرجين. التفت للجمهور فرأى الرئيس جالسًا مبتسمًا مستهزئًا ملوحًا بيده، أي مع السلامة. نظر الوزير تحته فاختفى الحبل وهو يطير في الهواء وحده يمعن في الأرض تحته حين اندفع جسده نحوها في آخر مراوغات لاعب السيرك حين يكتشف أن اللعب قد انتهى.

استيقظ من غفوته على صوت يشخط:

ـ دا مش اجتماع دا سيرك.

نظر فرأى مدير جهاز الأمن الوطني الوحيد الذي بدا أنه يحاول التماسك، هل لا يزال مغفلًا يعتقد أن دولته التي دالت بقتل الرئيس سوف تعود فاتحة ذراعيها له؟ هل يعرف من الذي غرس السكين في قلب الرئيس ليفرغ بالونة نظامهم وحياتهم من الهواء.. هواء المال والنفوذ والسلطة والسلطان؟

ـ لماذا تشعرون أنكم مُتُّم معه؟

سأل مدير جهاز الأمن الوطني، فرد عليه وزير الداخلية:

ـ المشكلة أنه لم يمت موتة ربنا.. لقد تم اغتياله في عقر داره في قلب بيته، هذا معناه أن هناك قوة لا نعرفها تمكنت منه، ومن المؤكد أن لديها خطة لما بعد التخلص منه. وبما أننا لا نعرف هذه الجهة فلا نعرف الرصاصة القادمة سوف تخرج من أي مسدس.

رد عليه مدير الجهاز كأنه يحدث نفسه:

ـ إذا كنا لا نعرف من أي مسدس سوف تخرج الرصاصة القادمة، فعلينا أن نعرف من أي مسدس يستحيل أن تخرج الرصاصة القادمة.

ـ تقصد نُؤمِّن ظهورنا؟

ثم عاد وكاد يصرخ أو كاد يبكي أو لعله صرخ، وبكى فعلًا:

ـ بس أنا أول واحد فيكم لازم أقدم استقالتي، لأن الرئيس القادم سوف...

ثم هبت ريح صمت!

ثم قال وزير الإعلام وهو يفك رابطة عنقه:

ـ الرئيس القادم؟...

تَدخَّل أمين الرئاسة:

ـ قبل أن نسأل عن الرئيس القادم يجب أن نعرف مصير الرئيس السابق.

قال مدير الجهاز:

ـ أشكر أمين الرئاسة لأنه ذكَّرنا أن هناك رئيسًا مقتولًا في الدور الثاني من هذا القصر.

تساءل وزير الإعلام وهو يدلق القهوة على الرغم منه من الفنجان على المائدة ويلحقها بمنديل ورقي ليجفف ما سال:

ـ هل سنعلن للعالم وفاة الرئيس؟

وزير الداخلية:

ـ ح نقول إيه للعالم، رئيسنا اتقتل في بيته وفي سريره؟

وهو يكرمش علبة السجائر ويبحث عن سيجارة أخرى وجدها في علبة بعيدة لا تخصه، سحبها وأشعلها وقال رئيس الوزراء:

ـ لو قلنا إنه مات فهذا أمر طبيعي، لقد وصل عمره إلى ٨٣ سنة، صحيح كانت صحته بُمب ولا شاب في الأربعين ولم يتعرض لأي مرض طيلة حياته، لكن دي أعمار ربنا، لا أحد سوف يشك فينا.

مدير جهاز الأمن الوطني أفزعته الجملة الأخيرة، هتف:

ـ يشك فينا.. وهل فعلنا شيئًا؟

قال وزير الإعلام:

ـ يقصد الدكتور إن أحدًا لن يشك في بياننا الرسمي أنه مات بالسكتة القلبية مثلًا.

وزير الداخلية تدخل:

ـ وهل معقول أن الخبر لن يتسرب؟ مستحيل! وساعتها نبقى كأننا عملين عملة ودارينا الموضوع حتى لا نتورط.

أمين الرئاسة وقد جلس في ركن تحت نافذة مغلقة وهو يشعل سيجارة من سيجارة:

ـ ألا تلاحظون أننا نسينا موضوعين؟

استفهم الجميع بعيونهم، فأكمل:

ـ كيف سنجد ابنه؟

رد رئيس الوزراء بسرعة ندمَ عليها:

ـ ابنه.. الله يلعنه ويلعن أبوه.

لم يكن لدى أي منهم لا الحيل ولا الهمة ولا الرغبة ولا النية في الدفاع عن الرئيس الميت وابنه أمام شتيمة رئيس الوزراء، بل فيما بعد قال وزير الإعلام إنه أحس أن الرئيس مات فعلًا حين تمكن رئيس الوزراء من سب سيرته.

قال مدير الجهاز:

ـ صحيح.. هذا موضوع يجب أن نأخذه في اعتبارنا.. وهل نبلغه في أمريكا حيث يعقد آخر صفقاته في أثناء حضور جمعية رجال الأعمال، أم نستدعيه ونقول له الموضوع هنا؟ وهل سنقول له مات أم قتل؟ وهل سيرى جثته أم لا؟

لم يجد أحد جوابًا جاهزًا لأي من هذه الأسئلة فصمتوا، ثم قال أمين الرئاسة:

ـ أما الموضوع الثاني فكيف سنبلغ الحكومة الأمريكية بالحدث؟ وهل يمكن أن نكذب عليها إذا كذبنا على الآخرين؟

قال رئيس الوزراء:

ـ أنا باقترح استدعاء السفير الأمريكي لهذا الاجتماع وإفهامه إنه اجتماع عاجل وخطير مع الرئيس!

رن جرس اللاسلكي الخاص بأمين الرئاسة الذي تحدث إلى شيء في كمه لعله الميكروفون، ثم انتفض قائمًا فانتبه الآخرون لحركته فسأله أحدهم:

ـ هل هناك جديد؟

بينما صرخ رئيس الوزراء:

ـ أحسن تكون دي لعبة والرئيس صحي.. أنا قلت فعلًا لا يمكن يموت.

تجاهلوا ملاحظة رئيس الوزراء وهمس أمين الرئاسة:

ـ وزير الحرب دخل القصر الآن وهو في الطريق إلينا.

حدق فيه رئيس جهاز الأمن الوطني:

ـ هل هذا انقلاب؟

ثم استدار رئيس الوزراء برأسه دورة كاملة كأن دوامة بحر تلفه:

ـ متى رجع وزير الحرب؟ ألم يكن في رحلة علاجية بلندن حيث تم تغيير أربعة شرايين في قلبه؟

أجاب وزير الإعلام:

ـ حقًّا..

قال وزير الداخلية:

ـ لقد اتصل بي أمس الأول بعد وصوله البلاد وقال إنه لن يعلن وصوله قبل أسبوع حتى يسترد بعضًا من صحته ويستكمل فترة النقاهة في استراحة الوزارة قبل أن يتوافد عليه المهنئون بشفائه فيشعر بالإجهاد مبكرًا.

نهره رئيس الوزراء باعثًا روحه الخامدة:

ـ وكيف لم تخبرني يا سيادة الوزير؟

تدخل مدير الجهاز:

ـ لسنا في وقت المعاتبة.. إن حضوره ضروري فعلًا.. لكن هل هي الصدفة أم إنه عرف؟

قال أمين الرئاسة:

ـ كيف تسرب الخبر إذن؟

انفتح الباب ودخل وزير الحرب مكدودًا ومرهقًا، كان وزنه قد انخفض كثيرًا ونحافته بدت مرضًا وليست رشاقة عسكرية، والتجاعيد بانت على وجهه كاملة، ولاحظ البعض أن انحناءة قد ظهرت في ظهره تحت عنقه مباشرة، وأن أصابعه السمراء كانت ترتعش حين تمسك بأي شيء أو حتى حين يشير بها في الهواء.

سارع أمين الرئاسة بإفساح أول مقعد مريح له، وأحكم غلق الباب، وأخذ وزير الحرب نفَسه من إرهاق المشوار إلى الصالون، بينما قام الجميع ليسلم عليه بكلمات ترحيب وتهنئة مقتضبة، وكانت ظهور الجميع تنحني كأنها تريد لموجة البحر العالية القادمة أن تعبرها في أمان.

همس من فرط إجهاده يطمس حروف الكلام:

ـ البقية في حياتكم!

ثم أضاف بهدوء:

ـ ماذا حدث؟

بدأ أمين الرئاسة يحكي تفاصيل اكتشاف الاغتيال ثم أضاف:

ـ لم أكن أعرف أن سيادتك قد وصلت بالسلامة إلى البلاد.. فأخبرت السادة الموجودين هنا بالحضور للأهمية للبت في الأمر، وكنت قد تحفظت على جميع الحراس المشاركين في نوبة الأمس واليوم، وطلبت من رئيس الحرس استدعاء الدبابات الخاصة بالقصر الرئاسي، تلك التي شاهدتها سيادتكم بالتأكيد تحاصر القصر في محاولة لتأمينه.

ـ تأمينه ممن؟

سأل وزير الحرب، فلم يجب أحد، فعَلَّق:

ـ عمومًا هذا إجراء طيب وطبيعي.

سكت فسكتوا، كل طرف يضغط على إصبع الآخر بفكه، وانتظرا معًا من يصرخ أولًا من الألم.. صرخ رئيس الوزراء طبعًا حيث لم يطق صبرًا:

ـ وسيادتك عرفت الخبر إزاي؟

أجاب في اطمئنان:

ـ هل تريد يا سيادة رئيس الوزراء أن تتحرك دبابة في البلد من دون أن أعرف؟

على الرغم من النبرة الواهية للتحدي السافر، إلا أن كلمة يا سيادة رئيس الوزراء التي ناداه بها أراحت رئيس الوزراء للغاية، فتمتم:

ـ فعلًا.. فعلًا.

ثم سأله:

ـ وعلى أي شيء استقر المجتمعون؟

أجاب مدير جهاز الأمن الوطني:

ـ نحن الآن في وضع شائك ودقيق، عندنا رئيس ميت أيًّا كانت طريقة وفاته، من دون أن يكون هناك نائب له تنتقل له الأمور بسلاسة وبساطة. إذن الأمر يدفعنا إلى السؤال مَن هو الرئيس؟ ومن سيختاره؟ دعنا من الإجراءات الدستورية فهذا وضع إجرائي، لكن المشكلة ـ إذا كانت هناك مشكلة ـ تكمن في اختيار الرئيس.

الشق الثاني من خطورة الموضوع أن الرئيس لم يمت موتًا عاديًّا، لقد مات مقتولًا، ولمزيد من الأهمية وفداحة الخطورة أنه اغتُيل في قصره، وفي سريره، مما يلقي ظلال الشك على كل من اقترب منه ويهز الثقة في ثبات النظام وقوته، ويطرح هنا سؤالًا ضروريًّا بالتأكيد: هل سنعلن للناس وللعالم أن رئيسنا مات مقتولًا ونعترف بحجم هذه المأساة؟ أم إننا سوف نخفي الخبر؟ وهل يمكن إخفاؤه، وإلى متى، وعلى مَن؟ أما إذا اخترنا إعلان خبر الموت بالاغتيال.. فعلينا أن نقدم المتهم أو نشير إلى المتهم، وسوف يظل بحثنا عنه محل نظر وانتظار المجتمع المحلي والدولي، والكل سوف يطالب بالقاتل، وعلانية ذلك قد تقود التحقيق إلى التسرع أو إلى التجني أيهما أو كليهما. أنت كما ترى القصة معقدة خصوصًا أننا لم ننس أن لنا حليفًا إستراتيجيًّا اسمه الولايات المتحدة الأمريكية، للدرجة التي فكر فيها بعضنا أن نستدعي سفيرها لحضور هذا الاجتماع.

أومأ وزير الحرب وبدا ارتياحه:

ـ أشكرك على هذا العرض الأمين لحجم المشكلة التي نواجهها، لكن ألست معي أنه يستحسن أن نصل إلى قرار ثم نستدعي السفير الأمريكي لنبلغه به بدلًا من أن يتدخل أو يتداخل معنا في أمور تخصنا نحن أكثر؟

قال رئيس الجهاز بسرعة:

ـ أنا معك تمامًا.. فقط أحب أن أوضح أنني لم أكن صاحب اقتراح استدعائه للمشاركة معنا.. لكنني كنت أعرض عليك ما تمت مناقشته.

ـ حسنًا.. حسنًا.. فقط أرجو أن تكفوا عن التدخين قليلًا حتى لا أتهمكم بأنكم تحاولون السيطرة على قوتي باغتيالي بدخان سجائركم.

توجسوا وابتسموا وضحكوا وأدركوا أنهم ليسوا حزانى على موت الرئيس، لم يضبط أي منهم الآخر وفي حدقته دمعة، أو أسى، أو شجن.. فقد تابعوا الخوف من الآتي والترقب للحوادث الجلل التي ربما تعصف بهم، كان خوفهم على سلطتهم ونفوذهم أعلى كثيرًا من حزن خائب على رئيس مغرور.. بل ربما كانوا يشعرون بالتشفي والشماتة فيه. كان بعضهم ـ أو كلهم ـ يظنون أنه كان يستحق وأن أيًا منهم لو كان خارج السلطة الآن لربما زغرد لو علم بموته، أو ربما أغلق على نفسه باب حجرة نومه ولف خصره بإيشارب زوجته ورقص.. رقص طربًا بموت الملك نمرود.. لكنهم كسبوا منه وعاشوا في كنفه ومصوا دم وطنهم معه وبه ومن خلاله، فشعروا ليس بالحزن لوفاته، ولكن بالحزن لغموض مستقبلهم بعد وفاته، أما هو فلن يفتقده حين يفقده أحد.

كان وزير الحرب قد طلب معاينة غرفة نوم الرئيس ورؤيته للمرة الأخيرة.

صعد معه أمين الرئاسة، بينما انحنى رئيس الوزراء على مدير جهاز الأمن الوطني وهمس مازجًا الكلام بدخان السيجارة:

ـ لقد عرفنا إذن مسدسًا جديدًا، لن تطلق منه رصاصة ضدنا.

مدير الجهاز اختلس من صمته بضع كلمات:

ـ المسدسات كثيرة يا دكتور.

حين هبط وزير الحرب أطفأ الجميع سجائرهم بسرعة، وأحكم أمين الرئاسة غلق الباب واطمأن على إقفال كل الكاميرات والميكروفونات المدسوسة في الأركان والأسقف للتنصت، وجلس وزير الحرب يعاني من إجهاد الصعود إلى الدور العلوي (منع الرئيس تشغيل المصعد الداخلي بعد وفاة حرمه، بل أمر بعدها بشهور بنزع المصعد، فهو يرى أن من يستخدمه لأجل ثلاثين درجة سلم في حاجة إلى أن يموت أفضل له وللمصعد).

قال وزير الحرب وهو ينهج:

ـ لقد أخبرني أمين الرئاسة بمشكلة ابن الرئيس! وأنا أسأل: «هل له أي وضع دستوري أو قانوني؟».

عاجله رئيس الوزراء:

ـ إطلاقًا.. إنه فقط وزير الشباب ورئيس جمعية المستثمرين، ومستشار الرئيس للشؤون الاقتصادية، ورئيس مجلس إدارة جريدة الشباب اليومية، والعضو المنتدب لبنك التنمية المالية، وعضو بالبرلمان،

ومساعد رئيس الحزب الحاكم، ويملك أربع مدن ملاهٍ في عاصمة البلاد ومدنها الأولى، والمالك الرئيسي لشركة في الأدوية وأخرى في المقاولات وثالثة في السياحة ورابعة في السيارات، وشريك ١٨ رجل أعمال محليًّا في مصانعهم وتجارتهم، وزوج السيدة كريمة أشهر رجل أعمال سعودي في العالم.

هذا فقط كل ما يمتلكه ابن الرئيس!

رد وزير الحرب باقتضاب:

ـ لقد كنتَ تحفظ الأناشيد في المدرسة بسهولة!

عقب وزير الإعلام:

ـ خُطب الرئيس كذلك، كان يحفظها بسهولة.

أسرع مدير الجهاز بفض حلبة الغمز واللمز على رئيس الوزراء وقال:

ـ عمومًا كل هذه المناصب أكثرها تشريفي وَرَقي وبلا تأثير حقيقي، فضلًا عن أن قوته كلها كان يستمدها من أنه ابن الرئيس، وعندما يكون ابن الرئيس الراحل فهذا أمر يختلف قطعًا، ثم إنني أثق في ذكائه وأنه سوف يفهم ضرورة الانسحاب في صمت، حتى إنني لا أشارككم (أو أشارك بعضكم) محاولةَ إخفاء أمر الاغتيال عليه، فهو سوف ينفعل ويتأثر بالطبع، لكنه لا يملك أن يفعل شيئًا سوى الضجة والصخب السياسي والإعلامي، وهو يعرف جيدًا أنه سوف يكون أول من يدفع ثمنه، ولذكائه سوف يدرك أن من حاول اغتيال والده لن يتورع عن ارتكاب حماقة أسهل، ثم إن ابن الرئيس يضع عمارته كلها على أعواد ثقاب بلا أساس سوى

وجود الرئيس، وحين يختفي الرئيس، فأي عابر سبيل يمكنه أن يدفع العمارة من فوق أعواد الثقاب فتسقط أو أن يشعل الأعواد فتحترق.

أراد أمين الرئاسة أن يضع قنبلة تحت مقاعدهم فقال:

ـ ولكننا نتجاهل جميعًا أن الرئيس قد عشَّم ابنه بولاية العهد وأنه كان يظهر معه في كل لقاءاته السياسية والاقتصادية وزياراته الخارجية، بل لقد أوفده في أكثر من بعثة لدول خارجية، وأظن أنه كان قد أعد قرارًا بتعيينه بالفعل نائبًا لرئيس الجمهورية.

عقَّب وزير الحرب:

ـ وأين هذا القرار؟

ثم قال رئيس الوزراء:

ـ هذه أول مرة أعرف بهذا القرار!

قال وزير الإعلام:

ـ القرارات تصبح قرارات حين تُصدر وتُعلن، لكن طالما قلت مشروعًا أو نية فلا يمكن أن نتكلم عن القرارات.

وزير الداخلية شارك بدوره:

ـ وعلى فرض أن هناك قرارًا.. أين هي أوراقه الرسمية، وهل نشر في الجريدة الرسمية، وهل تم إعلانه في أي مؤتمر أو اجتماع؟

قرر أمين الرئاسة أن يحرق المركب قبل أن يُظهر قمصان النجاة:

ـ القرار معي.

بُهتوا جميعًا، حيث إن انفجار المفاجأة غمس شظاياه في أعناقهم.

هنا أضاف أمين الرئاسة:

ـ والمفاجأة أن القرار تم نشره صباح اليوم في الجريدة الرسمية.

اكتسحتهم أمواج المصيبة، فقال:

ـ ثم إن الرئيس كان قد قرر تأجيل الإعلان الرسمي والاحتفالات المهيبة لذلك حتى يحين موعد عيد ميلاده القادم.

الوحيد الذي نجا من الغرق كان مدير الجهاز.. قال:

ـ وهل أخبر ابنه؟

رمى أمين الرئاسة أول قميص نجاة وقال:

ـ لا.

عاد مدير الجهاز إلى ثباته ووجَّه كلامه إلى وزير الحرب:

ـ أولًا: لا يوجد في الدستور أي نص على أن يتولى نائب الرئيس منصب الرئيس ـ فهذا كلام يمت إلى العرف والرغبة في الاستقرار ولا يمت إلى الدستور بشيء.

ثم التفت لأمين الرئاسة:

ـ لعلك تتذكر أنه لا يزال هناك دستور في البلاد.

وواصل كلامه مرة أخرى إلى وزير الحرب:

ـ ثانيًا: الأمر ليس فرضًا علينا، لو أردنا أن نضعه على مقعد أبيه لفعلنا، لكنه قد يتركنا حوله بعض الوقت ثم سوف يتخلص منا واحدًا وراء الآخر على الرغم من كل ما بذله بعضنا من مسح رأسه عند قدميه.

قال وزير الحرب:

ـ وماذا يقول الدستور في البلاوي اللي زي دي؟

قال وزير الإعلام:

ـ رئيس البرلمان يصبح رئيسًا مؤقتًا لحين انتخاب الرئيس الجديد.

علق وزير الداخلية:

ـ لكن البرلمان منحل.

أضاف وزير الإعلام:

ـ يبقى رئيس المحكمة العليا.

لما رأى أمين الرئاسة أن ركاب المركب لم يُغطِّهم الماء بعد، قرر أن يسد ثقب السفينة، قال:

ـ عمومًا أول ما عرفت وفاة الرئيس اتصلت بالمطابع الرسمية وطلبت منها إرسال كل نسخ الجريدة الرسمية التي تحمل قرار تعيين نائب الرئيس إلى القصر الرئاسي وهي تحت تصرفكم.

ابتسم وزير الحرب مرتاحًا:

ـ أحسن حتى نتجنب وجع القلب.

ومن دون أن يفكر فيما فعل ـ فقد فعله ـ وضع يده على صدره ومشى على طريق خيوط الجرح الذي شقه مشرط جراح إنجليزي من أصل باكستاني في لندن لم يتبين ملامحه الدقيقة والصفراء ونحافته المفرطة وقصره البين إلا عندما جاءه بعد العملية ليطمئن عليه، كان منظره مثل عسكري مجند صادفه في موقع يزوره، لا يعتني به ولا يعنيه في شيء، لكن هذا الطبيب أنقذ حياته من ممات محقق، ابتسم له الطبيب وقال:

ـ أنت جندي شجاع للغاية، لقد قاتلت في العملية ببسالة.

استدعى وزير الحرب كلمات محفورة في ذاكرته من ضابطه الأول على عتبة دخوله الجبهة وأعادها للطبيب كأنها بسمة صاحبها ورنين صوته وأدائه الجنوبي الغليظ.. قال:

ـ الجندي الشجاع هو الذي يدخل المعركة حرصًا على النصر وليس حرصًا على الحياة.

لم يفهم الطبيب الباكستاني الإنجليزي التعبير بدقة، لكنه عقب في ابتسامة الرحيل المسرعة:

ـ عموما الحياة نصر عظيم في وقت لم يعد على الجبهة أي جنود.

سلم عليه في اقتضاب ومضى تاركًا فيه إحساسًا غريبًا ضبابيًّا بالنجاة وتمسكًا أحمق بالحياة وجرحًا طوله أكثر من ثمانية سنتيمترات في صدره يتلمسه كلما أحس أنه يريد الحياة، وكلما أحس أن الحياة قد لا تريده. ناوشه مدير الجهاز مرة أخرى بثبات أعصابه في تلك اللحظات:

ـ تبقى القضيتان كما هما.. من الرئيس؟ وماذا سنعلن للناس؟

تدخل وزير الإعلام فورًا وكأن الكلمات محجوزة منذ فترة وراء أسنانه:

ـ طبعًا نرشح سيادة وزير الحرب.

ارتفع صوت كالنحيب يشق الصمت الذي حط بعد كلمات وزير الإعلام الخاطفة التي عبرت كأنها دويُّ البرق في ليالي الشتاء الطويلة، كان الصوت الناحب مثل صراخ طفل على حجر أمه؛ صوت رئيس الوزراء الذي هتف:

ـ لن نجد لا أعظم ولا أهم من سيادة وزير الحرب، وأنا مع هذا الترشيح بكل قوتي.

كان وزير الحرب قد أحس منذ كلمات وزير الإعلام بوطأة الدهشة على شرايينه المفتوحة، شعر بنبض فظيع ستتفجر له خيوط العملية. وحين أتم رئيس الوزراء كلماته، كاد أن تسرق منه الاستثارة روحه وتجري، كان واثقًا أنهم لم يستطيعوا التآمر من غيره ولا فِعل شيء من دون مشورته وموافقته، لكنه لم يكن يتوقع أن يحتل صفهم الأمامي بمثل هذه السرعة، كان وزيرًا مرضيًّا عنه من الرئيس والجميع، لأنه وزير راضٍ وهادئ بلا طموح ولا جنوح إلى شيء، مهذب في لفظه وتدخله، مطيع لما يسمع حتى من وزراء مدنيين لا يتمتعون بمثل قوة ما يملكه، كتوم لا يذيع سرًّا ولا يكشف أمرًا، صموت غير منشغل بما يقال أو يدور، لدرجة أنه كلما رأى مشهد اجتماع مجلس الوزراء في نشرة الأخبار التلفزيونية، تعجب، فكل وزير أمام التصوير يقول أي كلام غير مسموع وغير مفهوم، أو ينحني على زميل بجواره يتبادلان كلامًا فارغًا أو ملآن، يتساهران ويتسامران معًا لحين انتهاء التلفزيون من تصوير لقطاته التقليدية، لكنه وحده لا يكلمه أحد، لا يشاوره أحد،

لا ينشغل بالميل عليه أحد، وهو لا يكلم الآخرين، صامت محدِّق فيما أمامه، ملامح وجهه لا تشي بشيء، كما أنها لا تفي بأي أدلة على الحزن أو الفرح. تداخلت الكلمات بعدها من الحاضرين، مدير الجهاز الوطني أكد أن ذلك يجعل الوضع أكثر استقرارًا، وأضاف:

- إن البلد سيدرك فورًا أن عملية انتقال السلطة تمت بسلام وبسرعة، وأن النظام لا يزال يحتفظ بقوته وجذوره، كما أن وجود وزير الحرب على قمة السلطة تقدير لأهم قوى داخل البلاد تحميها وتنتصر لها، ونحن واثقون أن الرئيس الجديد من أشجع وأعظم الرجال في حياتنا السياسية.

لم يكن يعرف وزير الحرب ماذا يقول، فلم يقل شيئًا، سمع فقط ما يقوله أمين الرئاسة:

- إنني أضع نفسي وكل فريق العمل في القصر الرئاسي تحت أمر سيادته فورًا، ويعتبرني كما كنت دائمًا جنديًّا مخلصًا وأمينًا في أي معركة يخوضها، وأنا أعرف صلابة هذا المقاتل وقوته وقدرته على خوض غمار الحروب ببسالة تأتي له دومًا بالنصر.

طبعًا لم يكن وزير الحرب قد خاض حربًا طيلة حياته، كما أنه لم يمسك سلاحًا إلا أسلحة التشريفة، وأنه كان «ياورا» للرئيس، ثم رئيسًا لحرسه الخاص، ثم وزيرًا للحرب، وأن أحدًا لم يعرف عنه أي خبرة بالحروب إلا ولعه بحرب النجوم وهي سلسلة أفلام أمريكية كانت في مطلع مراهقته.

وزير الداخلية هو الذي تحدث أخيرًا وقال:

- بالقطع أنا أضم صوتي إلى زملائي، ونرجو من سيادته أن ينزل على

رغبة رفاقه، ورجاله، وأنا على يقين أنها رغبة الشعب كله، وأثق أن نتائج الاستفتاء سوف تكون دليلًا على إيمان الشعب بقدرة ابنه البار على تجاوز المحنة.

صفق أمين الرئاسة بيديه وقال:

ـ بعد إذن السيد الرئيس سوف نعتبر موافقته مؤكدة وندخل في التفاصيل.

كان يجب أن يتكلم، لكن لا لسان ولا ريق ولا صحة ولا تماسك ولا يقظة كانت لديه، وأذهل الجميع بأنه لم يتكلم فعلًا.. فتكلموا هم مرة أخرى، أكمل أمين الرئاسة:

ـ إذن نبلغ رئيس المحكمة العليا الذي يدعو البرلمان للانعقاد ونتقدم له بأوراق الترشيح.

أضاف وزير الإعلام:

ـ مع حملة إعلامية ضخمة تؤكد وقوف الشعب إلى جانب الرئيس الجديد، وأؤكد أنها ستكون أقوى الحملات الإعلامية التي قامت بها قنواتنا التلفزيونية تشهد على عهد جديد ومرحلة جديدة.

لم يفتح الله على أحد بكلمة جديدة، فاضطر مدير جهاز الأمن الوطني أن يطلق كلامًا رصاصًا في الفرح حتى أوشك أن يخرق أذن العريس.. قال مدير الجهاز:

ـ أحب أن ألفت نظركم ونظر السيد الرئيس الجديد إلى أن الدستور يشترط أن يكون المرشح للرئاسة مدنيًا، أي ليس من العسكريين.

شعر وزير الحرب أن خيوط جرح العملية قد انفتحت تمامًا، بل ربما كانت الفتلة البنية في يده هي خيط العملية.. أخيرًا تكلم في زهق وفزع:

ـ يعني إيه.. أستقيل من الوزارة؟

أسرع رئيس الوزراء يركب ثورًا عصيًّا وهائجًا:

ـ معناه إيه الكلام ده.. لو ترك الوزارة من يضمن لنا أن الوزير القادم سوف يكون ولاؤه لنا..

تردد وتهته لكنه أكمل:

ـ أقصد للرئيس الجديد، ومعنى ذلك أيضًا أن الوزارة بقوتها تكون خرجت من إيدينا ومن حساباتنا.

لكن أمين الرئاسة ألقى باندفاع خراطيم المياه ليطفئ حرائقهم:

ـ أعتقد أن كلام السيد مدير الجهاز حقيقي دستوريًّا، لكن الدستور أيضًا لم ينص على ضرورة أو وجوب أن يكون وزير الحرب ضابطًا عسكريًّا أو برتبة عسكرية معينة.

انطلقت زغاريد على هيئة أنفاس متنهدة، لكن وزير الحرب تكلم ببراءة وفرح طالبٍ نجح في الامتحان:

ـ هوه فين الدستور ده.. أنا عمري ما قريته.. دا باين فيه حاجات مهمة قوي.

ابتلع من فهم ما فهمه، لكن وزير الداخلية أصر على أن يضيف:

ـ والله يا سيادة الريس حتى لو كان اسمه إيه ده الدستور مش موافق كان ممكن نقنعه.

زجرته عيونٌ باستخفاف، فأصلح كلامه:

ـ أقصد نعدِّله..

تدخل مدير الجهاز:

ـ موضوع تعديل الدستور حكاية معقدة وطويلة وليست سهلة على الإطلاق، لنعد إذن إلى جثة الرجل الراقدة فوق، ماذا سنفعل؟

قال رئيس الوزراء:

ـ الرأي رأي سيادة الرئيس.

انتبه وزير الحرب بعد وهلة أنه هو سيادة الرئيس، فكان عليه أن يجيب:

ـ والله أنا رأيي وقد يكون خطأ أو صوابًا، أننا نعلن عن وفاة الرئيس وفاة طبيعية بالسكتة القلبية حتى لا نظهر أمام الشعب والعالم أننا دولة ضعيفة لم تستطع أن تحمي رئيسها.. أما الكشف عن مرتكبي الجريمة فهذا أمر لا بد من حدوثه، وأنا واثق أن يقظة وذكاء ونباهة الجهاز الوطني ووزارة الداخلية سوف تصل بهم إلى القاتل الذي أظن أنه مجرد فرد مختل أو مجنون يعمل بمفرده أتاح له إهمال البعض ارتكاب هذه الجريمة، والعقاب سوف يكون رادعًا وسريعًا.

ولما سكت سكتوا هم أيضًا، فعاد ليقول:

ـ والرأي رأيكم.

فقالوا:

ـ والله نعم الرأي.. لقد اتضحت هكذا كل الأمور وباتت واضحة ناصعة.

تمتم أمين الرئاسة:

ـ طيب وأمريكا.. السفير الأمريكي؟

قال وزير الحرب مدهوشًا:

ـ ماله.. مات هو أيضًا.

تدخل وزير الإعلام:

ـ لا سيادتك.. تذكُر في البداية قلنا إن أمريكا حليف إستراتيجي ولا يمكن أن نخبئ عنها سر اغتيال الرئيس.

اشتعل الفهم في رأسه، فقال وزير الحرب:

ـ نخبئ.. هوه إحنا نقدر أصلًا.. زمانهم عرفوا.. يعني إنتوا عايزين نستدعي السفير الأمريكي ونشركه في الحكاية؟

همس مدير الجهاز:

ـ حكاية!!

لم يسمعه سوى أمين الرئاسة الذي تدخل:

ـ اسمح لي يا سيادة الرئيس أن أتصل به للحضور خلال دقائق بالطائرة.

أومأ وزير الحرب وقد أحس أن الثمرة لم تسقط من فوق الشجرة بعد:

ـ آه.. اتفضل.

حينما همَّ أمين الرئاسة بالخروج ناداه وزير الحرب:

ـ لا تنس أن تتأكد من حرق كل نسخ عدد الجريدة الرسمية.

ثم تدخل وزير الإعلام:

ـ وياريت تعطيهم أمرًا بإعادة طبع العدد بسرعة من دون هذا القرار.

أحس أمين الرئاسة أن وزير الإعلام يعطيه أمرًا فتقلص وجهه وانقبض غضبًا، فأسرع وزير الحرب بالتقاط سن السكين:

ـ وزير الإعلام يقترح فقط وهو اقتراح جيد ولا أشك أنك بعقليتك الراجحة سوف تستجيب له.

ابتسم أمين الرئاسة وقرر عبور الحفرة دونما إثارة غبار، قال:

ـ طبعًا هو اقتراح ممتاز وسوف آخذ به فورًا.

عندما عاد أمين الرئاسة من خارج القاعة كان كل مَن في القاعة كأنه يضع عصفورًا فوق رأسه، فانشل تمامًا مخافة أن يطير، لا كلمة ولا حركة ولا همسة ولا لمسة.

٩

كان السفير الأمريكي يصعد إلى سلم الطائرة الهليوكوبتر التي تنطلق من فوق سطح السفارة التي اتسعت مساحتها ست مرات منذ مجيئه إلى العاصمة، لقد نجح في استصدار قرارات جمهورية ووزارية بإخلاء المباني المجاورة لأنها كانت قديمة ومتهالكة ويتصارع عليها رجال الأعمال وأصحاب شركات العقارات الذين دخلوا في منافسة حادة وملايين متضخمة، ملايين الأغبياء، بل إنهم لفوا أيضًا على الأجهزة الحكومية، ومنهم من نجح في الوصول إلى الرئيس للحصول على قرار بإزالة هذه المباني والبيوت على أن يمتلك هو المكان.. وقد قال له الرئيس ضاحكًا في مأدبة عشاء:

- طيب الناس يعرضون عليَّ مبنى كاملًا من عشرين طابقًا، أمنح مكاتبه وشققه لمن أريد من رجالات الدولة ورجالي مقابل أن يتمتعوا هم بحق الامتلاك والبناء، فقد قرروا بناء عمارتين من عشرين طابقًا مخصصة كلها لمحدودي الدخل.. فهل يمكن أن أقف أمام مصلحة رجالي وشعبي؟

رد السفير وهو يتذوق قطعة لحم غارقة في الزبدة:

ـ سيادة الرئيس: «طعامكم لذيذ ومطبخ هذا البلد رائع».

شعر الرئيس أنه يتجاهل الرد فأحس خطرًا:

ـ لم تقل لي ما رأيك في موضوع المباني.. أليست المساحة حول السفارة تستحق أن تكون مكانًا لمواطني هذا البلد!

قال السفير باستسلام الأفاعي:

ـ طبعًا.. إن كل شبر في هذا البلد يستحق أن يكون لمواطني هذا البلد، لكن أحب أن أستفهم من السيد الرئيس عن تعريفه لكلمة مواطن.

اندهش الرئيس:

ـ نحن في حصة العشاء وليست حصة العلوم السياسية، يا جناب السفير.

أمعن السفير في جر السجادة من تحت الرئيس:

ـ أنا دائمًا في حضرة سيادتكم أعتبر نفسي في حصة للتعلم منكم العلوم السياسية.

ضحك الرئيس ولا شك أنه صدَّق أن السفير صادق، فقال:

ـ المواطن في رأيي هو الكائن الذي تستطيع أن تضع له أي تعريف تريده بصرف النظر عما يريده هو.

ضحك السفير ضحكًا حقيقيًّا وصافيًا واحتسى رشفة نبيذ أبيض:

ـ هذا هو مواطن دولكم يا سيادة الرئيس بالضبط.

رد الرئيس في أعلى درجات الانسجام:

ـ وحياتك وده أي مواطن في العالم لولا أنتم وكلامكم الفارغ عن الديمقراطية والحرية وكلام الجرايد التافه بتاعكم.. هو إنت عايز تقنعني إن الرئيس الأمريكي لا يعمل لخدمة الشركات الجبارة ورجال الأعمال الكبار، ومؤسسات المال والنقود في العالم.. أم تريد إقناعي أن الرئيس يعمل لخدمة المواطن الأمريكي البسيط في بروكلين أو كوينز.. روح العب غيرها.

ضحك السفير مرة أخرى وهو يشيح بيده ويعود بظهره إلى مسند المقعد:

ـ هل هذا الحديث بين سفير ورئيس أم إنه حديث بين أصدقاء؟

فرد الرئيس صدره وضرب عليه بقبضته وابتسم بوسع ما في قوة شفتيه:

ـ بين أصدقاء طبعًا.. أما أنت سفير حمار.. إنت فكرك أنا باعبَّر أي سفير ولا أقعد معاه! ليه هوه أنا عيل طمعان اشتغل وزير خارجية، أنا قاعد معاك لأننا أصحاب.. حتى مزاجنا واحد في النسوان!

أُرتِج على السفير واستفهم بعينيه، فضربه الرئيس على كتفه ضربة وُد وقال هامسًا:

ـ ليه هوه أنت فاكر أنني نايم على وداني ومش عارف البنت الصحفية اللي إنت مرافقها.

حاول السفير أن يبتسم لكنه لم يستطع، فقط نطق:

ـ سيادة الرئيس!

زعق فيه الرئيس:

- مالك ارتبكت كده ليه، خليك راجل، ثم دا الريس بتاعك نايم مع نص نسوان أمريكا، ولا يعني عشان البت الصحفية بتاعتك زوجة مستشار الأمن القومي الأمريكي.

ضحك الرئيس وتألق ضحكه في الهواء كمن ينادي على العالم يتفرج كيف أسقط السفير على أرض الحلبة.

بادل السفير الرئيس الابتسام وضغط على أسنانه، ومسح شفتيه من آثار رشفة أخرى من النبيذ:

- سيدي الرئيس أوراق الجميع مكشوفة.. ولعلك لا تعرف أن مستشار الأمن القومي في طريقه إلى الطلاق مع زوجته، لكن ظروف السلطة تعوق الاثنين، والذي لا تعرفه أيضًا أنه مرتبط بامرأة أخرى.

ضرب الرئيس المائدة بيديه منتشيًا من استفزاز السفير:

- امرأة أخرى!!

رفع كفيه للسماء داعيًا:

- يا رب أرجوك وأدعوك ألا تكون السيدة الأولى.

رشف السفير بقية كأس النبيذ كاملة وهو يرى وجه الرئيس وقد احمر من الضحك:

- سيادة الرئيس في بلادكم من يتفوه بمثل هذا الكلام تطلقون عليه الرصاص.

تمالك الرئيس نفسه من الضحك وقال:

ـ يا راجل أنتم لكم قيمكم الخاصة ونحن لنا تقاليدنا، ثم نحن أصدقاء في جلسة شراب نلهو ونضحك،.. ثم إنت بالذمة ألا يمنعك أدبك من أن تقول لي إن لديكم شرائط كاملة صورتوها لي مع عدد من المذيعات وأكيد كان منظري يفضح وأنا قاعد أمسك فيهن وأبوس صدرهن، ثم أطبطب عليهن ويروحن من غير آثار رجولة على أجسادهن!

ضحك الرئيس ضحكًا مدويًا وبادله السفير الضحك هذه المرة صادقًا ومتحمسًا ومستدعيًا تلك المشاهد التي أتاح له مسؤول المخابرات في السفارة رؤيتها بشكل شخصي، وكان منظر الرجل هزئًا مذلًا، ومن ثم اندهش من روح الرئيس المعنوية العالية في معالجته هذا الموضوع والكلام عنه بمثل هذه البساطة.

مال عليه الرئيس:

ـ ها قلت إيه؟

ـ في إيه؟

ـ في المباني من حول السفارة؟

ـ حضرتك رئيس البلاد وحر في أي شيء تفعله.

ـ طيب بص أنا لا أريدك أن تغضب، هناك مبان في شكل دائرة حول السفارة، أنت تريد المباني التي تقع خلف وعن يمين السفارة لتوسع المبنى، ولأنها مبان متهالكة شوف أنا موافق، لكن خد بالك معي من

المباني الأخرى التي تقع على يساركم وأمامكم وهي أيضًا يمكن أن تكون متهالكة (قالها بطريقة متحايلة يفهم منها السفير أن الأمر سيتم بشكل قانوني على الرغم من عدم حقيقته)، سنهدمها وتكون لكم وأنتم تتركون المواقع الأخرى لرجال الأعمال.

ثم رمى الطبق البلاستيك في فم الدرفيل:

ـ ولكم نصيبكم في هذا الموضوع مقابل مجرد رضاكم عنا وعنهم.

قفز الدرفيل والتقط الطبق وهبط إلى حوض السباحة:

ـ أنا تحت رهن إشارة سيادتكم.

تهكم الرئيس ساخرًا وسافرًا، وقال وهو يعود بظهره للوراء:

ـ رهن إشارة سيادتكم (قالها بخفة وتريقة).. يا سفير يا ألعبان يا بهلوان.. والله أنا حاسس إن إنت بالذات الذي سوف تأتي حتى قاعة مكتبي وتطلب مني التنازل عن الحكم، إنت بالذات يا ضلالي.

ـ معقولة يا سيادة الرئيس.. دا أنا كان يتقطع لساني.

مستمرًا في سخريته وتهكمه ولهجته التحذيرية الخفية وهو يقلد السفير في نطقه:

ـ يتقطع لسانك.. إنت جاي يا له من أي حارة في بلدنا؟.. شكلك عمرك ما زرت واشنطن أصلًا.

١٠

كان لقاؤهما بمقهى صغير في أحد طوابق البيت الأبيض، لعله كان في زيارة أو إمضاء وقت مع أحد المسؤولين الصغار في هذا المكتب أو ذاك، لكن على العموم رآه ـ هل هي الصدفة أن يجدَا متسعًا في نفس الوقت ونفس المكان لنفس كوب القهوة الأمريكي؟

الأسئلة التي تلقيها على نفسك في البيت الأبيض قد تجد لها جوابًا ـ ولو كاذبًا ـ أما الأسئلة التي يطرحها سفير أمريكي ذاهب إلى الشرق الأوسط وسفير أمريكي عائد من الشرق الأوسط، فهي أسئلة تجد عشرات الإجابات المضللة والمتداخلة. المسؤولون الأمريكان تعودوا أن يكذبوا على مسؤولي الشرق الأوسط، ومسؤولو الشرق الأوسط اعتادوا أن يكذبوا على الأمريكان أو يتعلموا تصديق أكاذيب الأمريكان. كان السفير الأمريكي الذي صدر قرار ترقيته إلى إحدى إدارات وزارة الخارجية وحل محله السفير الجديد، يجلس في مكان يكشف الداخلين لهذه القاعة الصغيرة التي تملؤها رائحة البن كأنها مطحن بُن في أحد سراديب هذا البيت الأبيض الغامض. ألقى السفير الجديد التحية عليه، قام وصافحه، أحضر

الرجل قهوته ولم يجد مفرًّا من الجلوس أمامه على المائدة نفسها، وقد أخذ الآخر يتصفح «الواشنطن بوست» بعناية، حاول السفير الجديد أن يجر معه كلامًا:

ـ «الواشنطن بوست» أيضا جريدتي المفضلة.

ابتسم السفير القديم وقال:

ـ الحقيقة لقد وجدتها على المائدة، واضح أن شخصًا كان موجودًا مكاني ونسيها، لكنني ـ عمومًا ـ أبحث عن دور العرض السينمائية والأفلام التي تعرضها في حفلة الثانية ظهرًا.

وجدا نفسيهما في طابور أمام قاعة عرض سينمائية في أحد شوارع واشنطن، قطعا التذاكر (كلٌّ على حسابه) واشتريا كيسين كبيري الحجم من الفشار المنفوش وجلسا في مقعدين متجاورين لفيلم حركة، مليء بالمسدسات.. قال السفير العجوز:

ـ لقد وجدت عشرات من الناس يشاهدون أفلام الحركة الأمريكية من دون أن يفهموا كلمة من الحوار، فقد يركزون في البداية على من هم الأشرار ومن هم الطيبون، وبعد ذلك تتساوى كل أفلام الحركة.

ابتسم السفير الشاب وهو ينحني على أذن الآخر:

ـ معرفة الطيبين والأشرار سهلة في السينما.. لكنها صعبة أحيانًا في الواقع.

ـ عندما تذهب إلى الشرق الأوسط فإن الطيبين هم من ينفذون سياستك

والأشرار هم الذين يعارضونها، ليس مهمًا من فيهم يذهب إلى الجامع أو إلى الكنيسة.

طرقع الرصاص في الفيلم بما يكفي تحرير مدينة محتلة، وخرجا معًا، تمشيا وهم يتبادلان ذكريات متقاطعة عن إدارات الخارجية الأمريكية، وشتما بما فيه الكفاية رؤساءهما الصغار، ثم قال السفير العجوز وقد عبر الإشارة بعد خطوة من السفير الشاب:

ـ هنا في واشنطن يعتقدون أن رئيس هذا البلد الذي ستذهب إليه من حفريات القرون الوسطى في الشرق الأوسط، لكنني أؤكد أنه قد يكون من الصعب أن نتمسك به فعلًا، لكن من الأصعب أن نتخلص منه، إننا مثل الذي يمسك الأسد من ذيله، والأسد الوحيد الذي يمكن أن تمسكه من ذيله هو الأسد الذي قمت بنفسك بخلع أسنانه.

وقفا أحدهما قبالة الآخر وأكمل السفير المحنك والمروي بماء أنهار الشرق:

ـ هذا الرئيس ثعلب لم يشبع من مزرعة دجاج بعد، هل سمعت عن ابنه؟ إنه رجل في الأربعين في عمره، مهذب حتى تكاد تبكي من شدة أدبه، يملك أكبر نصيب في أسهم شركة للأقمار الصناعية بشراكة مع عدد من رجال الأعمال في نيويورك، لعلك تسمع عن هذه الشركة إنها رقم ١١ في قائمة ممولي حملة الرئيس الأمريكي الانتخابية. إن هذا العجوز المغفل الجالس في الشرق الأوسط، يدعك صدور النساء يراهن على كل مرشح ترتفع أسهمه في استطلاعات الرأي ويأمر بتمويله، لم يخب توقعه إلا في حالات نادرة، لاحظ أنه يدفع أموال التبرع من أموال المعونة التي يحصل عليها من واشنطن، إنه

لا يصرف مليمًا من جيبه، وانظر إلى بيته هنا في واشنطن وآخر في سياتل وابنه على الرغم من أنه وزير في حكومة بلاده إلا أنه يمضي نصف عامه في نيويورك وسان فرانسيسكو.

عندما تصافحا عند جراج البيت الأبيض وهما يركبان سيارتهما أضاف السفير العجوز:

ـ لكنه أيضًا رئيس كريم لسفراء أمريكا في بلاده، لا تزال زوجتي مطمئنة على مستقبلها بعد وفاتي، حيث تركت لها في المنزل تمثالًا عمره أربعة آلاف سنة أهداه لي هذا الرئيس، وقد قدر أحد الخبراء ثمنه بمليوني دولار فانتظر ماذا سيهديك عند وصولك.

بعد عام من وصوله لهذه العاصمة أدرك أنه يمسك فعلًا بذيل أسد يسخر من صياديه الذين لا يعرفون أن يمسكوا به (الفرق بين لا يعرفون.. ولا يريدون.. استغرق من السفير سنين كي يعثر عليه في العلاقة بين هذا الرئيس والإدارة الأمريكية)، أدرك أيضًا أن عليه أن ينسى حقوق الإنسان والتعذيب في المعتقلات وحرية الصحافة، فكل هذا القاموس ألقاه من نافذة مكتبه في السفارة حيث لا يحتاج إليه الأمريكان مع ذلك الرجل.

بعد عام أيضًا أهداه الرئيس تمثالًا، وشارك الرئيس مآدب العشاء الفاخرة التي جلسا فيها وحدهما، وأحيانًا قليلة بمشاركة أحد ضيوفه في لقاء معه كان متعكر المزاج من نجاح المرشح المنافس للمرشح الذي مولته شركة ابنه في انتخابات الرئاسة الأمريكية، لكنه آخر الجلسة كان صافيًا تمامًا وهو يعرف يقينًا أن أحدًا هناك لن يستغني عنه، وقد جرى بعدها اتصال بينه وبين الرئيس الأمريكي الجديد، كان الحوار فيه وديًا وعميقًا، ومؤثرًا، حيث قال الرئيس الأمريكي له بالنص:

- اعتبرني ابنك وامدد لي يدك بالخبرة التي تملكها في حياتك السياسية العظيمة.

اتصل الرئيس بالسفير الأمريكي وحكى له تفاصيل المكالمة (التي كان يعرفها السفير) وأخذ يردد جملة «اعتبرني ابنك» عشرات المرات، وقد ظل شهورًا بعدها لا كلام له إلا عنها، حتى سمع المسؤولون في بلاده وبلاد أخرى كثيرة هذه الجملة حتى حفظوها، وردد في اجتماعات متعددة مع رجاله كلامًا مثل:

- الرئيس الأمريكي الجديد ولد طيب عايز يفهم ويعرف.. والحقيقة أنني لن أبخل عليه بشيء.

المذهل أنه كان يتصل فعلًا بالرئيس الأمريكي ويبدأ في نصحه بالتصرف بطريقة معينة في أزمة لا علاقة لها بمنطقة بلاده، وكان لا يتورع عن الاتصال بالرئيس الأمريكي في عطلة نهاية الأسبوع لينصحه بتجربة عدد من النساء حتى يظل محتفظًا بشبابه ونشاطه من دون ملل، أو يتصل ليقول له رأيه في خطاب أخير ألقاه الرئيس الأمريكي أو تصريحات تلفزيونية، بل إنه مكث مكالمة مدتها ثلث ساعة يحكي للرئيس الأمريكي عن تجربته في إسكات المعارضة، وذلك حين هبت عاصفة ضد الرئيس الأمريكي في إحدى خطواته لفرض سياسته على الكونجرس، وطهق الرئيس الأمريكي من هذه المكالمات (خصوصًا نصائحه الجنسية في المكالمات إلى الحد الذي قال فيه الرئيس الأمريكي لزوجته إنني أشعر أحيانًا أنه مشغول بحيواناتي المنوية أكثر مني!)، فقرر ألا يرد عليه ويترك هذه المهمة للإدارة أو الخارجية، وبعدها بشهرين أبلغه وزير الخارجية أن هذا الرئيس لا يريد أن ينفذ اتفاقًا معه على عقد قمة في بلاده للتمهيد

لتسهيلات للقوات الأمريكية في البحار الأربعة إلا إذا اتصل به الرئيس الأمريكي شخصيًّا. وقد تعصب الرئيس الأمريكي وأقسم إنه لن يتصل، لكن بعد إلحاح من وزير خارجيته ومستشاره للأمن القومي، كلَّمه، وهذا نص الحوار ـ كما وصل إلى السفارة:

ـ كده برضه متعبرنيش وتكلمني.

ـ مشاغل يا سيادة الرئيس.

ـ لماذا تعاملني رسميًّا؟ ألسنا أصدقاء؟

ـ قطعًا.

ـ إنني كلما أراك في التلفزيون تدمع عيوني.

ـ لماذا؟

ـ من الفرحة.

ـ أي فرحة؟

ـ فرحتي لرؤيتك.. هل تعرف أنني أضع صورتك أنت والسيدة الأولى في غرفة مكتبي.

ـ هذه لفتة كريمة.

ـ هل تأخذ بالك من صحتك؟

ـ إنها طيبة.

ـ هل تأخذ كفايتك من النوم؟

ـ نعم.. نعم.

ـ لكن أنا لاحظت مرة أن تحت عيونك ظلالًا بنية.

ـ أنت تعرف أعباء المسؤولية.

ـ اعمل بنصيحتي.. هذه الشعوب لا تستحق أن نرهق أنفسنا من أجلها.

ـ لقد انتخبني شعبي كي أعمل على مصالحه.

ـ مصلحة الرئيس هي مصلحة الشعب.. يا راجل بلاش غم. لا تقرأ الصحف، فهي كلها ليس وراءها إلا النكد والهم، ولا صحف ولا كتب ولا تقارير ولا كلام فاضي.. هوه أنت عايز كل ده عشان تحكم.. كفاية بس تشغل تفكيرك وأنت تتخذ القرار الصائب على طول.. إنت فكرك إنه ليس هناك حكمة في اختيار ربنا لك لترأس هذا العالم... طبعًا إن فيك من رائحة حكمته، أنت ظله على الأرض، وإلا لماذا لم يأت بأحد آخر غيرك؟

ـ شكرًا.

ـ لا شكر ولا فكر.. أنا عايزك تأكل وتأخد بالك من صحتك وتراعي حق شبابك عليك ولا تنسَ أن تشبع من النساء حتى تستطيع أن تدير قضايا بلدك براحة بال.

ـ شكرًا سيادة الرئيس.

ـ مرة ثانية ح تعاملني رسميًّا.. ألم أقل لك إنني أحبك وأضع صورتك أمامي طوال الوقت، وساعات أكلم الصورة وأسألها يا ترى عامل إيه دلوقتي.

ـ سيادة الرئيس.. هل تباشر الجلوس مع طبيبك النفسي؟

ـ طبيبي النفسي.. أما والله أنتو لكم حاجات يا خواجات، أنا يا حبيبي لا أمرض ولا أعرض نفسي على أي طبيب، وعمر ما جاتني حتى أنفلونزا، والدواء الجاهز دائمًا لي هو كوب عسل نحل أجمعه بنفسي من خلية خاصة في جنينة القصر الرئاسي.

ـ هل تحب أن أرسل لك طبيبي؟

ـ يا عيني يا حبيبي.. لا تشغل نفسك بصحتي.. اهتم إنت بنفسك وصحتك.

ـ أشكرك يا سيادة الرئيس وأرجو ألا تنسى اتفاقك الخاص مع وزير الخارجية.

ـ أنسى!! هل هذا كلام؟! أي حد من ريحتك.. ريحة الحبايب كلامه كله أوامر.

ـ شكرًا.

ـ قبلاتي لك.

ـ سيادة الرئيس أأنت واثق أنك لست في حاجة إلى طبيبي النفسي الخاص؟

ـ لماذا تعود وتقول هذا؟

ـ لا أبدًا.. مع السلامة.

هبطت الطائرة الهليوكوبتر على المهبط الخاص في القصر الرئاسي،

كانت المروحة تثير الرياح والهواء والغبار، بينما كان أمين الرئاسة في الانتظار، وقد طار ذيل بذلته ورابطة عنقه حين صافح السفير الذي نزل من سلالم الطائرة برشاقة، وأخذا طريقهما إلى داخل أحد الأجنحة في المبنى الرئاسي.

١١

عندما كان يعرض رئيس الوزراء ما توصلوا إليه من مواقف وإجراءات للسفير الأمريكي، كان حريصًا على جعل كل شيء في هيئة اقتراحات.. «واقتراحات أقرها بعضنا أو كثير منا»، مما جعل وزير الحرب يتململ غيظًا منه ومن جبنه ومن تفتيت وحدتهم التي هي ملاذهم في هذه المأساة. كان رئيس الوزراء يسرق نظرة من حين إلى آخر لكل من في القاعة كي يعرف هل ما يقوله يوافق خواطرهم ويناسب مطالبهم، فلم يجد أحدًا قد تغير وجهه إلا وزير الحرب، الأمر الذي اعتبره «مريسة» من الأول.. لذلك حين وصل إلى اختيارهم للمرشح لمنصب الرئاسة قال متحمسًا يذوب من فوق حروفه دهن النفاق:

ـ ولقد وقع اختيارنا بالإجماع على زعيم عظيم ومقاتل مهيب وسياسي خبير ليكون مرشح حكومتنا وحزبنا للرئاسة، ألا وهو السيد وزير الحرب.

ضخ الدماء عاد إلى قلب وزير الحرب، وظهر راضيًا تمامًا ـ كالأطفال ـ عن رئيس الوزراء الذي سكت منتظرًا أن يحمل أحدهم عنه حمولة طن الزفت هذا الذي رصف به الشارع إلى قلب السفير الأمريكي.

كان السفير الأمريكي من لحظة ما تلقى خبر اغتيال الرئيس وهو

كمن ضبطته امرأة تستحم في حمامها، ينظر إليها من نافذة مكتبه، مرتبكًا ومأخوذًا وحائرًا، لكنه رسم بأداء هوليودي شيئًا من الجدية والخطورة على ملامح وجهه. بعد أن استمع إلى كلام رئيس الوزراء قرر أن يصمت ويطرق في الأرض طويلًا، لا شيء على الإطلاق يشغل تفكيره، مجرد متاهات تشبه ألعاب التسلية في الجرائد المحلية، لكنه لم يتكلم حفاظًا على مظاهر مدى الأهمية وعمق التفكير.

أخيرًا قال له وزير الإعلام:

ـ ماذا ترى يا سيادة السفير؟

تنحنح وقال بسرعة لا تليق مع تمثيلية التفكير العميق التي أداها:

ـ لا بد من الرجوع الآن إلى الإدارة في واشنطن وسماع نصيحتها..

كانت الدقائق كلما مرت دهست عظامهم جميعًا في تلك القاعة، عندما اكتشفوا أن الساعة لا تزال الثانية ظهرًا فوجئوا كلية، لقد ظنوا أن العام كله قد مرَّ عليهم في جلستهم هذه، ولقد أحسوا أن القاعة تلك هي صالة زفافهم التي تحولت إلى حوش مقابرهم. كان مرض السكر قد جعل رئيس الوزراء يكاد ينهار، فطلب غذاء على أي نحو من أجل حقنة الأنسولين، وراح يأكل كأنه يزغط نفسه بالعافية، أما الآخرون فقد اندسوا في فناجين قهوتهم وقد قطعوا أي اتصال تلفوني بهم منذ ساعات.

حين عاد السفير من الحجرة الأخرى التي أجرى فيها مكالماته، جلس على أول مقعد صادفه.. ثم بدأ كأنه يتلو بيانه:

ـ أولًا: السيد رئيس الولايات المتحدة الأمريكية يبلغكم تعازيه القلبية وتعازي الشعب الأمريكي في وفاة الرئيس.

خرجت بين الهزل والجد كلمات رئيس الوزراء من تحت قطع الخبز المنثنية في فكه:

ـ يا سيدي شكر الله سعيه.

تجاهل السفير الرد وأكمل:

ـ ثانيًا: لقد تفهم صواب كل القرارات التي وصلتم إليها.

طرق قلب وزير الحرب طرقة تشبه الطرقات على الدائرة النحاسية في حلبات الملاكمة تعلن نهاية الجولة.

ـ ثالثًا: إن الإدارة الأمريكية على ثقة أنكم سوف تولون هذا الحادث الخطير كل اهتمامكم على الرغم من سرية إعلانه، إلا أنها تقترح تشكيل لجنة محايدة لا علاقة لها بأي من الأجهزة الأمنية في كلتا البلدين لتتولى التحقيق بشكل خاص وفردي ومستقل في حادث الاغتيال لتستعينوا برأيها والمعلومات التي تصل إليها في هذا الحادث.

نظروا جميعًا إلى وزير الحرب الذي نظر إلى وزير الداخلية ثم إلى مدير جهاز الأمن الوطني اللذين صمتا فلم يسعه إلا أن قال:

ـ على بركة الله.

التفت له السفير الأمريكي:

ـ مبروك يا سيادة الرئيس.

وكانت هذه الجملة إيذانًا للمشاعر أن تنفجر في قلبه.

١٢

لم يخجل أن يطلب من الماكيير بعضًا من المساحيق المضللة تحت عينيه كأنه لم ينم حزنًا وكمدًا، كانوا قد اختاروا وزير الإعلام لكي يذيع بنفسه بيان وفاة الرئيس، أولًا: لأنه لا يوجد نائب رسمي للرئيس، ومن ثم لا صفة لوزير الحرب كي يعلن النبأ، وقد يثير هذا أسئلة وارتباكات هم في غنًى عنها. ثانيًا: لأنه من الطبيعي ووزير الإعلام هو المتحدث الرسمي باسم مجلس الوزراء أن يعلن الخبر بنفسه، وهو ما لا يعطيه امتيازًا خاصًّا بخلافة الرئيس. أما الصياغة فقد قرروا تركها لوزير الإعلام أيضًا على أن يقرأها على وزير الحرب لإقرارها.

بمجرد عودته إلى مبنى التلفزيون اكتشف وزير الإعلام أن شيئًا ما قد تسرب.. هل جاءت الشائعات من تأخُّر كل هؤلاء المسؤولين في قصر الرئاسة وتسللت الأنباء عن طريق الحرس الشخصي أم السكرتارية التي أحيطت علمًا بمكان تواجدهم، بينما منع عليهم الاتصالات. لقد لاحظ قلقًا في العيون، وتوجسًا في حس الأصوات التي كلمته، وارتباكًا غامضًا في قواعد الأمن اليومية، وثمة تسيب يعكس إهمالًا أو استهتارًا.. لقد

وصلتهم أشياء متناثرة طبعًا، ولعلهم اعتقدوا أن وزير الإعلام قد أطيح به أو أنه في أزمة.. ربما هذا ما أكل رأسه ولعب النمل في عبِّه، ربما يكون قد أعلن وزير الحرب عن نيته في تولي شخص آخر وزارة الإعلام، معقولة بهذه السرعة وذلك التسرع، إن هذا شغل هواه ولا يجب أن يصدق كل التوجسات التي ستهرس قلبه من اليوم ورائح.

أعطى أوامره باستعداد استديو الهواء للبث المباشر وإعداد ديكور عبارة عن مائدة صغيرة على شكل مكتب وخلفها العلم الوطني على صاري يملأ خلفه الكادر، وشخط بدون مقدمات فيهم:

ـ لا أريد الأعلام بنت القحبة اللي واكلها الفيران والمرمية في المخزن.. نقوا علمًا عليه القيمة.

طلب من سكرتيرته البذلة السوداء من دولابه في مكتب الوزارة ورابطة عنق سوداء.. فتشوا عن رابطة العنق السوداء فلم يجدوها، توترت سكرتيرته وأحست أنه نهار أزرق لن يفوت، حتى فوجئت بأحد القادمين لموعد مع الوزير وهو يرتدي رابطة عنق سوداء غاية في الأناقة، لم تفكر لحظة، بل اندفعت ناحيته وهو يجلس بمنتهى الوقار على المقعد في أنتريه الانتظار وأطبقت على زمارة رقبته وهو مذهول ومستسلم، خلعت عنه رابطة العنق وهي تلهث وتجري مبتعدة وتتمتم:

ـ لا مؤاخذة يا حضرة.

كان الوزير في مكتبه ينتظر مكالمة رئيس الوزراء يحاول كتابة البيان، لكن عصت الأفكار وتمردت السطور، فاستدعى رئيس تحرير النشرات التلفزيونية وهو رجل مسن وبارد ومرؤوس نموذجي، حيث يستعد للانحناء

قبل أن يطلب منه أحد ذلك.. جاء على عجل وجلس قبالته بعد أن استأذن أكثر من مرة للجلوس والوزير لم يكن ينقصه هذا النفاق البلدي على آخر النهار، المهم جلس في أدب قُرودي جم حتى بدأ الوزير يشرح له ما هو مطلوب منه، ارتج الرجل وفزع وهلة وازرق واصفر واخضر ووجهه جاب ألوانًا، ثم بدا يبكي وهو يتنحنح قائلًا:

- البقية في حياتك يا سيادة الوزير.. البقية في حياة البلد.. أنتم الخير والبركة.. والله العالَم خسر خسارة فظيعة.

رمى الوزير بنظارته على المكتب متفجرًا فيه:

- خلاص فهمنا إنك متنيل بستين نيلة وحزين على موت الرئيس يا سيدي، نفضى إذن لشغلنا.

الزعيق أنتج نتيجته فورًا في الرجل، فالتزم الصمت وتوقف أنفه أخيرًا عن مخاط البكاء، تقريبًا كتب البيان على طريقة الخطابات المرفوعة من وإلى السيد الوزير للعلم والإفادة، لكن الوزير أقره قائلًا:

- يعني لا يوجد أحد فاضي الآن للبحث عن الاستعارات المكنية ودروس البلاغة، كله سوف يأخذ الخبر وينكب مذهولًا من دون أن يتأمل تعبيرات طه حسين بتاعة رئيس تحرير النشرات.

كان قد أقسم أن يغيره، لكنه تراجع عن ذلك فورًا لما اكتشف أنه أساسًا على كف عفريت، ولا أحد يعرف ماذا تخبئ الأيام لمنصبه. جاءه صوت رئيس الوزراء أخيرًا يأذن له بالضغط على زر القنبلة.

عندما بدأ الوزير يلقي بيان إعلان وفاة رئيس الجمهورية، كان عمال الإضاءة والمصورون والمخرجون خلف الزجاج الحاجز، ومهندسو

الصوت وكل من في المبنى قد غشيه الصمت المصحوب بالذهول.. لم يكن أحد يتصور أو يتخيل لحظة أنه سوف يعيش حتى يرى هذه اللحظة. كان الرئيس بالنسبة إليهم قدرًا وقضاء، وأنه مثل الصيف والمطر والخماسين والجبال.. جزء من طبيعة حولهم لا مفر منها ولا أمل في تغييرها ولا تفكير في أن تختفي أبدًا. عندما أنهى وزير الإعلام بيانه لم يكن يرى حزنًا في الممرات ولا الطرقات ولا المصاعد إلى مكتبه، كان يرى ذهولًا.. آثار صاعقة، أشخاصًا مُنومة، لم يُحدِّث أحدًا في الخبر ولا أحاسيسهم ولا مشاعرهم ولا أفكارهم.. كانت عملية جراحية صعبة بلا مخدر ولا منوم ولا مسكن لنزع اللِّوَز أو الزائدة الدودية من جسدك وأنت صاح مستيقظ.

كانت تعليماته بإلغاء البرامج العادية والاكتفاء بنشرات الأخبار وإعادة إذاعة البيان وتلاوة القرآن الكريم.

ومضى إلى وزارة الداخلية للاجتماع مع وزيرها ومدير جهاز الأمن الوطني من أجل الإعداد للجنازة وخطة مسيرتها، وأماكن استقبال الوفود والرؤساء، والبث التلفزيوني المباشر، ومندوبي الدولة للانتظار في المطار، وتأمين الشوارع والميادين وطرق المطار، والتعاون مع الخبراء الأمريكان الذين سيحضرون لمرافقة مسؤوليهم. وكانت وزارة الخارجية تمدهم كل ساعة بالرؤساء الذين أعلموهم بحضورهم الجنازة، وكان وزير الحرب على اتصال مستمر معهم من مكتبه حيث انتقل للمبيت الأيام القادمة كلها هناك. في نفس الوقت كانت تقارير أمن الدولة تأتي للوزير حول ردود فعل المواطنين، وكانت كلها تشرح الذهول الذي يجتاح البلاد والصمت البالغ وعدم الرغبة في إبداء أي

انفعالات وهو ما كان سمة للبلاد على طولها وعرضها، بينما وزير الإعلام يرد بشكل مقتضب وملخص على أسئلة وكالات الأنباء التي توافدت الآن إلى مقر وزارته، مما دعا إلى اقتراحه بعقد مؤتمر صحفي عاجل، لكن مدير جهاز الأمن الوطني عارض الاقتراح لأن الصحفيين سوف يسألون عن معلومات دقيقة ولا شيء نستطيع أن نجيب به عليهم، ووافقه وزير الداخلية. على الطرف الآخر كان أمين الرئاسة يشرف على عملية سرية ومكتمة جدًّا هي غُسل الرئيس بحيث يظل الذين غسلوا جثته محتفظين بسر الجرح الواسع الغائر الذي شق من قلبه حتى بطنه، فاختارهم من ضباطه الأطباء الثقات، وكان يتلقى تعليمات الغسل الشرعي بالتلفون من أحد الحانوتية الذي أمده به أحد رؤساء أحياء العاصمة من معارفه القدامى.

كان الحرص بالغًا على إتمام كل شيء بسرعة قبل وفود ابن الرئيس من الخارج.. وكانت المهمة العويصة لرئيس الوزراء أن يكلمه بنفسه قبل إذاعة الخبر في التلفزيون ويعلمه بنفسه ويطلب منه الحضور فورًا في طائرة خاصة أرسلتها له الدولة.

كان رئيس الوزراء مرتبكًا وتائهًا تمامًا، تتصارع في رأسه ونفسه تيارات الجبن والشجاعة، رغبة السلطة ومذلة الحاجة، هداه تفكيره إلى حيلة تنجو به من الارتباك والتعثر أمام ابن الرئيس، فأخرج من درج مكتبه جهاز تسجيل دقيقًا وفتحه وسجل عليه حواره المفترض مع ابن الرئيس، بحيث يقول هو جملته ثم يتوقع في سره ماذا سيقول ابن الرئيس فيرد عليه بصوته. اطمأن إلى براعة التسجيل ومساحات

الصمت المتروكة وربطه آليًّا بالسماعة وضغط على أزرار الرقم السري الخاص الذي يعرفه ويحفظه لابن الرئيس.. جاءه الجرس رنينًا بعيدًا عميقًا كأنه يعبر آلاف الأميال معه، كان يمشي في الغرفة ترتجف سمانتا ساقيه.. فجأة رد ابن الرئيس:

ـ آلو.

أدار رئيس الوزراء بسرعة جهاز التسجيل وهو يهتز من فرط الاستثارة والحماقة، فجاء الحوار بين ابن الرئيس وجهاز التسجيل هكذا:

ـ إزيك يا ابني.

ـ مين معايًا.

ـ أريد منك أن تتماسك وتتشجع.

ـ تفتكر ده وقت هزار.

ـ لديَّ خبر سيئ.. فصَلِّ على النبي الأول.

ـ يا بني آدم أنت مين.. صوتك مش غريب عليَّ.

ـ أيوه كده مفيش أحسن من الصلاة على النبي.

ـ مين الحمار اللي بيتكلم؟

ـ أبوك.

ـ مين!

ـ سيادة الرئيس.

ـ بابا اللي معايا.

ـ البقية في حياتك.

ـ في مين يا بابا.

ـ المرحوم كان زعيمًا عظيمًا ووالدًا عظيمًا وفاضلًا وأنا واثق أنك تتمتع بشجاعة والدك في تلقي مثل هذه الصدمة.

ـ إنت رئيس الوزراء؟

ـ واعتبرني بمثابة والدك الثاني والسيدة حرمي بمثابة والدتك الثانية.

ـ أنا مش فاهم حاجة.

ـ كويس إنك استوعبت الخبر وتلقيته بشجاعة كما توقعت.

ـ بابا حصل له حاجة.

ـ الطيارة في المطار والبيان في التلفزيون والأكل في الثلاجة.

ـ أنا ح أضربك بالرصاص.

ـ لا شكر على واجب يا ابني والله الست هانم حرمنا صممت تعملك بنفسها الأكل وتحطه في ثلاجة الطيارة أول ما تركب تسخنه المضيفة وبالهناء والشفاء.. الأيام الصعبة قادمة ومن يعرف متى نأكل مرة أخرى.

ـ أنا ح أقفل الخط وح اطلع دينك.

ـ العفو يا ابني والبقية في حياتك خليك فارسًا وشجاعًا.

سمع قفل الخط على الطرف الآخر، أسرع بغلق جهاز التسجيل كان يشك أن ابن الرئيس فهم شيئًا، لكنه أزاح عن صدره هذا العبء ومن السهل أن يتحجج بحالته النفسية التعبانة من الخبر، أو الصدمة التي أحس بها ابن الرئيس، أو سوء الخطوط الدولية هذه الأيام، ومن ثم لم يكن غريبًا أن يسمعا بعضهما بعضًا جيدًا أو يفهما بدقة ما يقوله الآخر.

اتصل بوزير الإعلام أخبره بتمام المهمة، وأن له أن يذيع الخبر الآن على الهواء. بعد أن وضع السماعة فوجئ بتلفون من أمين الرئاسة وقد بان على صوته أثر قلق ودهشة واستغراب:

- ماذا فعلت يا دكتور في ابن الرئيس؟

- فعلت إيه؟

- اتصل بي الآن غاضبًا ولاعنًا، وعرف من جهازه أنك الذي اتصلت تقول له الطيارة في المطار والبيان في التلفزيون والأكل في الثلاجة.. إيه حكاية الأكل في الثلاجة يا دكتور؟

- أكل وشرب إيه حد له نفس يأكل.

- عمومًا أنا قلت له أكيد فيه مشكلة في الخطوط واضطررت لأن أتولى عنك المهمة وأخبره بوفاة الوالد.

- وماذا كان رد فعله؟

- سكت وخرس تمامًا ثم قال إنه راجع إلى البلد بعد ساعات.

بعد ساعة بالضبط اتصل مدير جهاز الأمن الوطني برئيس الوزراء:

- مساء الخير يا دكتور.

ـ أهلا يا أفندم.

ـ إيه اللي إنت قلته لابن الرئيس؟

رئيس الوزراء محتدًّا:

ـ تاني الأكل في الثلاجة.

رد مدير الجهاز بوقار ومن دون انفلات أعصاب:

ـ أكل إيه وثلاجة إيه.. أنا كنت عايز أفهم ماذا وصل له، لأن فيه تقريرًا شفويًّا جاءني الآن من طائرته في طريقه للبلاد يقول إنه غاضب وثائر وقاعد يقول عملوا في أبويا إيه.. فيه انقلاب.. فيه خيانة!

بهت رئيس الوزراء!

ـ يا نهار أسود وما العمل؟

مرة أخرى كان مدير الجهاز هادئًا تمامًا:

ـ احتمال يكون هذا من أثر الصدمة الأولى، وانفلات أعصابه سوف يتحكم فيه بمجرد حضوره.. لكن عمومًا لا بد من احتوائه.

حاول رئيس الوزراء أن يخرج بحقيقته لحظة من تحت جلده:

ـ ليه ح يعمل إيه يعني؟ ليس في يده شيء.

ـ لكن في لسانه شيئًا يا سيادة رئيس الوزراء، لسانه يمكن أن يطول ويفلت ويعمل وجع دماغ.

في حزم ثعلب يُسفر عن غضب:

ـ اسمع.. بلغ مندوبك في الطائرة أنه يهدئ روع ابن الرئيس ويذكِّره بأن شركاته وأسهمه وشركاءه في البلد ممكن يتخلون عنه فورًا ويخسر مع والده عشرات ومئات الملايين.

دعه يذكره بصريح العبارة، إنه ممكن لو توترت أعصابه أن تضيع ثروته، وليس بعيدًا أن يدخل السجن بقضايا فساد أكثر من عدد الشعر في الرأس.

شعر مدير الجهاز أن قطًّا تحول إلى نمر في لحظة، كمن يرى تحول دكتور «جيكل» إلى مستر «هايد»، هل هذا هو رئيس الوزراء؟!

تذكر أن الكلب لولو المحمول على ذراع الفتيات يمكن أن يعض أحيانًا..

قال:

ـ كلام دقيق وحاسم يا دكتور وسوف أنفذه حالًا..

ثم واصل:

ـ بالمناسبة من سينتظره في المطار؟

ارتد رئيس الوزراء إلى أصله:

ـ لست أنا..

ابتسم رئيس الجهاز على الرغم منه:

ـ هل أجعل أمين الرئاسة يذهب في استقباله؟

رد في حسم:

ـ لا .. إن العلاقة بينهما قد تسمح بتسرب الأنباء.. اسمع.. اجعل «ن» رجل الأعمال إياه صديقه وشريكه يذهب في استقباله، واجعله يهدئ من روعه في الطريق إلى العاصمة، ودعه يتذكر معه أن مصالحهما التي خدمتها السياسة قد تهدها السياسة.

أبدى مدير الجهاز إعجابه وتعجبه من مفاجأة رئيس الوزراء له بعقل جديد:

ـ فكرة ممتازة.. ليكن.

١٣

كان عشرة من الجنود يحملون الأوسمة والنياشين والقلادات والأوشحة التي حصل عليها الرئيس، يضعونها فوق مسند من القطيفة الأحمر مثبت على طبق غويط من النحاس المبطن بحرير أسود، يسيرون بخطى منتظمة عسكرية ذات وقع حديدي على أسفلت الشارع الطويل الواسع المختار بعناية في منطقة لا تحوطها البنايات ولا العمائر العالية، يسهل حصارها وتأمين مرتفعاتها، وتضييق مساحتها بصفوف من الجنود على الجانبين، يضيقون مساحة الممشى الذي تسير فيه عربة يقودها حصانان عربيان تكشف انثناءاتهما عن أصل أصيل وفرع طويل في حشا السلالات النبيلة، الحصانان أكبر من الخيول العادية وأكبر رهبة وحضورًا، طَرْق حدوات أقدامهما على الأسفلت يقترب من الرقص الناعس العفوي، وأجراس نحاسية تخفق مع حركتهما فوق العنق، وموسيقى عسكرية جنائزية تنتحب حول الجنازة. على العربة يرتكن النعش الخشبي المنقوش بأطر من الرسوم النحاسية، ومقبض فضي عند منتصفه ملفوف من ناحيتين بعلم البلاد، فوقه نجمة من الزهور الصفراء والبيضاء والبنفسجية، ثم صورة الرئيس مرتكنة على النعش، موضوعة على أرضية العربة ملفوفة بشريط

أسود حدادي. بعد أن أعيدت الجنازة في التلفزيون كان وزير الإعلام يريد أن يضرب بالجزمة الشخص الذي اختار هذه الصورة، فقد كانت ضاحكة مبتسمة تدفع الجنازة كلها إلى حالة من البلاهة كلما أمعن فيها المشيعون أو اقتربت منها عدسة الكاميرا المقربة، كان ابن الرئيس ومعه رئيس الوزراء ووزير الحرب يتقدمون الجنازة بعد ثلاثة صفوف من ضباط التشريفة الذين ظلوا يخبطون الأرض مدة ست ساعات بنعال أحذيتهم العسكرية حتى كاد الأسفلت يشكو الانهيار تحت أقدامهم.

رسم الجميع حالة حزن وكرب وارتدت الصفوف العشرة الأولى ـ على غير عمد ومن دون توقع ـ نظارات سوداء، فكان مشهدهم إعلانًا مجانيًّا للنظارات السوداء، أو كأنه مشهد إعلاني تبثه شركة نظارات عالمية لصنف جديد تطرحه في السوق، الذين انتبهوا لهذا الكم الهائل من الوجوه التي ترتدي نظارات سوداء تحول بهم الانتباه إلى الضحك حتى القهقهة. أما إحدى شركات المآتم والمقابر والمدافن في إنجلترا فقد استغلت هذه الصورة المنشورة في جريدة «الجارديان» لمشهد من الجنازة وقد ارتدى المئات المزدحمون نظارات وبذلات سوداء، واشترت الصورة الأصلية من المصور وكبرتها وجعلتها في إعلان الشوارع عن عملها وكانت الحملة الرئيسية للإعلان.

البعض يعمل حساب البذلة والنظارة السوداء في الجنازة وينسى شكل التابوت، ثم اسم الشركة وعنوانها. وبعد شهر من وضع الإعلانات في شوارع العاصمة البريطانية ونشره في بعض الصحف الإنجليزية والاسكتلندية، نشر بريد «الجارديان» احتجاجًا من مواطن من مواطني بلد الرئيس على استغلال جنازته بهذه الطريقة التجارية، مما أحرج السفارة

هناك فاحتجت واعتذرت الشركة عن الإعلان بعدما صارت حملة في صحف البلاد وإنجلترا أثمرت إعلانًا مضاعفًا للشركة.

كان الضيوف الأجانب في مقدمة الجنازة مع مسؤولي البلاد، وقد وُضعوا في مربعات محكمة بين المشيعين حيث كان يحيطهم من الجوانب الأربعة ضباط أمن البلاد وحراس الضيوف الشخصيون بملابس مدنية وقد وضعوا سماعات اللاسلكي في آذانهم، وبانت المسدسات تحت أطراف بذلهم، وكان المشهد الذي جذب أنظار العالم كله هو وجود أربعة من الرؤساء الأمريكان السابقين يشيعون الرئيس في الجنازة، وكان الرئيس قد عاصر ثمانية رؤساء أمريكان بين سابق وفقيد، ولأن الرؤساء الأربعة ظهروا منذ عامين ربما في جنازة أحد ملوك المنطقة أيضًا، فقد نشرت صحيفة «نيويورك تايمز» رسمًا كاريكاتوريًّا للرؤساء الأربعة يجلسون في ساحة انتظار أحد المطارات وواحد منهم يقول:

- ـ ها.. سوف نذهب نعزي فين النهارده.

لكن حضور الرؤساء الأمريكان الأربعة كان حدثًا إعلاميًّا ركز عليه الإعلام المحلي باعتباره شهادة اعتراف بتفوق الفقيد الراحل، وبينما كان الرئيس المؤقت للبلاد رئيس المحكمة العليا قد حلف اليمين وأعلن عن توليه منصبه، إلا أنه ظل متعثرًا في مصاحبة زعماء وأمراء الدول المجاورة، ولم يظهر في الصفوف الأمامية وكانت التعليمات واضحة لمخرجي الجنازة بتجاهل وجوده والابتعاد عن أماكن تواجده في الجنازة. وقد التقطت عشرات الكاميرات مشهد رئيس الوزراء في الجنازة وهو غارق في البكاء يستند على مصاحبيه فيما يشبه الإغماء والانهيار من فرط التأثر وشدة الحزن، ولم يجد زملاؤه من أصحاب خطة انتقال السلطة بدًّا من

الإعجاب بقدرته على التمثيل، بينما أقسم مدير جهاز الأمن الوطني على أن يحصل جهازه على ملف علاج رئيس الوزراء في مصحة أوروبية في أثناء تلقيه بعثة تعليمية، وكانت تلك الشائعة التي لم يتثبت من صحتها جهازه منذ تولي الرجل مقعد رئاسة الوزراء، لكن مشهد إغماء رئيس الوزراء جعل النكتة الشعبية تخرج فورًا من المقاهي، حيث ترددت تملأ أرجاء البلاد في اليوم التالي، حيث أطلق عليه المتفرجون من المواطنين: رئيس الوزراء وأرملة الزعيم الراحل!

لكن النكت لم تتوقف عند رئيس الوزراء، بل طالت الرئيس الميت شخصيًّا؛ فقد رصد العالم كله اختفاء المواطنين من الجنازة، فقد اقتصرت على الرسميين والمسؤولين والضيوف الأجانب، وقد أشارت وكالات الأنباء إلى هذه الظاهرة وهي اختفاء شعب الزعيم من جنازته وخلو المشيعين من مواطنيه، وعلقت عليها في صدر برقياتها وتغطيتها للحدث، مما جعل الإعلام المحلي يضع عقب كل جملة «جنازة الرئيس» كلمة «الرسمية» حتى يوحي بأن الجنازة ـ لظروف أمنية ـ لم يكن مطلوبًا أن تكون شعبية، وأن الشعب كذلك لم يهرب من تشييع جثمان الرئيس. لكن الشعب ـ فعلًا ـ شيع الرئيس بنكت تتوالى كفقاعات ماء يغلي قبل انفجار بركان من تحت بحيرة، وقد وصل تقرير النكت إلى مدير جهاز الأمن الوطني الذي أشار عليه بإحالة نسخة منه إلى وزيري الإعلام والداخلية، وسبق رئيس الوزراء الجميع في مهاتفة وزير الحرب مرشح الرئاسة وروى له أشهر النكت بين الضحك والدموع والاستغراب المصطنع:

ـ قال لك إيه.. إن مكافأة نهاية الخدمة لعزرائيل هي قبض روح الريس..

بعد فاصل من الضحك، والتريقة وضع للنكتة دلالتها:

ـ شوف يا أفندم.. الناس لم تكن تتصور أنه سيموت.. لدرجة أن جعلت ملاك الموت يعتزل بعد قبض روحه.

استزاده وزير الحرب فزاد بالنكتة الثانية:

ـ بيقولك الرئيس الأمريكي والرئيس الفرنسي ورئيسنا ماتوا وطلعوا للسماء، سألوهم إيه الحاجة اللي إنت سبت شعبك فيها وحاسس إن شعبك سيتذكرها لك بالخير؟ الرئيس الأمريكي قال: «الشعب الأمريكي سيتذكر لي بالخير أنني تركته شعبًا حرًّا». وقال الرئيس الفرنسي: «الشعب الفرنسي سيتذكر لي بالخير دائمًا أنني تركته شعبًا عظيمًا». وقال الرئيس بتاعنا: «الشعب بتاعي يحمد ربنا أنني مت وتركته عايش!».

واصل رئيس الوزراء يثرثر بعد النكتة:

ـ تصور يا أفندم شوف النكتة، يعني مجرد إنه ترك شعبه حيًّا لم يعدم أو يمت نكدًا وقهرًا، مجرد إنه عايش خدمة عظيمة له من رئيسنا السابق.

طهق وزير الحرب من محاولة تفلسف رئيس الوزراء فقال له:

ـ أنا لا ألحق أضحك على النكتة حتى تلقي عليَّ محاضرة، والنبي احكِ لي النكتة المتبقية من دون تعليق.

رد رئيس الوزراء ربما يشبه اللوم والتقريع المخفي:

ـ أصل فيه فرق بين إلقاء المنولوجست للنكتة وإلقاء رئيس الوزراء.

ثم قرر أن يتراجع حتى لا يفهم وزير الحرب معنى يسوؤه من كلامه. فأضاف ساخرًا:

ـ المنولوجست أحسن طبعًا.

وبسرعة واصل نكتة:

ـ بيقولك الريس لما لقى «رقيب وعتيد» واخدينه على السما خلاص ح يتحاسب، قرر يرشيهم فرقاهم «عميد وعقيد». وأيضًا بيقولك: لما دخل الرئيس جهنم طلب يتفرج على برنامج «صباح الخير يا جهنم».

ضحك وزير الحرب كثيرًا ثم قال:

ـ دلوقت ممكن تبرطم بالفلسفة اللي إنت عايزها..

لكن رئيس الوزراء نقل لهجته إلى لهجة الأهمية والخطورة:

ـ ما الأخبار لديك؟

ـ أين؟

ـ في الوزارة؟

ـ تعبئة كاملة واستدعاء الاحتياط وتكاتف ممتاز وروح وطنية لم أرها من قبل.

قرر رئيس الوزراء أن يشكه بشوك بذلة القنفذ التي يرتديها فقال:

ـ ربنا يكمل بالستر ويعطيك الصحة كي ترى هذه الروح تسري في البلد كله.

وجود العساكر في الشوارع وظهور دبابات في بعض الميادين وكثرة عبور الطائرات فوق سماء العاصمة على مسافة قريبة؛ كل هذا كان رغبة

من وزير الحرب بعد إعلان ترشيحه أن يضمن وجوده حيًّا في قلب حياة البلاد، وكان استعراض قوته يغطي أنباء مرضه وعمليات القلب المفتوح التي أجراها والتي بدأت تتناثر في الأجواء، وربما كان وراءها محاولة ما من ابن الرئيس لإثارة أي زوابع، وقد قفزت إلى مخيلته صورة الطبيب الباكستاني الذي أجرى له العملية الأخيرة، وخشي أن يجري خصوم البلد إليه في محاولة لسبر أغوار مرضه، فأرسل له وسيطًا شخصيًّا من ضباط مكتبه يطلب منه ألا يتكلم مع أي من وكالات الأنباء أو الساسة أو المسؤولين عن ظروفه الصحية، وقد عاد إلى وزير الحرب وسيطه يعرب عن ارتياحه لأدب وطاعة الطبيب الذي أكد أنه لا يتحدث عن أسرار مرضاه أبدًا، لكن الطبيب اتصل بنفسه في صباح اليوم التالي ولاحق وزير الحرب حتى عثر عليه تلفونيًّا وسأله برعشة لم يخفها تماسكه الصوتي الظاهر:

ـ هل استوليت يا سيادة الوزير على قرص الكمبيوتر الخاص بحالتكم الصحية؟

استيقظت كل حواس الوزير وانتفض قلبه الكليل:

ـ إطلاقًا.. ما هذا الكلام؟

رد عليه الطبيب ورنة الخطر تتكئ فوق حروف كلماته:

ـ إذن يجب أن أنبهك إلى أن أحدًا استولى على ملفك الطبي من الكمبيوتر الخاص بي وبالمستشفى.

حين اتصل وزير الحرب بوزير الإعلام كي يتدارس معه خطة حصار شائعات المرض، كان الأخير قد فوجئ بمديرة مكتبه تخبره بأن الرئيس المؤقت للبلاد يريد مقابلته، قال لها:

ـ حاولي أن تتهربي بأي حجة.. أعطيه موعدًا ثم الغيه قبل الموعد بساعات.

نظرت إليه مديرة المكتب مسلوبة تمامًا:

ـ لا أستطيع!

اضطرب من ردٍّ لم يتوقعه، لكنها عاجلته بما لا يتوقعه لا هو ولا هي:

ـ إنه ينتظر في الخارج، في أنتريه مكتبك.

لسعه الخبر، فقام مذعورًا من مقعده إلى الأنتريه الملحق بمكتبه وهو يرفع صوته بحماس جلي النفاق:

ـ معقولة سيادة الرئيس يطلب إذنًا للدخول لمكتبي.. أنت تضرب الباب بقدميك وتدخل.

رد عليه رئيس المحكمة العليا بجفاء لا لبس فيه:

ـ لا ح اضرب باب المكتب ولا ح اخبط.. كل ما أريده..

سارع وزير الإعلام:

ـ اتفضل يا أفندم الأول.

ثم صرف مديرة مكتبه وأخذ بيد رئيس المحكمة العليا ودخلا إلى مكتبه، لكن رئيس المحكمة العليا كان لا يزال على إيقاعه الغاضب:

ـ أنا أعرف تمامًا أن وضعي مؤقت، بل أنا في موضع لم أكن أريده ولم أسع إليه ولم أفكر فيه.

بلهجة ودودة يرد:

ـ مفهوم.. مفهوم.

يواصل الرئيس المؤقت:

ـ لكن طالما شاءت الأقدار، فلا بد من احترام الشكل الدستوري يا سيادة الوزير سواء في الظاهر الإعلامي أو في الباطن الإداري والسياسي.

استهبل وزير الإعلام وتخابث:

ـ لا أفهم يا سيادة الرئيس.

قام من فوره الرجل وقال كمن يبلغ رسالة إلى الجميع:

ـ من الطيب جدًّا أنك تتذكر أنني الرئيس، وأن هذا الوضع المؤقت يسمح لي بإجراء تغييرات وإعادة تشكيل، ووضع أمور في غير موضعها الذي اعتادت عليه.

وبسرعة صافح وزير الإعلام وبلهجة رسمية:

ـ أشكرك على وقتك الثمين.. ووداعًا.

مضى حين كان استدعاء وزير الحرب، فارتبك وزير الإعلام وأحس أن هذا البلد لم يعد كما كان «قرد وهو يعرف طرق ملاعبته»، كان يستعد للانصراف حين فاجأه رئيس التلفزيون بدخول في غير موعد، تحمل فضلات السياسة واستمع له وهو يقول:

ـ يا سيادة الوزير، جاءني تقرير من الداخلية يطلب مني إعادة بعض برامج قنوات التلفزيون، حيث لاحظوا أن الناس انصرفت إلى القنوات الأجنبية، وأنهم ضجوا بالأفلام الدينية والتاريخية.

قال الوزير:

ـ ماذا أذعنا منها حتى الآن؟

ـ كلها يا أفندم.. فيلم «عمر المختار»، وفيلم «ناصر ٥٦»، وفيلم «مصطفى كامل»، وفيلم «القادسية»، وفيلم «الناصر صلاح الدين»، وفيلم «وا إسلاماه»، وفيلم «وفاة الرسول».

تنمر الوزير:

ـ وفاة إيه.. إنت عايز تخرب بيتنا.. وفاة الرسول بمناسبة وفاة الرئيس!!

تراجع رئيس التلفزيون وهمس:

ـ في الحقيقة يا سيادة الوزير لم يعترض تقرير الأمن على فيلم «وفاة الرسول»، لكنهم سجلوا النكت التي خرجت على إذاعتنا لفيلم «جميلة بو حريد».

ـ نعم؟.. جميلة بو حريد...

ـ أيوه يا أفندم.

في زهق وضيق:

ـ وقالوا إيه يا سيدي؟

في رعدة سرت بصوته:

ـ قالوا طيب.. صلاح الدين وقطز وناصر وفهمناهم، إنما جميلة بو حريد ليه، ما هو إما الرئيس هو جميلة أو هو بو حريد.

ـ هل هذه هي النكتة؟

في خشوع قال رئيس التلفزيون:

ـ لا يا أفندم، النكتة إن الريس لما طلع السما قابل جميلة بو حريد بالصدفة فسألها: الواحد يشوفك فين دلوقت في الجنة ولا في النار؟ قالت له: لأ.. في القناة الأولى!

١٤

تمشي وحدها في النفق المؤدي إلى مكتب مستشار الأمن القومي، خطوتها الرجالية وملابسها المحتشمة المحكمة وحسمها الصارم، تقودها أفكارها إلى المشي مسرعة تخطف الطريق خطفًا، ذات مرة وقفت في الشارع وقد ضبطت نفسها تلهث من الجري، وهي تمشي سألت نفسها: لماذا الجري؟ قفز جلدها من عروقها.. ما الداعي إلى هذه العجلة.. لا موعد ينتظرني ولا تأخير يربكني، لماذا أجري هكذا في الشارع؟ هل لأن الشعب الأمريكي كله يجري أمامي فأجري وراءه؟

تذهب إلى محاضرتها مبكرًا وتنهي المحاضرة في موعدها، تلحق المترو أو لا تلحقه، فكل دقيقة عربة مترو قادمة. تصل منزلها لا أحد ينتظرها كي تبدو متأخرة عليه أو مبكرة من أجله، لِمَ العجلة؟

أربعون عامًا بالتمام والكمال عمرها، قضتها لاهثة مسرعة متعجلة، ثم ها هي الآن تسأل نفسها: هل الأمر كان يستحق كل هذا الجري؟

في السادسة صباحًا أيقظها رنين التلفون، سكرتيرة مستشار الأمن القومي اعتذرت عن هذا الاتصال المزعج المبكر، وأضافت أن مستشار

الأمن القومي يبلغها لو كان لديها في أي من ساعات النهار نصف ساعة يمكن توفيرها للقائه في أمر عاجل بمكتبه بالبيت الأبيض سيكون شاكرًا لها للغاية.. وافقت بين النوم واليقظة.. وها هي تخطو نحو مكتبه حين تعثر حذاؤها ذو الكعب العالي، كادت تسقط، ترنحت، استندت على الحائط، لحقت نفسها، لكن الكعب انكسر.. عظيم.. حدثت نفسها.. هذه هي العقوبة المنتظرة لها طبعًا بعد أن أصرت مع نفسها على ارتداء الحذاء ذي الكعب العالي الوحيد الذي تملكه، كل ملابسها وحاجاتها عملية رجولية في الغالب، لدرجة أنها كانت في حفلة ذات سهرة مع زوجها السابق فالتقى بها رئيسها صدفة فصرخ أول ما رآها:

ـ معقولة.. «ريتا» أنثى..

أربكها تعبير رئيسها الجامعي الوقور، وشعر هو أيضًا بأنه خذل صورته الأكاديمية فألحق بكلامه إضافة:

ـ آسف يا «ريتا».. لكنها أول مرة أراك في ثوب الأنثى الجميلة المهتمة بنفسها..

ابتسمت على الرغم من غباء تعبيراته.. استنجد هو بآخر من زملائهما في الحفلة:

ـ ألا ترى يا صديقي أن دكتورة «ريتا» تخفي وراء جديتها العلمية امرأة ساحرة الحسن.

هذه آخرة السحر والحسن، الكعب انكسر، لدرجة أنها عندما وجدت في وجهها سكرتيرة مستشار الأمن القومي صرخت في وجهها بانفعال لا ذنب لأحد فيه:

ـ إما أن أستعير حذاءك أو أدخل لمستشار الأمن القومي حافية.

ولما لم تتمكن من ارتداء حذاء السكرتيرة، قررت الأخيرة أن تحل الموقف بطريقتها، فكسرت كعب فردة الحذاء الأخرى، وربتت على كتف دكتورة «ريتا»:

ـ الآن.. تفضلي فهو ينتظرك.. ومع معرفتي لشخصيته وطريقة عمله فإن هذا يعني بالنسبة لي إما أن الموعد موعد غرامي وإما موعد للتخطيط لجريمة قتل.

كان يجلس في المقعد الخلفي لسيارة سوداء تطلق نفير الشرطة كل لحظة بمناسبة وبغير مناسبة، على يساره ضابط شرطة بملابس مدنية وشارب بوليسي ولا شك ممتلئ بلحمه وبذاته، وأمامه بجوار السائق يجلس ضابط آخر نحيف ومهذب وكأنه يتولى شيئًا في العلاقات العامة لفندق أو وزارة.

كان يعرف أنه من المستحيل أن يحصل على معلومات منهما فإذا كانا يعرفان فإنهما لن يقولا، وفي الأغلب فهما لا يعرفان، مجرد حارسين يستمعان للتعليمات ويتبعان الأوامر، آخر ناس في الدنيا يمكن أن يوافق على أن يراهم هؤلاء الذين يراهم مرتين منتظمتين في الأسبوع، حيث يعطي محاضراته في كلية الشرطة. عندما طلبوا منه أن يضيف إلى عمله بكلية الحقوق أن يدرس بشكل منتظم مادته في كلية الشرطة، انقبض واغتم، لكن الخانع داخله حسم الأمر لصالح مزيد من الخنوع فوافق، واليوم حين كان ينتهي من درسه أمام مئات من طلاب الشرطة بزيهم البوليسي ورؤوسهم الحليقة وعقولهم الحليقة، وفي اللحظة التي كان يدرك أن محاضراته وأفكاره سوف تضيع تمامًا من رؤوسهم أمام أوامر

وتعليمات رؤسائهم، وأن ما يُعلمه لهم من قانون واحترامه وقواعده ومواده وروحه لا مكان له في صحراء قلوبهم أمام العنف والقسوة والشراسة والتهاوي الأخلاقي الذي سوف يتلبسهم بمجرد أن يلبسوا نجمة الشرطة على أكتافهم.

وفي هذه اللحظة دخل إلى المحاضرة هذان الضابطان، وانتظرا لما فرغ من ختام محاضراته، وتمشيا معه في الممر وهما يلقيان عليه ما تم تسجيله في صدرهما من صوت:

ـ سيادة الوزير يريد لقاءك حالًا في مكتبه.

وكان يعرف أن «حالًا» هذه معناها أن يحملاه لو رفض في قفص ويذهبا به إلى الوزير، لم يكن في نيته أن يتملص أو يرفض (متى تملص من شيء أو رفض؟) فركب معهما ومضى إلى البناية المهيبة الدائرية الصفراء حيث يرهبها الناس، ويخشاها الأبرياء قبل المذنبين، ويغشاها الأبرياء قبل المذنبين. سلمه الضابطان لضابط آخر في مدخل البناية:

ـ دكتور يوسف يا أفندم.

صعد معه الضابط الجديد إلى مصعد، انفتح فسلمه إلى ضابط آخر:

ـ دكتور يوسف يا أفندم.

صافحه الضابط الآخر ومشى معه في ممر طويل وهو يقول كلامًا مقصودًا منه ملء الوقت فاتسع الوقت أكثر مللًا. نزلا إلى سلالم صغيرة في زاوية الممر، وانفتح باب يؤدي إلى صالة كبيرة تؤدي إلى باب له جهامة فخيمة انفتح فسلمه الضابط إلى ضابط آخر:

ـ دكتور يوسف يا أفندم.

أفندم.. كان يبدو «أفندم» فعلًا، قادني بابتسامة وترحيب إلى باب انفتح بعد أن طرقه ودخل بي على مكتب الوزير الذي كان بعيدًا في نهاية الغرفة المتسعة الفسيحة التي تحتوي على صالون ومائدة اجتماعات، ثم مكتب الوزير الذي يحتل نصف عرض الغرفة تقريبًا، وقف الآن لتحيته وقال:

ـ دكتور يوسف أهلًا أهلًا.

كان في انتظارها عند الباب حين رفعت قدمها لتضعها في الحذاء الذي كسرت السكرتيرة كعبه، خرج فرأى المشهد فضحك وهو يرتدي رابطة العنق على القميص الأبيض بالبنطلون الرصاصي الواسع:

ـ خير يا دكتورة «ريتا».. هل هذا استعراض لأحدث الأحذية النسائية.

ضحكت على الرغم من حرجها:

ـ الصناعة الأمريكية مهددة بالضياع يا سيادة المستشار.

صافحها وهو يفسح لها بالدخول إلى مكتبه وقال:

ـ ألن تكفي عن الهجوم على الرأسمالية يا دكتورة؟.. إنك من ديناصورات اليسار الأمريكي.

ردت بجلاء:

ـ أنا أُفضل أن أكون ديناصورًا في متحف على أن أكون ثعبانًا في مكتب بالبيت الأبيض.

قهقه مجاملًا لها أو متحاملًا على نفسه:

ـ هذا ما قلته للرئيس.. إن دكتورة «ريتا» قطة شرسة لن نسلم من خربشاتها.

ـ القطة تخربش من يحاول أن يؤذيها.

لاحقها:

ـ ومن يحاول أن يداعبها أيضًا.

في المساحة بين الجد والهزل قالت:

ـ أهو لقاء غزل؟

قهقه مرة أخرى هذه المرة أمينًا مع طبيعته:

ـ وهل يجرؤ أحد على مغازلة دكتورة «ريتا».. إنني لست على هذه الدرجة من الطموح.

ثم وضع حدًّا للثرثرة ودخل إلى الجد مباشرة:

ـ لقد وقع اختيار الرئيس عليك لتمثيل أمريكا في لجنة محايدة تتولى التحقيق في جريمة اغتيال رئيس جمهورية بالشرق الأوسط.

ثم بدأ يحكي لها.

جلس أمام الوزير وهو يحاول أن يتواضع إلى درجة لا تواضع بعدها.

عاش عمره يسير جنب الحائط حتى زهق الحائط فتحرك ودخل هو فيه.

قال الوزير في إحساس بالمسؤولية مبالغ فيه:

ـ منذ فترة ونحن نتابع نشاطك يا دكتور يوسف.

بهت يوسف وسارع مربوكًا يجيب:

ـ أنا عمري ما كان لي نشاط سياسي أبدًا.

ارتبك الوزير بدوره:

ـ أنا لم أقصد النشاط السياسي.. أنا أقصد النشاط العلمي.

كان الوزير يلعن المهمة في سره ويسأل نفسه إيه بقى اللخبطة دي، لكنه قال للدكتور يوسف:

ـ دكتور يوسف.. ألا تفكر أن تكون عميدًا لكلية الحقوق؟

ـ لأ.. لا أفكر.. لا أريد أي منصب في الحقيقة.

ـ لماذا؟

ـ أنا راهب عِلم.. كفاية عليَّ التدريس في الجامعة وكلية الشرطة والجامعات العالمية ومؤتمرات القانون والإشراف على رسائل الدكتوراه والماجستير.. إن هذه هي مهمة العالم الحقيقي.

دخن سيجارًا وأخرج دوائر غليظة من الدخان وهو يسأله:

ـ ألا تفكر في خدمة بلدك؟

استفزه السؤال، لكنه طوى إحساسه بجهل الوزير تحت جلده وقال:

ـ أليس العلم خدمة لبلدي.

أحس الوزير بغبائه فأكد:

ـ طبعًا.. طبعًا.. أنا أعرف أنك رجل وطني يا دكتور يوسف.

كان دكتور يوسف يريد أن يقول له إنه ليس في حاجة إلى شهادة منه بالوطنية، لكنه لم يواجه مسؤولًا من قبل حتى رئيسه في القسم يتحاشاه.. فلم يرد الآن، لذا سكت وتمتم بعدها:

ـ شكرًا.. شكرًا.

رسم علامات الأهمية على علامات استفهام سؤاله:

ـ دكتور يوسف.. ما رأيك في خطوات انتقال السلطة الآن بعد وفاة السيد الرئيس؟

ـ الله يرحمه.

ـ الله يرحمه ويرحمنا جميعًا.. أكنت تحبه؟

رد دكتور يوسف مرهقًا حقًّا:

ـ أنا لم أجب على السؤال الأول حتى ألحق أن أجيب على السؤال الثاني.

ـ صحيح.. ما رأيك في انتقال السلطة سلميًّا؟

ـ شيء جميل.

ـ تفتكر كده؟

ـ الحقيقة...

لكن دكتور يوسف توقف على أن يكمل الحقيقة.. كان يريد أن يقول في الحقيقة إن انتقال السلطة سلميًّا هو الشيء الطبيعي، لكن ليس هناك أي ضمان لانتقال السلطة مدنيًّا وسلميًّا في دول العالم الثالث.. وأنه يرى

تحت السطح صراعًا بين ديدان السلطة، ثم في الحقيقة إن انتقال السلطة إلى وزير الحرب أمر عسكري تمامًا ليس فيه انتقال سلمي أو مدني أساسًا.

لكن ـ بطبيعة الحال وبطبيعة دكتور يوسف ـ لم يقل أيًا مما أحس به، اكتفى أن يقلق من مجرد أنه أحس به.. ثم صمت.

فهم الوزير أن ثمة شيئًا في داخل هذا الرجل، فسأله بشكل مباشر:

ـ هل كنت تحب الرئيس؟

رد في سرعة:

ـ ولماذا أكرهه؟

ـ تحبه.

ـ الحب والكراهية مشاعر يشعر بها العشاق وليس العلماء.

قرر أن يرمي وزير الداخلية الآن بالسر في وجه دكتور يوسف:

ـ شوف يا دكتور ـ لقد اخترناك كي تمثل بلادنا في لجنة مشتركة مع الولايات المتحدة الأمريكية للتحقيق في جريمة اغتيال رئيس البلاد.

تسمَّر تمامًا.. بُهت وصمت وسكت ثم صار على مهل يحاول أن يمضغ كل كلمة قالها وزير الداخلية قبل أن يبلعها.. قبل أن يعيها.

لكن الوزير بدأ يحكي له.

١٥

فتح الضابط الباب بدورة مفتاح ثلاث مرات ثم التفت إليهما وقال:

- إلى هنا انتهت مهمتي.. عندما تنتهيان اضغطا على رقم ١١٢ في قرص التلفون سوف أعود لإصطحابكما.

ومضى بمنتهى الأدب وبمنتهى البرود وهو يتحرك مبتعدًا.

قالت له «ريتا» بعامية أفضل سلامة من عاميته:

- تسلم إيدك.

لم يلتفت الضابط لامرأة تحمل وجه خواجاية وترتدي جلبابًا نسائيًّا تنطق بعامية غامضة المصدر، ربما أصيب بالصمم كما لقنه رؤساؤه وهم يطلبون منه أداء هذه المهمة، الوصول بشخص اسمه يوسف يصحب سيدة إلى غرفة نوم الرئيس ويتركها وينصرف حتى يأذنا له بالعودة.. قبل ذلك وبعده.. أنت أصم.

أدارت «ريتا» المقبض الذهبي للباب الخشبي الذي لا تبذل جهدًا لمعرفة أنه تكلف كلفة أثاث شقة متوسطة بالكامل.. مدت قدميها ودخلت ووراءها يوسف برهبة ابن البلد الذي لم يكن يفكر أبدًا أنه سوف يدخل

غرفة نوم أحد رؤسائه، بل ربما ظن ـ كأهله في قرى هذا البلد ـ أن رئيسهم لا ينام بعد أن تأكدوا أنه ربما لا يموت.

صحيح أنه ليس في مقدرة سيدة مثل «ريتا» أو غيرها من الأمريكيات أن يدخلن غرفة نوم الرئيس الأمريكي ـ إلا إذا كان غرض كليهما ليس مناقشة سياسية ـ إلا أنه يمكنها أن تشاهد غرف نوم الرؤساء السابقين أو اللاحقين، يمكن أن تدخل إلى البيت الأبيض وترى كيف يعيش رئيسها، لكن القدر يكتب عليه الآن أن يرى كيف يموت رئيسه.

أنار الغرفة واكتشفا معًا أن الإضاءة الكاملة لكل زوايا الغرفة ـ لنسمها الجناح أدق ـ تحتاج ساعة كاملة من اللف والبحث عن أزرار النوم أو عن فهم تقنيات الريموت كنترول المسؤول عن كل هذه المصابيح.

التفتت له «ريتا»:

ـ غرفة نوم رئيسكم أكثر فخامة من غرف نجوم هوليوود.

انسحب يوسف من لسانه وقال:

ـ طبعًا.. إن تمثيل رؤسائنا أكثر إحكامًا من نجوم هوليوود.

التفتت إليه مستغربة:

ـ ما هذه الشجاعة المفاجئة.. إنني أصحبك وأنت صامت كل هذا الوقت وتعاملني كأنني مخبر أرسلته حكومتكم للتجسس عليك أو الإيقاع بك في أي مصيبة في أثناء هذا التحقيق.

لم يتكلم.. سكت.. اكتفى بتأمل ملامحها التي انتفخت من الحماس والغضب.. أضافت هي:

ـ اسمع.. سياسة الصمت التي تنتهجها لن تنفع معي.. أنا لا أتحمل الهدوء البارد.. ثم لاحِظ نحن نحقق في اغتيال رئيسك، لسنا مساعدين لـ«شرلوك هولمز» في لغز هزلي.

تجاهلها إلى الحد الذي يمكن أن تعتبره حرق دمها الحامي.. عرف أنها هيستيرية الحماس والانفعال عندما رآها لأول مرة في المطار، اتصلوا به وأخبروه بأن سيدة تحمل اسم «ريتا جيفرسون مكربي» سوف تحضر مساء على طائرة أقلتها من نيويورك، وأنها هي التي ستشترك معه في اللجنة السرية للتحقيق، كانت التعليمات واضحة ـ وتأكد أنها وصلت أيضًا إلى «ريتا» ـ أي مكان أو شخص تريدان اتصلا برقم تلفون معين سوف يرد عليكما ويجري اللازم، وفيما عدا اللقاءات الرسمية والأشخاص الذين ستحققون معهم لا أحد يعرف عنكما شيئًا، تصرفا كأنكما عاشقان في جولة سياحية.

أول ما عرف أنها سيدة.. انقبض واكتأب.. وسرى في سره «هيه الحكاية ناقصة نسوان كمان».. كان يشعر أن المسألة كلها فخ للإيقاع به لتوريطه في كارثة، وكان متأكدًا أن دولته ـ وحتى أمريكا ـ لا تريد أن تعرف أكثر مما تعرف وأنها تريد لهذا التحقيق نتيجة محددة وإلا لماذا تستعين الدولتان بهواة من سلك التدريس الجامعي كي يحلوا لغزًا عصيًّا ومرعبًا مثل اغتيال الرئيس في غرفة نومه.. أفهمه وزير الداخلية أن كل الجهات والأجهزة أجرت وتجري تحقيقاتها، وإذا أرادا أن يطّلعا على أي شيء فهو تحت أمرهما.. لكن النتيجة التي سوف تعتمد أمام المحاكم ـ إن وجدت نتيجة أو وجدت محاكم ـ هي ما وصلت إليه اللجنة المستقلة المشتركة.

لم يستنزف نفسه في توقع شكل لها. فقط انغرس في ورطته دونما حماس، هناك عشرات النساء القادمات على الطائرة، كلٌّ وصلن، وترك الموضوع كله للصدفة حتى اقتربت منه سيدة شابة (فيما بعد عرف أن عمرها أربعون عامًا) نحيفة وبيضاء، وذات وجه صابح غير مكدود وغير مجعد، ضحوكة وعصبية حتى الهوس، شعرها ملموم للخلف من دون بذل أي جهد في تسريحه، أسود لا يخلو من خشونة، نظارتها تشي أنها تكره العدسات اللاصقة وعبئها، تريد فقط أن ترتدي النظارة أو ترميها جنبها على السرير من دون حاجات للاستعدادات والتجهيزات الطبية المعقدة للعدسات، صدر أربعيني وأحمر شفاه خفيف وكفان تحملان صفات الجنسين من النعومة والخشونة، العظام البارزة، أو اللحم الملفوف بلا خواتم أو طلاء أظافر، لم تحمل غير حقيبة صغيرة على كتفها.. قالت له:

ـ دكتور يوسف رضوان.

هز رأسه مندهشًا أنها هي التي تعرفت عليه وليس هو.

صافحته بحرارة وعرفت نفسها:

ـ دكتورة «ريتا جيفرسون مكربي».

كانت تتكلم لغة عربية طليقة، فأراد أن يجاملها عندما ركبا سيارته:

ـ اللغة العربية التي تتكلمين بها جيدة جدًّا وفصيحة للغاية.. أين تعلمتِها؟

ابتسمت:

ـ غريبة.. الأجهزة المحلية لم تعطك أي بيانات عني.

ثم أخرجت ملفًّا كرتونيًّا أخضر عليه رسم البيت الأبيض وفتحته، كانت صورة فوتوغرافية له وثلاث صفحات بخط كبير من الكمبيوتر:

ـ لقد قدموا لي ملفًّا عنك من المؤكد أنه غير كامل، لكن كان يكفي أن أعرف أنك لست حكوميًّا، ومن ثم فوجئت بأن الحكومة لديكم قد احترمت اتفاقها وجاءت بشخص مستقل أو بلا تاريخ سياسي كما يقول التقرير.

حاول أن يخفي دهشته، لكنها ضحكت:

ـ لا تندهش.. ليسوا عباقرة لدينا إلى هذه الدرجة، إن الحكومة لديكم أمدتهم بمعلومات وهم أضافوا عليها من إحدى موسوعات القانون.. إنك أستاذ حقوق شهير يا دكتور.

غطس في إحساسه بالورطة.. حتى قطعت هي الصمت (طول الوقت تتحدث بحماس وانطلاق كأنها في رحلة إلى الآثار):

ـ أنا جعانة.

أجابها وهو يضع سدودًا وحدودًا أمام بساطتها واقتحامها:

ـ سوف نصل إلى الفندق بعد دقائق.

شخطت فيه:

ـ فندق إيه.. أنا لا آكل أكل الفنادق، يمكن أن ترميني في أي شارع في وسط البلد وأنا سوف أتصرف.

كان عليه أن يتصرف بشهامة، فقال:

ـ وهل هذا ممكن.. طبعًا سوف أصحبك إلى مطعم قريب.

في صباح اليوم التالي حين نزلت من غرفتها بالفندق رآها ترتدي جلبابًا شعبيًّا من زي تراث هذا البلد، مشغولات من الخيط الذهبي على الأكتاف وعند أساور الأكمام، ورداء فضفاض وألوان زراعية، ثم مشغولات فضية في سلسلة معلقة على صدرها:

ـ متى أحضرت هذه الأشياء؟.. لقد تركتك ليلًا تذهبين للنوم في غرفتك.

قالت له:

ـ كويس جدًّا أنني أثرت فضولك، لقد ذهبت إلى محل جلاليب في منطقة قريبة وصفتها لي عاملة في الفندق، ذهبنا معًا في الحقيقة واتعشيت مرة أخرى في الشارع على عربات طعام فوق الأرصفة.

تيقن ساعتها أنها مجنونة ولا بد أن يأمن حماقتها.

عندما ركبا السيارة في اتجاه القصر الرئاسي، قالت له وهي تغلق جهاز الكمبيوتر الخاص بها:

ـ أنا لا أفهم كيف تكون أستاذ حقوق ولا تنطق بكلمة كل هذه السنين ضد ما يحدث في بلدك وما يفعله رئيس مجنون وحكومة فاسدة؟ كيف تصبر على هذا السكوت؟ أفهم أن تكون منافقًا، ولكن أنت لست كذلك كما أعتقد، أفهم أنك تريد مجدًا أو منصبًا أو نفوذًا، لكنك يا مولاي كما خلقتني، حتى إنك لا تعمل بالمحاماة، إذن لماذا

عشت خائفًا هكذا؟ لماذا نام ضميرك؟.. يا راجل ولا كلمة للطلبة في محاضراتك، ولا حرف في أي ندوة أو مؤتمر.. إيه اتخرست.. ولّا اتعميت قبل ما تتخرس؟

قالت كل هذه الكلمات مندفعة ومتوترة وقرفانة منه.. ولزم هو الصمت كأنه القدر.

حاولت أن تهدأ الآن، جلست على طرف سرير الرئيس، أحست بمجرد ما وضعت مؤخرتها أنها تنزلق في ريش نعام (تراهن أن أحدًا ممن عرفتهم في حياتها لا يستطيع أن يصف ريش النعام).. حاولت أن تجره.. مترًا من الود:

ـ دكتور.. هل يمكن أن تصف لي إحساس النوم على ريش نعام؟

فوجئ بتحولها، لكنه أدرك أنها مجنونة فتعامل مع تحولاتها بهدوء:

ـ الحقيقة قرأت عنه في الكتب، سمعت عنه في الأمثال الشعبية كثيرًا عندنا، لكن أنا لا أعرف حتى النعام بدقة.

جلجلت بضحكتها:

ـ يا دكتور أنت راس نعامة كبير.

أحس أنها أهانته ـ على نحو عدائي غامض الدافع ـ وأحست أنها جرحته فلزمت صمت المذنبين مكسوري العين.

تجاوز دكتور يوسف النصل الذي تشهره في وجهه منذ التقيا وقال:

ـ هل غرفة النوم على حالها منذ جرى الحادث أم غيروا فيها ترتيب أشياء أو تعديل أثاث؟

انتفضت من السرير برشاقة:

ـ ملاحظة رائعة.

ثم أضافت وهي تجول فاحصة بعيونها المكان، السرير، الدولاب، الأنتريه الصغير، والتسريحة الملكية، السجاجيد، الطهرانية، لوحات الحوائط، سرقتها لوحة في زاوية ما، اقتربت ناحيتها وهي تتأوه:

ـ أووه.. محمود سعيد.. لوحة أصلية لمحمود سعيد.

هذه المرة نجحت في إثارة استغرابه، إلى هذه الدرجة تعرف فنانًا مثل محمود سعيد، لكنه التفت ناحية لوحة أخرى:

ـ وهذه لا تقل عنها أهمية.. إنها أصلية لعبد الهادي الجزار.

ضربت على صدرها بكفها:

ـ مستحيل رئيسكم كان يعرف مقدار أهمية هذا الفن.

قال وهو يدور حول نفسه:

ـ أظن أنهم أفهموه أنها حاجة غالية جدًّا وثمينة، لهذا وضعها في حجرة نومه حتى يراها هو ولا يشاركه فيها أحد آخر، اقترب من لوحة عبد الهادي الجزار طويلًا حتى شعرت أنه ينقشها في عينيه، لكنه مد يده إلى تحت اللوحة تمامًا حيث تعلق جراب نحاسي مُطعم بالأحجار الكريمة في تحفة ماهرة الصناعة.

أمسك بالجراب المعلق، ثم سألها وهو يعطيها ظهره:

ـ ألم يقتل الرئيس بخنجر؟

مس السؤال مركز الجنون في مخها، صاحت:

ـ نعم.

التفت إليها:

ـ هل لديك ورقة بمواصفاته أو صورة فوتوغرافية له؟

صرخت فيه مستثارة تمامًا:

ـ لا.. الأوراق سوف تصل ليلًا إلى الفندق، لكن يمكن أن نطلب ما نريده.

قال في هدوء من لا يعنيه الأمر:

ـ عمومًا لا نريد أن نتسرع في الاستنتاج.. ممكن ألا يكون الخنجر المفقود هو الخنجر المستخدم في عملية الاغتيال؟

أخذت تتكلم وهي تدون في مفكرتها بالإنجليزية وبحروف ضخمة تأكل الصفحة:

ـ لو لم يكن هذا الخنجر هو المستخدم في عملية الاغتيال، فأين الخنجر المعلق على الحائط؟.. مستحيل يكون الرئيس أخذ هدية عبارة عن جراب فقط، دا يبقى رئيس هزق، وهل معقولة يكون الخنجر اتسرق وهو لا يعرف؟ صعب جدًّا.. إلا إذا...

أكمل فورًا:

ـ إلا إذا كان قد تمت سرقته بعد عملية الاغتيال، خصوصًا أنكِ تلاحظين أن الغرفة فعلًا مرتبة ونظيفة والسرير زي الفل، واضح

أن المرتبة والوسائد والأغطية والملاءات المغطاة بالدم قد تم التحفظ عليها.

ردت في حماس:

ـ ثم أريد أن أعرف تاريخ إهداء هذا الخنجر ومن أي دولة، وهل مواصفاته موجودة في سجل الأشياء المهداة إلى الرئيس؟

جلس بلا تفكير على مقعد، فنهره إحساس الموت ورهبة غرفة نوم الرئيس فقام واقفًا قائلًا لها:

ـ حيلك.. حيلك.. أشك تمامًا في وجود مثل هذه السجلات عندنا، إن الرئيس يهدي ما يشاء من دون أن يسجله أحد، ويتلقى من الهدايا ما يشاء من دون حتى أن يعرفها أحد..

حاولت أن تداعبه فهتفت ضاحكة:

ـ طبيعي يحصل في البلد كل ده طول ما النعام سارح فيه.

وخبطته في صدره! إنها تقفز الحواجز وتحطم الحدود على نحو يستفزه، لم تجد هذه الخبطة في صدره إلا الدهشة.. وتعاملت هي مع دعابتها اللفظية والبدنية على أنها جرت مع صديق.. تنهدت وصرخت منفعلة وهي تتجه نحو الباب:

ـ لا بد أن نقابل الآن أمين الرئاسة.

وافقها برأسه، لكنه أوقفها بكفه:

ـ لحظة.. أليس من الأفضل أن تطلبي شرائط الفيديو المسجلة لحركة الأمن ليلتها في القصر؟.. أعرف أنه لا توجد في جناح الرئيس

كاميرات، لكن سوف تستفيدين أكثر لو رأيت المناطق المحيطة بجناحه ليلتها.

ـ يوسف أنت تتحدث لي كأنني المسؤولة وحدي عن التحقيق.

بعد أقل من نهار معًا رمت لقبه وتعاملت باسمه!

ـ أظن أنك أنت الرئيسة؟

ـ لماذا؟

ـ أنت الخبيرة..

ـ لماذا تعتقد أنني الخبيرة وأنت الهاوي.. أما زلت ترى أنني من المخابرات الأمريكية.. أم لمجرد أنني قادمة ممثلة للحكومة الأمريكية؟

لم يُجب حيث اكتفى بالفرجة عليها، صرخت فيه:

ـ آه.. إنت جاي تطلع دين أمي.

قالتها كأنها خارجة توًّا من الحارة التي تقع خلف بيت عائلته، عادت تحاول أن تدلق ثلجًا على سخونة كلماتها:

ـ اسمع يا يوسف.. لماذا لم أحاول أنا أصدر لك إحساسًا باعتقادي أنك تعمل لحساب وزارة الداخلية، وأنك مجرد جاسوس مطلوب منه أن يعطلني عن الوصول إلى الحقيقة؟

عندما سمع كلمة «الحقيقة» أدرك أنها تصدق المسرحية التي تلعب بطولتها، فحاول جاهدًا أن يكون صريحًا:

ـ أظن أنهم أحضرونا لنتمم أوراقًا وتقفيل ملفات وليس للبحث عن الحقيقة. فضلًا عن كارثة الوصول إليها.

هزت رأسها بحركة عصبية كأنها توافقه، ثم تكلمت بسرعة كأنها تلاحقه:

ـ أشكرك على ردك الصريح أخيرًا، وعلى واقعيتك أيضًا، لكن أنا مصممة إذا كانوا يريدون هذه اللجنة كوميدية أن أقلبها ميلودراما وتراجيديا عنيفة على دماغهم.. كل ما أحتاجه أن تكون معي كما كنت اليوم بملاحظاتك الفذة، وأرجو أن تغتر قليلًا فأنا لا أصف ملاحظات كائن من كان بأنها فذة سوى ملاحظاتي أنا فقط.

ابتسم.. فأخافها استخفافه.

١٦

انتشر الحرس في كل مكان حول المقبرة، وُضع قبر الرئيس فوق تبة صناعية مرتفعة أحاطوها بنجيل جاهز التركيب، وزرعوا نخلات جلبوها من وزارة الزراعة على عجل، كان الموت مفاجئًا، ولم يكن الرئيس يفكر أبدًا في موته، فلم يأت على ذكر إعداد مقبرة له، أو مكانها، أو شكلها أو أيًّا ما كانت تفاصيلها، وبطبيعة الحال لم يكن قد ترك أي تعليمات أو وصايا (حيث تكون تعليمات الحي في حياته تعليمات بينما تتحول في مماته وبعد وفاته إلى وصايا) حول شاهد القبر؛ ما الذي يكتبونه عليه، وهل هناك آيات خاصة من القرآن الكريم يريد أن توضع على رخام شاهده، أم مقولة له أو لغيره يتمناها علامةً على حياته بعد مماته.. لهذا جاء كل شيء خاص بمقبرته إبداعًا واختراعًا، أراد أمين الرئاسة في البداية أن يقيم المقبرة في المساحات الشاسعة حول القصر الرئاسي، لكن وزير الداخلية رفض بحجة واضحة، أنه يريد الوصول بمواكب زوار المقبرة الرسميين في أقصر طريق وبأسرع وقت، وأن توضع مقبرة الرئيس على بُعد ٤٠ كيلومترًا من العاصمة، معناه أن يتحمل حراسة رئيس أجنبي داخل العاصمة ثم خارجها كل

هذه المسافة كي يضع باقة على قبر الرئيس. لم يقتنع أمين الرئاسة بهذه الحجة، لكن الذي أقنعه كان مدير جهاز الأمن الوطني الذي رأى أن وضع مقبرة الرئيس السابق بجوار مقر الرئيس الحالي أمر يثير الضغائن والمشاكل، فاقتنع أمين الرئاسة. أمسك ثلاثتهم بخريطة حديثة للعاصمة وأخذوا يتنقلون بأصابعهم وأسنة أقلامهم على ألوان الخريطة وأشكالها بحثًا عن مكان، حتى صادف وزير الداخلية مساحة خالية خلف استاد كرة القدم الرئيسي في العاصمة، قال:

ـ من يملك هذه الأرض؟

رد أمين الرئاسة:

ـ لا أعرف بالضبط، ربما وزارة الشباب.

أومأ وزير الداخلية:

ـ يعني ابنه!

رد أمين الرئاسة:

ـ أنت تتحدث كأن ابنه سوف يستمر وزيرًا للشباب إلى الأبد.

حرك وزير الداخلية رأسه علامة للنفي:

ـ حد ضامن إلى متى يعيش وإلى متى يعيش كرسيه.. ما أقصده أنه لن يثير الآن مشاكل حول الأرض، إنها مسورة جاهزة، من الليلة نبدأ العمل فيها لتنتهي بعد ٤٨ ساعة، وقبل الجنازة حتى ولو بساعات.

قال مدير الجهاز:

ـ هل تطلب من وزارة الحرب استخدام معداتها من أجل بناء المقبرة فورًا؟

ضحك أمين الرئاسة على الرغم من أن الاجتماع كله حول دفن جثة:

ـ ما أعز هذا الطلب على قلب وزير الحرب.

جاوبه كلاهما الابتسام.. لكن مدير الجهاز حاول أن يسد ثغرة بدت له:

ـ لكن المقبرة في حاجة إلى رسم هندسي.

عاجله وزير الداخلية:

ـ رسم هندسي إيه بس.. دا أي حانوتي ولّا تربي في البلد يعملها في دقيقة.. حفرة وفوقها متر ولا اثنان أسمنت فوق الأرض متغطي بقطعة جرانيت كبيرة وشاهد رخام مكتوب عليه الاسم والتاريخ.. وشوية زهور على نجيل جاهز على كام نخلة من وزارة الزراعة بقت مقبرة رئيس.

ولم تمنع هذه الفوضى أن تكون المقبرة على قدر من الجمال والراحة فعلًا، فقط تم هدم أحد الأسوار المحيطة بالساحة حتى تصبح مفتوحة على الشارع الرئيسي وكان العمال يشتغلون ليلًا ـ بعد الدفن ـ في نصب احتفالي كبير في مدخل الساحة بناء على رغبة ابن الرئيس، الذي حضر الآن مع رئيس وزراء اليابان الذي كان قد تخلف عن حضور الجنازة، ونظرًا لأهمية البلاد كمستهلك ضخم للمنتجات اليابانية آثر أن يجاملها بحضوره ولو متأخرًا عن الجنازة ليقوم بواجب العزاء بنفسه.

وكان على رأس الوفد المستقبِل له أمام الجنازة وزيرُ الحرب،

وكان في صحبته المسؤول الياباني ورئيس الوزراء أيضًا الذي دخل بهيئة متزنة ومبتسمة على غير ظهوره الباكي يوم الجنازة، أخذ ابن الرئيس في حضنه وكأنهما لم يتبادلا منذ وفاة الرئيس إطلاق النار كلٌّ في صدر الآخر.

انتشر الحرس حول المقبرة التي بنيت فوق تبة من الرمل صنعتها المحاريث الحديثة ورافعات وزارة الحرب وعند المسافات الفاصلة بين النخيل، وحول أسوار المقبرة، وفوق أسطح الاستاد الوطني الذي يكشف المقبرة من فوق حيث يراها من يجلس على أعلى مدرجات الدرجة الثالثة حين ينظر خلفه، وقف رئيس الوزراء الياباني وقد انطلقت فرقة الموسيقى العسكرية بزيها الأبيض في الأسود وأبواقها النحاسية وطبولها باعثةً الرهبة في عزف سلامٍ للموتى. وضع رئيس الوزراء الياباني إكليل الزهور يشاركه في حمله ضابطان من خرس الشرف، وبينما قرأ مسؤولو البلاد الفاتحة مهموسة على روح الرئيس الذي لا تزال جثته دافئة في قبره، كان المسؤول الياباني صارم الملامح مطرقًا بنظراته إلى الأرض، يتمتم شيئًا لعله تعاويذ من ثقافته اليابانية، انتهى العزف والتف المسؤولون حول ابن الرئيس ووزير الحرب حتى باب سيارته السوداء التي ستقله مع رئيس وزراء البلاد إلى المطار حيث يقوم بمراسيم توديعه الرسمي.

حين مضت السيارة، أخذ وزير الحرب ذراع ابن الرئيس تحت إبطه وضمه إليه ووقفا فتثبت المشهد تمامًا من حولهما، الضباط والحرس والفرقة الموسيقية العسكرية وبقايا الوفد الياباني، وعدد متناثر من صغار الموظفين والحرس الشخصي التابع لكل مسؤول كبير موجود من مسؤولي البلاد.. بادره وزير الحرب:

ـ كيف حالك الآن يا ابني؟

رد الآخر في لهجة من يعرف هذا الحوار:

ـ نحمد الله.. الخسارة كبيرة لكن هذا قضاء الله.

ـ صحيح.. ربنا يعوض هذا البلد خيرًا عن هذا الفقيد العظيم.

ـ بالمناسبة أنا أعتذر أن المقبرة لا تليق بفقيدنا الراحل، لكن ظروف الوقت وعدم الاستعداد لمثل هذا الخبر كانت وراء تواضع المقبرة.

ـ لا تقل ذلك.. إنها مقبرة عظيمة.. ثم ليس المهم أن تليق المقبرة بالفقيد، المهم أن يليق خليفته به.

لم يطمئن وزير الحرب للهجة، صحيح أن قواته في كل أرجاء البلد، وحضوره ماثل للجميع رادعًا عن أن يدع أي منهم خياله يسرح به، إلا أنه لم يرتح للهجة.. فيها غصة ما، فيها إيحاء، إيماء، تمنى أن يضبط أعصابه عن الرد عليه بما تمليه عليه رتبته، لكنه قال:

ـ وما رأيك في خليفته يا ابني؟

تعمد أن يقول «ابني» بأداء يوحي بالتدليل كأنه يعامل طفلًا.

ابن الرئيس أسرع في إجابته يغطيها بابتسامة وظلال دمعة:

ـ والله لو كان الله قد حرمني من رئيسي ووالدي في نفس الوقت، فإنه يعوضني بك عن الوالد قبل الرئيس.

ارتجف قلب وزير الحرب حتى كاد يبكي مصدقًا لما ألقاه ابن الرئيس بين يديه، فرد بأحسن منها:

ـ أما الوالد فلدينا ما يعوضه من حب وحنان ورعاية لك، أما الرئيس فلا نملك حكمته ولا رؤيته ولا قدرته، ونسأل الله أن يوفقنا إلى الاقتداء به.

وغمرت المشاعر المصنوعة طبيعة الاثنين، فاحتضن أحدهما الآخر أمام الجمع مما جعل البلد كله يفهم أن وزير الحرب قد ضمن رئاسة بلا منغصات: دباباته في الشوارع، والأمريكان لم يتذمروا من اسمه، ومسؤولو البلد في خدمته، وابن الرئيس أعلن بيعته.

كان هذا بالضبط ما يدور في بال وزير الحرب وهو يتجه نحو سيارته يتقدمه حرسه ويحيطه مرؤوسوه من الضباط. انفتح باب السيارة مع نفخ بوق الفرقة الموسيقية العسكرية التي بدأت في لحن حماسي لاهب حين دخل وزير الحرب إلى مقعده وارتكن إلى مسنده وزفر زفرة راحة، لكن أحد ضباطه سلم إليه ظرفًا أصفر وقال:

ـ هذا الملف جاء بشكل عاجل لسيادتكم بالبريد السريع من بلجيكا، ورأينا لغرابته أن نقدمه لسيادتك بسرعة بعد التأكد من أمانه وخلوه من أي مفرقعات.

أمسك وزير الحرب الظرف وحضنه بسرعة وفتحه بلهفة، فسقطت منه صور أشعة قلبه وصور شهاداته الطبية ومعها قطعة ورق صغيرة فرَّت من الظرف إلى أرض السيارة، فانحنى يحاول التقاطها فنهج ولهث وانفطر عَرقه، فأسرع ضابط حراسته بالتقاط الورقة من الأرض وهو يتساءل:

ـ خير يا أفندم حاسس بحاجة؟

نفى برأسه وأشار بيده أن يسيروا بالسيارة. أعطوا التعليمات للسائق فانطلق، حين كان وزير الحرب يقرأ قطعة الورق الصغيرة المكتوبة بالإنجليزية بخط الكمبيوتر وبلا توقيع:

ـ هذه صور من محتويات ملفك الطبي.. نتمنى لك السلامة.

١٧

أيقظته من عز النوم وأعزها راحة، في تمام الثالثة والنصف صباحًا رن جرس التلفون فاقتحم منامه وهز سكونه، مد يده إلى السماعة وهو يعرف ـ في كل الأحوال ـ أن رنة تلفون في هذا التوقيت، في هذه الأيام السوداء، تعني مصيبة أخرى ترتمي على دماغه.

كانت هي على الطرف الآخر، فعرف أنها مصيبة أشد مما توقع:

ـ أيوه يا دكتورة.

ـ إنت صاحي؟

ـ اتهببت صحيت.. خير؟

ـ انزل ضروري إلى لوبي الفندق أو آتي لك في غرفتك.

تنبه تمامًا:

ـ لا في عرضك أنا نازل.. لكن ما هي الضرورة في إتمام اللقاء الآن.. أمامنا أربع ساعات والبلد كله يصحو، نتكلم على الإفطار.

بصلف استعماري:

ـ لأ.. انزل حالًا.

وفي استسلام سكان أرض محتلة:

ـ حاضر.

شدته تقريبًا من رابطة عنقه نحوها في المائدة حينما نزل ووجدها ضاربةً نصف علبة سجائر ودخانًا يشتعل في صدرها، وكأن إنذار حريق الفندق سوف يدق حالًا، قالت:

ـ كيف جاءك نوم بعد لقاء أمين الرئاسة؟

رد هازلًا:

ـ جاءني النوم بعد اللقاء لأنه زارني قبله وكان كابسًا على نفسي طول الحوار مع أمين الرئاسة حتى إنني غفوت فاتح العينين أمامه.

اعتبرت ما يقوله سخفًا مقصودًا منه استفزازها فواصلت من دون أن تقف عند أي نقطة في حروفه:

ـ ألم يقل لنا الآتي..؟

ثم فردت ورقة كانت مطوية في جيب جلبابها وواصلت:

ـ إن أحدًا لم يلتفت لكون الخنجر الموجود في جسد الرئيس هو نفسه الخنجر الهدية المعلق على الحائط، ومن ثم لم يلتفت أحد لكونه كان مختفيًا أول ما دخلوا أم لا؟

كان الجرسون قد جاء له بفنجان قهوة سادة وتبادلا النظرات التي كانت تعني ـ أمام حماسها وصراخها ـ حوارًا سِريًّا بينه وبين الجرسون معناه:

ـ كان الله في عونك يا بيه.

هذه هي نظرة الجرسون.

ـ شفت يا عم آخر المشي وراء النسوان.

هذه هي نظرة دكتور يوسف.

ـ يا عم قوم اضربها قلمين ولّا ارميها تحتك على السرير.

هذه هي نظرات الجرسون الأخيرة وهو يصب القهوة، رفع دكتور يوسف رأسه إليه قال يعني يقول له شكرًا وقال بنظراته:

ـ أضربها.. يا عم اتنيل.. هذه تَضرب مثلي، وسرير إيه؟ لا أحد يسكّت هذا النوع المزعج من النساء حتى في السرير.

بعدما مشى الجرسون، ضربته دكتورة «ريتا» على كفه بغيظ:

ـ خليك معايا.. قاعد تبص على الجرسون كأنه زميلك في الجامعة ومتنكر.

كان يبدو أنه لا أحد في الدنيا قادر على أن يجعله يتخلى عن شراء دماغه.. قال لها:

ـ أنا معك بدليل أنني ضد كلامك.

ـ يعني إيه؟

ـ لازم تفكري أن أمين الرئاسة لم يكن من أوائل الذين دخلوا غرفة نوم الرئيس وليس آخر واحد دخلها.

ـ صحيح.. لكن هذه هي نفس أقوال الجميع.. جميع من دخل إلى الغرفة.

أجابها بهدوء قاتل:

ـ ومن قال إن كل ما يتفق الجميع على قوله صحيح؟

صرخت متهللة:

ـ يا ولد، ما هذا التمرد.

وأكملت من دون أن تترك له فرصة لاستيعاب تصرفها:

ـ المؤكد أن الخنجر ليس موجودًا في غرفة الرئيس، ثم الخنجر المتحفظ عليه موجود في مبنى الأمن الوطني، ثم إنه لا توجد أي مواصفات نعرف بها أن هذا الخنجر الموجود في أحراز القضية هو نفسه الخنجر الذي كان في غرفة الرئيس.

ـ لا أفهم.. اشرحي مع مراعاة أنني نمت ساعتين فقط.

ـ سأشرح مع مراعاة أنني لم أنم حتى هاتين الساعتين.. لو جاءوا الآن وقالوا هذا هو الخنجر الذي قتل به الرئيس.. وهو نفسه الخنجر الذي كان موجودًا في غرفته.. ليس أمامنا إلا أن نصدقهم لأن البيه رئيسك المقتول لم يكن يسجل له أحد هداياه.

قال كأنه أمسك بزمارة رقبتها:

ـ آه.. شفتِ.. ألم يكن من الأفضل أن ننتظر ونرى مسؤولي جهاز الأمن الوطني، ثم نقعد نثرثر في الأدلة والأسئلة؟

ـ شفت أنك لست ذكيًّا بما فيه الكفاية.. لقد رأيت مسؤول الأمن الوطني فعلًا.

اندهش دكتور يوسف وأحس أن أحدًا يقوده بخيط من فوق مسرح العرائس:

ـ متى؟ ولماذا بمفردك؟

كانت تعرف أن هذا سوف يطير النوم من عينيه، فصممت أن تصطاد النوم وهو يطير في عينيه فترميه بالمفاجأة:

ـ هنا في الفندق، ولدينا موعد معه بعد عشر دقائق من الآن، قال إنه ذاهب كي يقضي أمرًا سريعًا وسيأتي إلينا في المقهى الليلى للفندق.

ابتسم في خبث:

ـ ومن قال لك إن هذا الرجل هو رجل الأمن الوطني.. وأنه سوف يفي بوعوده؟

أحست أنه انتصر عليها فلم تكن تملك ما تجيب به عليه، أنقذها أن رجل الأمن الوطني كان جالسًا الآن بينهما تقريبًا، لم يلاحظًا أنه جلس في المائدة المجاورة فاتحًا جريدة أجنبية عن البلاد، ثم لف بمقعده دورة كاملة فكان ثالث المائدة مع دكتورة «ريتا» ودكتور يوسف.. وقال في أدب مبالغ فيه:

ـ صباح الخير.

زالت قوتهما تمامًا أمام هذه الحركة فارتدت شجاعة دكتورة «ريتا» لها في عدوانية شديدة:

ـ صباح الزفت.. إنت لازم توقع قلبنا.

أدرك يوسف أنه الرجل المقصود فصمت حتى يفهم رأسه من رجله.

أضافت دكتورة «ريتا» من دون أن تترك الضابط ينطق:

ـ وبعدين يا جدع إنت مش قلت لي إنك مندوب الأمن الوطني.. إيه صحيح الذي يثبت ذلك، ولماذا لم تنهدوا وتنتظروا حتى نأتي لكم في الجهاز؟

أخذته المفاجأة فدق بأصابعه على سطح المائدة وهو يقول:

ـ لو سمحتِ اهدئي يا دكتورة.. لم نشأ حضوركما للجهاز لمزيد من السرية التي يبدو أنه ليس لها أي أهمية لديك.. أما ما يثبت أنني مندوب الأمن الوطني فهو الخنجر.

فتحت فمها دَهِشة.. بينما كان يوسف يتحاشى فضح مشاعره:

ـ بتقول إيه؟

ـ الخنجر.. أليس الخنجر هو محل سؤالكم مساء اليوم لأمين الرئاسة، لقد اتصل بنا وطلب سرعة التعاون معكم، وبأوامر من رئيسي كلفت بهذه المهمة أن أرد على أي أسئلة لديكم فضلًا عن تزويدكم بملف تحقيقاتنا كاملًا.. لكن لديَّ سؤال أولي يا دكتورة: «هل ستطلبين أيضًا ملف تحقيقات جهاز المخابرات المركزية الأمريكية في هذه القضية؟ وهل سوف يحضرونه لك؟!».

صرخت فيه:

ـ طبعًا.. بالجزمة القديمة.. همه بس عاملين عليكم خواجات ومهمين.. لكن أمام الصحافة والرأي العام والفضيحة العالمية سوف يخضعون لكل طلباتنا.

رد عليها الضابط في أدب جم:

ـ أتعشم أن يكون تفاؤلك في محله.. أو تهديدك في قدراتك.

ثم أخرج ملفًّا من مقعد خلفه:

ـ هذا هو الملف.. أين الأسئلة؟

قررت أن تشرك أبا الهول الجالس جانبها، دكتور يوسف رضوان.

فقالت بشر حقيقي:

ـ اتفضل يا دكتور سفنكس.

دهش يوسف والضابط معًا، فكتمت ضحكتها:

ـ أقصد يا دكتور يوسف.. أليس سفنكس هو أبو الهول الصامت الذي لا يتكلم أبدًا مثل حضرتك في حضور مسؤولي بلدك.

تنحنح يوسف ورماها بنظرات كالشرر المنطفئ الذي لا يخيف، حيث إنه لا يشتعل وقال متمتمًا:

ـ كنا نتساءل هل هناك وسيلة للتطابق بين الخنجر الموجود في جثة الرئيس وبين الخنجر المُهدَى للرئيس من اليمن؟

قال الضابط بسرعة:

ـ لأ.. لم تكن موجودة أي وسيلة حتى تنبهنا لملاحظاتكم هذا المساء، وبالصدفة كانت هناك صورة تم التقاطها لأحد زعماء اليمن وهو يهدي الرئيس هذا الخنجر.. وقد كبرنا اللقطة والمكان الذي يظهر فيه الخنجر بكل تفاصيله الممكنة.. وقد وضعت هذه الصورة منذ دقائق في الملف.. كان سر تأخري هو الحصول على تكبير الصورة من مندوب سوف يلحق بي في الفندق.

تدخلت «ريتا» وهي تنتعش بهذه الخطوة:

ـ طيب بخصوص تقرير الطب الشرعي.

ـ ماله.

ـ مالوش.. أقصد هل هو موجود؟

رفع الضابط كتفيه:

ـ طبعًا.. في الملف!

سأل يوسف:

ـ من الذي كتب تقرير الطب الشرعي للرئيس؟

تأمل الضابط وجه دكتور يوسف قليلًا، ثم قال:

ـ هل يفرق من قام بالكشف على الجثة وتشريحها؟

رد يوسف متراجعًا ومترددًا:

ـ أبدًا.. هذا مجرد سؤال..

صرخت «ريتا»:

ـ لأ.. يفرق طبعًا.. هل هو جهاز طب شرعي مستقل أم تابع للجهاز؟

أجاب الضابط:

ـ لا يوجد هناك طب شرعي مستقل في أي مكان في العالم.. لا بد أن يتبع جهة ما.

تعالت عليه «ريتا» بوضوح لا لبس فيه:

ـ حضرتك لست ملمًّا بالعالم كله كي تتحدث بهذه الثقة.. ثم إنه ليس لنا دخل بالعالم الآن.. فالعالم لا يشهد كل يوم رئيسًا يتم اغتياله في سرير غرفة نومه.. من قام بالتشريح؟

قال الضابط في زهق ومرارة:

ـ لدواعي السرية الشديدة.. قام بالكشف الطبي طبيب تشريح يتعاون معنا، وهو من كبار أطباء البلد في هذا المجال.. وبالمناسبة لا يوجد لدينا أكثر من الأطباء في البلد كله، فمنهم ثلاثة أو أربعة كبار والباقي شبان بلا خبرة أو تجربة.

قالت «ريتا»:

ـ ولماذا لم تطلبوا من الأطباء الثلاثة إجراء الكشف معًا وتقديم تقرير جماعي؟

استهزأ الضابط بالسؤال:

ـ وبالمرة كنا ندعو مؤتمرًا صحفيًّا لمتابعة التشريح.

ردت «ريتا» بوقاحة رأت أن الضابط يستحقها:

ـ لا تستعجل على المؤتمرات الصحفية.. فهي قادمة قادمة.

حاول يوسف أن يجعل هناك نهاية لهذا اليوم الأسود من أوله، وخاصة أن ريحًا شديدة صفراء وترابية بدأت تعصف خارج نوافذ الفندق مع أضواء الصباح الخجلة والهزيلة:

ـ بالمناسبة يا حضرة الضابط.. ما هو موقف الحرس الشخصي الذين كانوا في نوبة الحراسة ليلتها؟

مقتضبًا قال الضابط:

ـ تم احتجازهم وأخذ أقوالهم ومواجهتهم بعضهم ببعض.. ولكن وزير الحرب أفرج عنهم وسيتم تنفيذ القرار بعد ساعة من الآن.

١٨

كان يريد أن يصعد لينام، وكانت هي تريد أن يستمرَّا معًا لقراءة الملف.

كان يوسف مرهقًا ومعذبًا باحتمالها فنَمَّتْ كلماته عن روح الاستغناء:

ـ يا ست هانم هوه فيه حد مسلطك عليَّ.. ثم إنت فاهمة إيه قضية اغتيال رئيس سوف تجدين حلها في عشرة عشرين ورقة تسلمها لك جهة لا أحد يعرف مدى تورطها، ثم اغتيال رئيس يا ست هانم يتحل لغزه في ثمان وأربعين ساعة ليه.. كانت سرقة فراخ من سطوح.. دا لو نشال خطف شنطة من ست على رصيف نيويورك احتمال يفضلوا يطاردوه عشر سنين على ما يلاقوه.. عايز أنام.. ثم أنا والله العظيم تلاتة ما أنا مهتم بمن قتل رئيسي، عارفه ليه؟ لأنه افرضي عرفت.. ماذا سأفعل له؟ ثم ليست المشكلة ماذا سنفعل بعد أن نعرف القاتل، المشكلة ماذا سيفعل القاتل بعد أن يعرف أننا عرفناه؟

ثم وقد لفظ روحه مع زهقه وإجهاده:

ـ اطلعي اتهدي نامي.. ثم سنتكلم بعدها.

وعلى عكس تلك الثورة المائجة في صدرها، إلا أنها شعرت أن عنفها يخذلها، فأدركت أنها تريد أن تنام، فسكتت لم ترد على ثورته المكدودة، فقط ربتت على كتفه وقالت:

ـ حاضر.. نستريح قليلًا.

ضحك على الرغم منه وقال:

ـ قليلًا لأ.. نستريح على قدر ما نقدر.. إن العالم لا يعرف أن الرئيس تم قتله أساسًا كي ينتظر أن يعرف من قتله.

وأضاف وهو يصعد في المصعد وتتبدل الأرقام حمرة مُعلِنة عن رقم كل طابق:

ـ ثم للمرة المليون يا ستي الدكتورة.. هم أحضرونا كي لا نعرف وليس كي نعرف.

زعقت فيه حتى ردد المصعد صداها:

ـ لأ بقى هوه أنا عشان سكت لك تحت ح تعمل فيلسوف عليَّ.. سوف نفك سر هذه القضية فقط كي نؤكد أن الشعوب ليست مغفلة.. وبكره.. بكره إيه.. بعد ساعات سوف تتفرج ماذا سأفعل مع المخابرات الأمريكية، سأتصل بواشنطن وسوف يرسلون تقاريرهم كاملة وحياتك حتى باب غرفتي.

الآن وقد وصلا باب غرفتها في الفندق وأخذت تبحث في حقيبتها عن الكارت الممغنط الذي يفتح الباب قال لها يوسف:

ـ من دون أن تغضبي مني.. اسمعي كلامي وارميه البحر، فيما يتعلق

بالمخابرات الأمريكية فإنهم سوف يتعاونون معك، ثم يرسلون لك تلًّا من الأوراق، عشرين كرتونة من التحقيقات لو أردت.. لكن هناك يدًا يمكن أن تحذف سطرًا واحدًا هو أهم من كل تلال الورق.

أما فيما يتعلق بأنك تحاولين إثبات أن الشعوب ليست مغفلة، فالحقيقة يا دكتورة أن الشعوب مغفلة.

ما إن انتهى كلامه وقررت هي أن تضربه تقريبًا، وجدا شخصًا بملامح أمريكية شقراء وبذلة سوداء كاملة ونظارة سوداء تقصد التخفي أو ادعاء الأهمية يأتي من نهاية الممر عند المصعد، ووقف قبلهما بمترين وألقى تحية الصباح بالإنجليزية ذات اللكنة الأمريكية التي لا مراء فيها. ردت «ريتا» واعتبرته سائحًا أو ضيفًا، لكن توجُّس يوسف كان له ما يبرره، فقد قال هذا الشخص:

ـ دكتورة «ريتا».

ردت مندهشة ومتعبة:

ـ نعم.

ابتسم وقال بشيء من التهذيب والروح الرسمية:

ـ سيادتك مدعوة للمجيء للسفارة الأمريكية في تمام الواحدة ظهرًا حيث جاءت شخصية مسؤولة مهمة من واشنطن وتنتظرك للحضور في السفارة مع شخص اسمه دكتور يوسف رضوان.

تركهما يوسف متجهًا نحو غرفته فصرخت فيه:

ـ يوسف.

أشاح بيده من دون أن يلتفت لها:

ـ أجلي الموعد.. أنا لن أذهب ولو انطبقت السماء على الأرض، أنا سأنام أربع ساعات، أحب أن أصحو بعدها فأرى زلزالًا قد هد هذا البلد.

نظرت إلى مندوب السفارة مبتسمة وقالت لها وروحها تطلع مع الكلمات:

ـ شكرًا لحضورك.

بعد أن أحنى رأسه تحية لها.. مضى مبتعدًا.

١٩

كانت نصيحة من وزير الإعلام وبدت في محلها تمامًا، حيث امتلأ صالون مكتبه في الوزارة بأكثر من عشرين رئيسًا وممثلًا للأحزاب في البلاد، إنها المرة الأولى التي يعرف أن في البلاد كل هذه الأحزاب التي يخشى أن يراجع أحدهم الآن معه أسماءها فلا يتذكرها، أو ربما يخلط بين الأسماء، وحين يتفحص وجوه هؤلاء يكتشف أن الذنب ليس ذنبه كاملًا، فهم أيضًا بلا ملامح تحفظ للمرء صورتهم بلا حضور وبلا بصمة، وأحزابهم ـ كأسمائهم ـ مجهولة مدفونة في توابيت هشاشتهم وتفاهتهم، لكنه كان سعيدًا بهم للغاية، تزغرد بالبهجة جوانحه المتعبة والمهدودة بفتحات القلب المشقوق، يعرف أن نجمهم في البلاد لا يغني ولا يسمن من جوع، وأنهم مثل بذرة جوافة بين أسنانك لو أتعبوك، ولو أيدوك فهم مثل حبة كريز حمراء فوق تورتة كاملة، إن بقيت حبة الكريز كان شيئًا لطيفًا، وإن غابت فلا طعم التورتة وتغيُّر لونها ولا قيمتها قد انخفضت.

لكن المظاهرات اليومية التي ترفع صوره وتنشد اسمه وتهتف به رئيسًا، والاحتفالات السياسية في المنتديات وقاعات البرلمان وقدوم

رؤساء الأحزاب حتى مكتبه، وصور رجل الشارع الذي يأتي في التلفزيون كل دقيقة يتحدث عنه أنه المهدي المنتظر ويعرب عن حبه ـ وحب رجال الشارع كلهم ـ للرئيس القادم، وأن البلاد في حاجة إليه بينما هو ـ هكذا قال أحد رجال الشارع مرة ـ ليس في حاجة إلى البلاد.. كل هذا بدأ يتسلل إلى عروقه، يركب كرات دمه البيضاء والحمراء، إن في نفسه أشياء كثيرة يريد أن يفجرها، أن يقولها، طول عمره يتلقى الأوامر، وأنه مهاب، وأنه ذكي وأنه قائد.. لكن عندما بدأ الترشيح والتأهب للرئاسة كان يخشى أن يكون الأمر ليس كما تعوده في الثكنات، حيث لا أحد يناقش أو يرده عن أمر (حيث ما يقوله أوامر وليس قرارات!).

وحيث الكل درجات مصفوفة بعضها فوق بعض، تصور أن الحياة المدنية شيء آخر، صحيح أنه كان يرى في ظل رئاسة الرئيس الراحل كيف يتمرغ المدنيون تحت أقدامه، إلا أنه كان يظن أن السر هو هذا العمر الطويل والخبرة الهائلة التي كان يتمتع بها الرئيس الراحل، وخاصة أن أحدًا طوال فترة وزارته لم يكن يلقي له بالًا أو يرمي عليه سلامًا حارًّا أو خاصًّا، ولم يكن يعتقد أبدًا أنه في يوم من الأيام يمكن لهؤلاء أن يحبوا حتى أقدامه زحفًا. لم يكن أحد ينظر له كإله أو نبي أو ولي، كانوا يلقون عليه تحية كمن يعبر بسرعة أمام فوهة بندقية خشية أن يفلت منها عيار أو رصاصة فتقتله خطأ، لم يسأله رئيس الوزراء يومًا رأيًا في موضوع، ولم يستشره وزير الإعلام في قضية، ولم يمتدح وزير الداخلية سياسته أو يسأله الرأي في أمر عارض أو ماثل.

الوزراء السياسيون من الأحزاب لم يكن أي منهم حتى يطلب منه خدمة أو يتوسط لديه من أجل قبول أو نقل أو ترقية أحد، كانوا يتصلون

بالرتب الصغيرة بالقيادات من تحته من دون أن يعرضوا أنفسهم لسؤاله.. هل كانت الخشية والرهبة، أم كان الإهمال والتجاهل؟!

الرئيس الراحل نفسه لم يكن يعره اهتمامًا أو يشغل باله كثيرًا، فين وفين على ما يسأله عن أخبار الوزارة، ثم يطلب منه الاستعداد، لأنه سوف يزور الموقع الفلاني أو التشكيل العسكري العلاني مع ضيف أجنبي، وسوف يكلمك أمين الرئاسة في التفاصيل، أو يتذكر الرئيس ذات مرة أن لديه وزيرًا للحرب حين يلتقي به في ممر نحو احتفال أو خطبة فيبتسم في وجهه ويصافحه بحرارة ويسأله عن أخباره، ثم لا شيء، ينساه تمامًا بعدها. لم يستدعه أبدًا ليسأله في الموضوع الذي يشغله، أو يخبره بما يعتزم القيام به، أو يشكو له مرؤوسيه ورجاله، وكل مرة يتردد اسمه في الخروج من الوزارة يخشى أن يخرج من الوزارة فعلًا، وفي كل مرة لا يتردد اسمه في الخروج من الوزارة يخشى أيضًا أن يخرج من الوزارة.

فلم يكن يشعر بالأمان، ربما فقط أيام ما زاد عليه المرض واشتد وكان لا بد من إجراء عملية تلو الأخرى حتى وصل إلى تغيير أربعة شرايين مسدودة في القلب، ساعتها أحس بالأمان، فالرئيس لم يستبعد وزيرًا مريضًا من وزارته حتى يموت بمرضه، فقد سبق أن كان هناك ثلاثة وزراء في العناية المركزة، بل استدعى مرضهم الثقيل أن يُنقلوا تباعًا وعلى مدى شهر إلى الخارج لاستكمال العلاج وبقيت مناصبهم قائمة على الرغم من أن تغييرًا وزاريًّا لحق بوجودهم في الخارج للعلاج، وبينما كان الوزراء الثلاثة أنفسهم ـ وخاصة أن المسألة تحولت إلى نكتة جارحة ومهازل سياسية ـ يستعدون عمليًّا لترك الوزارة ولمِّ أشيائهم، إلا أن الرئيس أصر عليهم ووقف بجوارهم في مرضهم وقال أكثر من مرة أمام أكثر من شخص:

- يعني لو أخرجت الوزير المريض من وزارته، مفيش حد ح يسأل عنه أو عليه، والوزارة سوف تتوقف عن متابعة أخباره، ولما يموت ح يبقى وزير سابق مات، لكن أنا سأقف بجانبه وسأجعله يستمر وزيرًا لغاية ما يموت بكرامته، وينزل خبر وفاته في الصفحة الأولى، أما لو كان قد ترك الوزارة فكان سوف يرتمي خبره في صفحة داخلية أو صفحة الوفيات.

المفاجأة أن الوزراء الثلاثة عاشوا واستمروا في وزارتهم وكانوا يوشكون أن يقبلوا يد الرئيس حينما كانوا يقابلونه في أي اجتماع أو احتفال؛ لذا فقد كان من بواعث أملي وراحة بالي أنه مرض، حيث يعني ذلك المرض بقاء أبديًّا في الوزارة حتى يموت، لكن في أثناء مرضه وعلاجه بالخارج، لم يحدثه الرئيس سوى مرة واحدة وأثنى على شجاعته وتمنى له الشفاء العاجل، أما باقي الوزراء، فقد كان يتلقى مكالمات مقتضبة بين الحين والآخر قضاء للمجاملة تنطق بثقل أداء الواجب أو باقات ورد من هذا المسؤول أو ذاك أو برقيات رسمية من جهات عليا، وقد احتج البعض من أنه لم يؤد الواجب لأنه لم يعرف، حيث إن خبر مرض وزير الحرب خبر سري لا تنشره الصحف ولا تتبادله الوكالات، أما اليوم فالكل حضور في حبور حوله يسمع قصائد من لغو الساسة، فبدأ زرع الألوهية ينزرع داخله، تسقيه فيضانات الكلمة التي ينقلها التلفزيون على الهواء.

شب ممثل حزب المعارضة الرئيسي ليقول:

- نحن هنا اليوم، الوطن كله والبلاد بطولها وعرضها، من كافة التيارات السياسية على شتى مشاربها ومنابعها، جئنا لهدف واحد، جئنا كرجل

واحد لرجل واحد، جئنا إليك أيها الفارس الشجاع القائد النبيل البطل المغوار السيف البتار، نور على أحبائك، وعلى أعدائك نار، جئنا نبايعك، كما بايع الأنصار رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه تحت الشجرة، نأخذ عليك العهد ونعدك بالازدحام أفواجًا على صناديق الاستفتاء، نكتب نعم ليس لك.. بل لنا، حيث إنك منا وبنا ولنا، لن نطلب منك شيئًا مما يتحذلق به المتحذلقون عن شروط لانتخابك أو مبايعتك، بل سنقول نحن نربأ على أن نشترط على من نحبه شيئًا، ثم نحن واثقون من رجاحة عقلك ورفعة رشدك ونقاء سريرتك ونفاذ بصيرتك، ومن ثم لن نطلب حتى تجيبنا، معاذ الله، ولكن سوف ننتظر حتى تمنحنا، فما عرفناك إلا أخًا كريمًا، وابن أخ كريم. كان قلب وزير الحرب يرفرف من السعادة من رنين هذه الكلمات.. التي فهمها كلها على عكس ما يسمع كثيرًا في بعض المؤتمرات من كلام مستغلق لبعض المثقفين لا يفهمه، ورغرغت عيناه بامتلاء الدمع وكاد يبكي سعادة مما أعياه وأجهد قلبه، فتحسس كعادته مساحة الجرح، طولًا وعرضًا، ومشى بأصابعه على مكان الخيط وكفه دائرة على صدره موضع القلب.. مكان الجرح، وكان لا بد أن يتكلم، فتكلم:

ـ هذه في الحقيقة المرة الأولى التي أسمع فيها لهذا السياسي المخضرم والأستاذ الكبير الذي يمثل واحدًا من أهم أحزابنا السياسية، ولا أريد أن أقول الأحزاب المعارضة، لأنه ليس عندي حزب حكومي أو حزب سلطة وحزب معارضة.. لأ.. كلنا وطنيون نخدم بلدنا، والحزب اللي في الحكم النهارده ممكن بكره يبقى في المعارضة.

أحس وهو يتكلم أنه متعب، لكن إدراكه أن الجملتين السابقتين ستكونان عناوين عريضة في صحف الغد جعله يتحامل على نفسه:

ـ أنا أقدِّر هذا الكلام العظيم وأتمنى أن أكون عند حسن ظن المواطنين جميعًا.. وأنا ما زلت أنتظر كلمتهم في صناديق الاقتراع كي نواصل الجهاد من أجل رفعة هذا الوطن.

اندهش وزير الإعلام، فوزير الحرب يقلده في طريقة كلماته، وفي كلماته شعر بالفخر أن تصريحاته عقب النشرات وفي نهاية اجتماعات مجلس الوزراء قد تركت بصمة في عقل وزير الحرب الذي سيصبح بعد أيام رئيسًا للبلاد، فإذا هو يتكلم بنفس طريقته في التأكيد على الأحرف الأخيرة ورفع الصوت مع أي كلمة عن الوطن، وأكل الكل في الكلام بحيث لا يترك أحدًا ليزايد عليه.. كان انتعاش وزير الإعلام خرافيًّا بهذه النتيجة التي وصل إليها.. إنه مدرسة.. صار مدرسة وأحد أنجب تلاميذها بعد عشرين عامًا من وزارة الإعلام هو الرئيس الجديد نفسه.

امتلأ الصالون عن آخره بالسياسيين وضباط التشريفة ومصوري التلفزيون وعشرات الصحفيين ومئات من المياه الغازية والمعدنية وباقات الورد الدائرية المنتصبة على أعواد من الخيزران، والأضواء تبلع المكان كله.

قام أحدهم وتنحنح وطلب الكلمة، لم يتعرف عليه وزير الحرب، فسأل همسًا وزير الإعلام الواقف خلفه:

ـ من هذا الرجل؟

همس وزير الإعلام:

ـ أمين عام حزب اليسار يا سيادة الرئيس.

قال وزير الحرب بصوت عال كأنه يعرفه فعلًا:

ـ أنا متشوق أسمع رأيك يا دكتور، نتمنى أن نحظى بثقتك.

رد الأمين اليساري متحمسًا ومبتسمًا ومداعبًا:

ـ لو سيادتك مش ح تحظى بثقتي.. مين بقى اللي ممكن يحظى؟

ابتسموا جميعًا وضحكوا، ثم صفقوا وانتشرت في المكان روح بهجة وقهقهة، وواصل الرجل في لهجة متبسطة مع وزير الحرب كأنه صاحبه منذ زمن:

ـ لأ.. دا أنا عايز أقولك حاجة بقى لازم نحطها حلقة في ودننا من النهارده ورايح.. أنك تحظى بثقة ورضا كل طوائف الشعب وتيارات الشعب وطبقات الشعب.

تصفيق حاد من الجميع وبكى الآن وزير الحرب فعلًا.. الدموع التي احتجزها منذ ساعات لم يقدر على مقاومتها، فبكى فالتهب المكان بالحماس فجأة وانهمرت عدسات الكاميرات على وجهه تصور لقطات دموعه وعلى حماس الأمين اليساري الذي علا صوته وجلجل في المكان كله:

ـ يا سيادة الرئيس إحنا ننتخبك كلنا.. وأنت ريسنا كلنا ماحدش له فيك أكثر من حد تاني، عشان كده عايز أقول للشعب كله إن المهمة صعبة وشاقة وحال البلد يصعب على الكافر، لكن عايز أقول للشعب وللعالم كله إنك قدّ المسؤولية وقدود، وإنك ح ترجع لهذه الأمة كرامتها وعزتها وعظمتها وكبرياءها.

لم يمنع وزير الإعلام نفسه من خنق مشاعره الكارهة للأمين اليساري من أعماقه فهو الوحيد الذي ينافق أحسن منه في البلد وتمتم في سره:

ـ يرجع للأمة كرامتها وعزتها وعظمتها وكبرياءها بأمارة إيه يا ابن القحبة.

أمام فيض الحماس والاندفاع نحو مبايعته أراد القلب المجهد أن يرتاح، فقال وزير الحرب:

ـ لا أعرف ماذا أقول أمام هذه المشاعر الفياضة الصادقة التي تغمرني بالفضل، والتي تضع في عنقي أمانة وعلى كاهلي مسؤولية أتمنى أن أؤديها على خير وجه، وأنا أتعهد لكم ألا أتخذ قرارات قبل العودة فيه إلى الشعب، وما أريد أن أؤكد عليه أنني لست باحثًا عن منصب أو جاه، ولكن قبلت هذه المسؤولية لأن شعبي شرفني بترشيحي لها، ولأنني فلاح تعلمت في قريتي أن الكفن مالهش جيوب، فإنني أرى أن مدة واحدة كفاية قوي في الرئاسة، وسوف أعتزل وأبتعد تاركًا للأجيال الجديدة التي أراها أمامي، (تجاهل أنه لا يوجد بني آدم من هذه الأحزاب أقل من ٦٠ سنة) مهمة رئاسة هذا البلد بعد أن نمضي بسفينتها إلى بر الأمان بإذن الله.

٢٠

كان النسر الأمريكي طاغيًا ومتوحشًا وهو معلق على هذا القدر من الارتفاع وبهذا الحجم الهائل على جدار السفارة الأمريكية. حينما تصعد درجات السلم وتنظر فوقك، تحس أن النسر سوف يضع مخالبه في أحشائك، أو سيرفعك بجناحيه إلى حيث أنيابه، رأسه بانحناءاته المفترسة وبشموخ الغابات وقوس أنفه يسلب أعداءه ما تبقى من ريش شجاعتهم.

«ريتا» نهرت يوسف لأنه حدق في النسر طويلًا وهما يصعدان السلالم في هذا المغيب الشرق أوسطي الكابي والكئيب، كانت قد اتصلت بمسؤول المخابرات الأمريكية وطلبت منه تأجيل الموعد إلى السادسة لأنهما لم يناما منذ الأمس، وافق بعد أن أكد لها أن طائرته سوف تقلع إلى نيويورك في العاشرة مساء، وأنه ليس في الوقت متسع لتأجيل آخر. كتبت «ريتا» عدة ملاحظات في مفكرتها، ووضعت ملف الأمن الوطني على الكوميدينو بجوار سريرها، لكنها سرعان ما قلقَتْ فوضعته تحت وسادتها، وأغلقت عينيها ونامت، نامت إلى حد أن

يوسف استيقظ وانشغل عليها فجاءها إلى الغرفة وطرق بابها، فتحت وهي نصف منومة فوجدته، دخل واستأذنته أن تأخذ حمامًا سريعًا، وأن يطلب هو فنجاني قهوة على ما تخرج، كان وجهها الصاحي من النوم صبوحًا على الرغم مما فيه من بلل وبلادة المنام، وكان حماسها يدغدغ هدة النوم ووخمه، كما كانت ترتدي «تيشيرت» أبيض محكمًا على خصرها فأبرز ثدييها بتشكيل الكمثرى، وبانت نحافتها مع لف البنطلون على مؤخرتها والتصاقه بساقيها، أما يوسف فكان قد ارتدى ملابسه الكاملة على نحو من يستعد لملاقاة حماه، خرجت من الحمام وقد ارتدت البرنس الأبيض وبللت شعرها دفعات الماء المنزلقة، داعبته:

ـ حاسب من تأملي فقد لا تملك نفسك من المقاومة.

ضحك وقال:

ـ تأكدي أنك في أمان كامل فكوني سعيدة بذلك.

ابتسمت:

ـ ومن قال إن هذا يدعو للسعادة؟

ضحكت وهي ترتدي جلبابها خلف ضلفة الدولاب:

ـ التحرش الجنسي يصيب المرأة بالصدمة، لكن التجاهل الجنسي يصيب المرأة بالاكتئاب.

رد عليها وهو يرشف فنجان القهوة على مهل:

ـ التحرش الجنسي يصيب الرجل بثلاث سنوات سجنًا، ولكن التجاهل الجنسي يضمن له أن ينام على سريره في منزله ليلًا.

أغلقت ضلفة الباب فظهرت بجلبابها الشعبي المطرز بنقوش ورسوم من موروث هذه البلاد، وقالت له وهي تسرح شعرها على عجل:

ـ أيهمك السرير أم من معك في السرير؟

رد وهو يقدم لها فنجانها من القهوة:

ـ يهمني الدولاب.

ثم استحثها للرحيل:

ـ ياللا لدينا موعد في السفارة بعد ربع ساعة من الآن.

نظرت إليه وهي تخطف رشفات من فنجان القهوة، ثم تبعده عن فمها وهي تشعر بالمفاجأة:

ـ من قال لك إن الموعد أصبح السادسة مساء.

ابتسم حتى امتلأت شفتاه بالهزل:

ـ أنتِ.. لقد اتصلت بي قبل أن تنامي.. تلاقيك فاكراه حلم.

دفعا الباب الزجاجي الذي أدى إلى باب آخر انفتح فجأة على رجل في الأربعين من عمره، بقميص مخطط ورابطة عنق محكمة على عنقه وبنطلون أسود واسع وعملي:

ـ أهلا يا دكاترة.

قال بإنجليزية فصيحة، أدخلهما إلى غرفة المكتب وأغلق الباب وراءهما، وبدأ في إعداد قهوة أمريكية يصبها لثلاثتهم، بدأت «ريتا» تدخن فأمسك بسيجارتها وهي تشعلها وأطفأها وقال لها:

ـ التدخين هنا ممنوع يا دكتورة «ريتا».

ثم فتح جهاز كمبيوتر شخصي صغيرًا على المكتب الذي يجلس عليه وضغط على زر ثالث فظهرت أمامه عدة سطور طبعها بسرعة وأخرج نسختين لـ«ريتا» ويوسف، تصفحا السطور، كانت عبارة عن جدول أعمال الجلسة.

بدأ يتكلم:

ـ سوف أتحدث في نقاط.

أول نقطة أننا نرى أهمية أن نولي انتباهنا لحراسة الرئيس ليلة اغتياله، لهذا أعددنا لكم ملفات لكل ضابط منهم، لاحظوا أنهم جميعًا تلقوا تدريبات في الولايات المتحدة، ومن هنا فكل المعلومات المتوفرة لديكم في هذه التقارير كاملة ودقيقة، صحيح أنها لم تفدنا في شيء حتى الآن.. لكن في الوكالة رأوا أهمية إمدادكم بها.

ثم أخرج عددًا من الملفات وأعطاها للدكتورة «ريتا» التي بادرته بالسؤال:

ـ لماذا لم تعطنا ديسك الكمبيوتر أفضل؟

أجاب بثقة:

ـ قلنا نوفر الوقت.

وأضاف:

ـ لكن عمومًا الديسك موجود تحت أمرك، ثم هناك ديسك آخر هو

بمثابة النقطة الثانية التي أريد أن أتحدث فيها وهي الكاميرات التي صورت ليلة الاغتيال، ممرات وطرق وساحات القصر الرئاسي وهي كثيرة جدًّا فيما عدا ـ طبعًا ـ جناح غرفة نومه الذي استثناه من المراقبة، وكل أحداث تلك الليلة التي تم تصويرها موجودة على هذا الديسك.

قدم لها الديسك الذي قدمته ليوسف الذي اندهش من تسليمها الديسك له، فهو لا يعرف في الكمبيوتر شيئًا حتى الآن ويبدو من أهم رجال الأمية العلمية في العالم القانوني.

قطع رجل المخابرات الأمريكية أي حوار داخلي في نفس أحدهما حين قال:

ـ النقطة الثالثة هي تقرير الطب الشرعي الذي كشف على الجثة، لقد رفضنا نحن أيضًا اعتماد تقرير لطبيب واحد مهما بلغت كفاءته، لكن تم الدفن على عجل ومن المستحيل عمليًّا إعادة الترشيح الآن.

قالت «ريتا»:

ـ لماذا؟

رد:

ـ الحكومة هنا اعتبرت هذا الطلب ضربًا من المستحيل، وأنها لن تعامل جثة رئيسها على هذا النحو، وأنه إذا بلغ أحد أن الجثة خرجت من قبرها لانهارت الحكومة.

«ريتا» ضحكت ساخرة وردت:

ـ وإذا بلغ أحد أن الرئيس تم قتله في غرفة نومه ألن تنهار الحكومة أيضًا؟

رفع الضابط كتفيه غير مبال بالملاحظة التي وجهتها «ريتا» واعتبرها ملاحظة موجهة لغير ذي صفة.

تدخل يوسف في الحوار بعد أن زجرته «ريتا» بعينيها على صمته، وشوحت بيدها له أن يتدخل في الحوار، قال يوسف:

ـ أريد فقط أن أسأل: «هل توصلت المخابرات الأمريكية في الأيام العشرة الماضية لأي نتيجة أو استنتاج؟».

قال الرجل:

ـ الإجابة: «لا».

ابتسم يوسف وقال:

ـ السؤال إذن: «وكيف تطلب منا أن نصل نحن إلى نتيجة أو استنتاج؟!».

ابتسم الضابط وتراجع بظهره للوراء:

ـ أنا لا أطلب منكم أي شيء.

ردت «ريتا» بعنف، كادت تطيح بجهاز الكمبيوتر في وجه الرجل:

ـ إذن لماذا أتيتم بنا إلى هنا؟؟ فُرجة!

أجاب الضابط:

ـ بشكل رسمي أنا مطالب بالكلام عما تكلمت عنه فقط، أما بشكل ودي وشخصي فلا بد أن تعرفا أن الإدارة الأمريكية سوف يتم سؤالها

اليوم أو غدًا، في الحاضر أو المستقبل، عن دورها في هذا الاغتيال، سواء من الكونجرس أو الصحافة أو إدارة جديدة، ويجب أن تحتاط للأمر، فاختارت لجنة مستقلة كي تبرئ ذمتها من أي تقصير أو أي إخفاء لأي شيء في القضية، ثم من قال إنكما لن تصلا لأي نتائج أو استنتاجات؟ لماذا كل هذا التواضع؟

شخصت فيه «ريتا»:

ـ نحن لسنا هنا كي تجاملنا.. عمومًا سوف ندرس ملفاتكم وملف الجهاز الوطني هنا وانتظروا منا تحديد موعد للاستفسارات والأسئلة وربما أيضًا طلبات جديدة، وإلى هنا نحن شاكرون تعبك.

وقال وهما يقفان:

ـ على الرحب والسعة.

اتجها ناحية الباب حتى أوقفتهما كلماته:

ـ بالمناسبة ما هي حكاية الخنجر التي شغلتِ بها الناس هنا يا دكتورة؟

التفتت صارخة:

ـ آه.. إذن كله فاتح على بعضه،

وقف وهو يوجه كلامه إلى دكتور يوسف رضوان:

ـ يا دكتور، هل تعتقد أن خنجرًا متحفيًّا وأثريًّا إلى هذه الدرجة معلقًا في جرابه على جدار منذ عام أو يزيد يمكن أن يكون حادًّا وطازجًا كل هذا الوقت حتى يسبب كل هذا العمق في جراحه وفتحه الغائر لبطن وصدر الرئيس؟

أجاب يوسف في اقتضاب:

ـ ومن قال إن السكين الصدئة لا تقتل؟!

ثم أطرق برأسه وهو يأخذ «ريتا» في يده نحو الخارج:

ـ عمومًا سوف نرى كل شيء ونحاول أن نعرف.

٢١

كل من في المدينة عرف أنها طائرته، منذ سنوات أسس أحدهم هذه المدينة لسكنى الأثرياء والأغنياء، كان شرط من ينضم إلى عقود الأملاك والملاك ألا يدخلها من هم دون الطبقة، من هم دون الغنى والنفوذ والأصل، إنه مكان للمكانة، كان هذا سبيل الولوج إليه والسكنى فيه، أن تكون من أصحاب الملايين، وأن يرشحك للسكن فيه صاحبا ملايين آخران. وبعد البدايات الأولى للمشروع صار علامة على أبناء الطبقة ومالكي مقاليد زمام المال والسياسة في عموم البلاد، وصار الانتماء إليه علامة في بطاقة هوية وإضافة في رفعة علوية، وبدأت الأسطح تستعد لاستقبال الطائرات الصغيرة بعد السماح بملكيتها في البلاد والطيران بها للسادة، كما تم بناء سور يحيط بالمدينة ويحكم إغلاقها أمام المتطفلين والعابرين، وخاصة أن ذيوع اسمها وبروق سكانها لفت إليها الأعين ولف حولها الأذرع. كان السور عاليًا (وهل الأسوار أسوار إلا إذا علت؟) باللون الأبيض الذي يتم غسله كل أسبوع بواسطة شركة نظافة متخصصة، وفي بقاع مختارة من السور تقبع أبراج مراقبة مزودة بأجهزة استشعار عن بعد وكاميرات بعيدة المدى وبنادق لإطلاق الرصاص الدخاني والمخدر،

وبوابات السور آلية ذات شفرات سرية وكروت ممغنطة، الشوارع تتعامد وتحمل أرقامًا وأحرف ووجوه السكان.

اقتراح إطلاق أسماء مفكرين وفنانين على شوارع المدينة قوبل برفض جذري عميق وملتاع بالعصبية، وقال أحد مؤسسيها:

- إنها مدينة لا ترتبط بوطن ولا رموز وطن، بل للعالم كله أقرب، وإنها مفتوحة لكل من يملك بطاقة هوية ذات شفرة تفتح البوابة كائنًا من كان.. الشرط الحازم الحاجز أن يكون في غنى من فيها ونفوذ من بها.

البيوت لا تعلو الطابقين، وبرسم واحد وبشكل مثبت، الشرفات واسعة ممتدة بعرض الطابق كله ونقوشها من رسم فرعوني فيه سموق وعزة، والأشجار موزعة في الجوانب وفي الواجهات، وخضرة مفروشة وبساتين وورد في أحواض مستطيلة (قيل إن فيها كل أنواع ورود العالم وزهوره وإن شركة هولندية ذات جذر مديد في هذا المجال هي التي صممت الأحواض وزرعتها ورعتها بالتعليمات والمشرفين المنتظمين)، باستثناء النفس الفرعوني في بعض النقوش، إلا أن المكان كان يوحي بالمثول في حضرة مدينة أمريكية ذات نسخ متكررة في بعض ضواحي عواصم العالم في هذه الآونة من التاريخ، ولكن ذلك لم يمنع أن تكون التماثيل الأصلية الموزعة في ميادين المدينة من صنع فنانين فرنسيين اشتغلوا خصيصًا لها، ولم يضع أي مسؤول عن المدينة أي شروط لموضوعات التماثيل، بل صارت معرضًا مباحًا غير متاح لجنون المثالين الفرنسيين الذين وجدوا طلة غنية على جنون الفن غير المكبوح.

وكان من سكان هذه المدينة أصحاب قبضة المال في البلاد، وعلى

الرغم من أن ابن رئيس البلاد لم يكن مالكًا رسميًّا لأي من تلك البيوت في المدينة، إلا أن الجميع كان يعرف أن له بيتًا باسم زوجته، لكن دواعي إخفاء السفور وشيء من الستر وراء عدم الإفصاح عن وجوده، ولكنه كثيرًا ما كان يُرى متمشيًا في شوارع المدينة أو جالسًا في مقهى من مقاهيها مع أحد رجال الأعمال، أو مع مليونير بارز في عالم الدولة والسلطة، وكان الكل يعرف مميزات طائرته من صوت مروحتها إلى مكان هبوطها، وإلى وجه طيارها، من ثَم فلم يندهش أحد حين أدركوا أن ابن الرئيس اليوم في المدينة، وأنه في صحبة شلة من ذوي السلطان المالي والاقتصادي المدوي في البلاد. كانوا في منزل «ن» الذي حرص على أن يلم أجنحة طائرهم الأسطوري من رجالات المال بعد وفاة الرئيس حتى يستدفئوا بعضهم ببعض ويتقوا بذواتهم وجماعتهم ويتباحثوا مسيرًا يسيرونه ومصيرًا يخططونه. كان «ن» سيد قبيلتهم وأغناهم وأصغرهم سنًّا، ولما اشتد حوار فيه مط وخلط عن ابن الرئيس في أول عهده بهم وبمالهم ومآلهم، قالوا إنه لا فضل له ولا مكانة ولا ميزة إلا كونه ابن الرئيس، فماذا يكون بغير أبيه؟!

ابتسم «ن» وشد أوتار حناجرهم حين قال:

- وما نحن إلا أبناء آبائنا، أكنا نظن - ومعظمنا في الخامسة والثلاثين إلى الخامسة والأربعين من عمره - أنه يمكن أن نرتفع ونرقى ونعلو وننمو في المال والجاه والشركات والبورصات والبرلمانات والوزارات إلا بما فعله آباؤنا المليونيرات من أموال صعدنا فوقها وقصور بنينا عليها ونفوذ قبضنا عليه وسلطان ارتبطنا به، وأن مجموع ما أسسه الآباء أكثر مما أسسه الأبناء حتى الآن، نعم نحن نضيف روح العصر ونضاعف تلال المال ونجري بخيول السرعة ونصعد الطلعة في

طلقة، لكن لا تنسوا مقابر آبائكم أو مقاعدهم في اعتزالهم الآن في يخوت لهم أو منتجعات سويسرية!

ولهذا فإن ابن الرئيس سوف يدخل معنا وعلينا، صحيح أن والده لم يقدم له مالًا، ولكنه قدم له مفتاح كل أبواب المال: السلطة.. سيدخل بوابتنا، لكن إلى أي مسافة سيمضي وإلى أي مساحة سيجتاز وإلى أي مدى ستتعب أكتافنا من حمله؟! هذا هو ما يستحق أن نسأله!! لكن في حينه.. ولكل شيء ميقات وأجل في عالم السلطة والمال، وكلما زادت حمولة الحصان قل احتماله وزاد احتمال ضياع الحصان والحمولة.

وعندما دعا «ن» لهذا المساء، لم يتأخر أي من رجال الدائرة، كانوا يشعرون في مجلسهم من صناعاتهم الشتى، من شركاتهم المختلفة، من بورصاتهم المتعددة، من أنشطتهم المتضاربة، من اختلافاتهم الشخصية والنسائية، إنهم هنا.. في هذا المجلس حيث يطلون من زجاج الطابق الأول لبيت «ن» على جنتهم التي زرعوها، أنهم يحكمون هذه البلاد.. وأنهم أمراء هذا الزمان، ولما كانت أعمارهم تسمح بنشوة جذوة المني المنفلت ذروة في الاشتهاء، كانت اللذة تبلل ببللها مشاعرهم العلية.

كان «ن» مصممًا على ألا يترك ابن الرئيس نسيرة لحم في فك التوتر والتوجس، وحين اتصل بهم وأكد عليهم ألا يُشعروا الرجل بخيفة، أو أن موت والده سوف يحوله إلى رقم خارج قسمة الحساب، وأن اجتماعهم الليلة لا شأن له بغير هذه الطمأنة، وخاصة أن هناك ما زالت حسابات معلقة وعقود مبرمة وأوراق مختومة وخزائن مغلقة؛ فلما دخل ابن الرئيس أشعروه أنه في بيته، وأن قلوبهم أكف راحة له، يعزونه ويقوونه ويدعمونه

ويعضدونه، كان بعضهم يشرب كحولًا، لكن آخرين كانوا متدينين إلى حد عدم اقترابهم منه بعد الحج، وعلى الرغم من أن أفضل حكاياتهم - جميعًا جاءوا من الحج أو نصارى - كانت عن النساء، إلا أن الليلة - على حسب ما قال أحدهم لابن الرئيس - لا كلام عن النساء، الليلة لك. لا شك أن كَدَرًا كان معلقًا بكل ملامح ابن الرئيس، وأن جرحًا مغموسًا بالملح مغروسًا بالرمح في صدره كان يئن به، وكان أنينه يرن في آذانهم يحاولون أن يخففوا من فداحته.

- كونك ابن الرئيس السابق شيء سيضعك دومًا على قائمة الاهتمامات، ستظهر في التلفزيون تصافح الرئيس الجديد وهو يزور قبر والدك في ذكرى وفاته، ستكون في استقبال الملوك والرؤساء الذين سيكون برنامج زيارتهم للعاصمة يشمل الفاتحة على قبر الوالد، ستتمكن من الكلام مع الوزراء في أي لحظة مستخدمًا اسمك حتى لو تغيرت وجوههم وأسماؤهم.

أضاف ثان وهو يتأمل حقيقة أنه لا أحد منهم يرتدي بذلته كاملة، وأن معظمهم بقمصان رياضية:

- لا تنس أنك أحد أعمدة الاقتصاد في البلد الآن، وأن حجم معاملاتك المالية ضخم ويتضخم، وأنك نافذ في كل أفرع وأرخبيل المال هنا، فلا قوة لأحد يمكنها أن تزيحك.. أما إذا كان نفوذ ابن الرئيس وسلطة الوزارة وهو ما ستفتقده فإن نفوذ المال يعوضها، ثم إنه لا يبقى إلا وجهه.

قال ثالث وهو يدرك الآن أنهم لم يحبوا ابن الرئيس أبدًا، لم يستطعموا كلامه ولم تتحرك قلوبهم نحو عاطفة الميل إليه أو خفق المودة نحوه،

وأنهم لم يضحكوا على دعاباته إلا مجاملة ولم يتبسطوا معه إلا رغبة في عدل موازين القوة، حيث بدت في حينها تعاني خللًا واختلالًا، ثم أخذ يتأمل وجوههم ليكتشف فجأة أنه لا أحد فيهم أسمر البشرة سوى ابن الرئيس:

ـ أريد أن أسألك: «هل أنت مطمئن إلى عقود الوزارة وإلى مناقصاتها ومزاداتها؟ لا تنس أنك كنت تملك أعلى مخصصات مالية لوزارة الشباب منذ عهدها الطويل، وأن الملايين التي صرفت لا بد لها من مسارب ومجار».

كاد يذوي سيجارة بين أصابعه حين قال ابن الرئيس متوترًا عاريًا من ضبط مشاعره:

ـ هذا ما أخشاه أن يصمتوا شهرًا أو حتى سنة، ثم يبدأون في فتح دفاتر الوزارة، أعرف أنهم كلهم ملطوطون، وميزانيات الوزارة خربة مثل غيرها من الوزارات، لكن ساعتها من يسمع ومن يفهم ويبقى الموضوع كله معمول حسابه كي يدخلوني السجن تحت دعوى تطهير الحكومة ومحاربة الفساد، وأنه لا أحد أكبر من القانون، وهذا الكلام الخراء الذي يظهر في بدايات كل حكم.

ابتسم «ح» ابن شقيق الرئيس السابق، حيث عانى والده من هذا «الخراء» في بدايات عهد والد المتوتر المتوجس الجالس أمامهم الآن، نظروا جميعًا إلى «ح» منتظرين تعليقه، الأمر الذي أدركه ابن الرئيس فقطع جملته هو الآخر فقال «ح»:

ـ الحقيقة هذه أمور إعلامية يبقى مقصود منها الفرقعة والدعاية فقط،

لقد كان الرئيس والدكم يتصل بوالدي كل يوم، يشد من أزره ويقول له ولا يهمك ما يفعله هؤلاء الملاعين، وكانت نار أبي تبرد وحاله يرق ويشف ويقول إن الرئيس طمأنه وإنه لن يحدث شيء أبدًا.

وفي ليلة دعاه والدكم إلى العشاء في قصره، أليس هذا منتهى الأمان وبالغ الاطمئنان؟ وكان أبي يرتدي أزهى ملابسه وأجمل وأغلى ما عنده، كان سعيدًا أن الرئيس لم يخن صديقه شقيق أبي الرئيس السابق ولم يخن العيش والملح، وكانت أمي غاضبة نافرة من فرحه وتقول له إذا كان الرئيس هذا غير راض عن الحملات الصحفية ضدك والملاحقات القضائية لك ومطاردات الضرائب وأجهزة رقابة المال العام فلماذا تستمر هذه الحملات؟ إنه يضحك عليك!

لكن أبي كان صادقًا تمامًا لصدق الرئيس، وذهب للعشاء عنده وكانت ليلة طويلة مبهجة لأبي كثيرًا، عاد ليكذب أمي طويلًا ويحكي لها أن الرئيس صالحه وباركه، وأعلن أنه لن يتخلى عنه أبدًا، وأنه سيؤمن المال لعياله ولن يسمح لأحد بتجريده من ثروته ومصانعه وشركاته، وأن أمواله في الخارج لن يمسسها ضابط أو رقيب، ولن يكشف عنها صحفي أو نائب، وزاد فعاد كلام الرئيس أن الحملات ضد شقيق الرئيس السابق مقصود منها الرئيس الحالي، وأنه لن يتركه لأنياب المعارضة التي تريد أن تنال منه ومن سلفه، ونام أبي قرير العين حتى صحونا جميعًا على صوت أمي تطرد النوم من أعيننا، أن نصحو مبكرين، ماذا يا أم؟ لقد صدر قرار بالتحفظ على أموال أبي! فيما بعد فهمت ـ لما كبرت ـ أن أمي أحست بطعنة موجهة لأبي، فقد جرى هذا بعد ساعات من لقائه

بالرئيس، لكنني فهمت ـ لما كبرت ـ أن قرار التحفظ كان هشًّا وتافهًا وكان مخصصًا لهامش من المال والشركات، وكان مؤقتًا، وكان ضبابيًّا، وقد هللت له الصحافة على أنه نصر على الفساد، بينما هو كان مجرد وصمة عار لعهد من أجل تدشين عهد جديد كان أشبه بدم البقرة المذبوحة تيمنًا قبل افتتاح محل جديد في شارع تجاري. أراد والدكم الرئيس أن يطلق أبواق دعايته لصالحه في نفس الوقت لا يؤذي أبي في كثير من ثروته، لقد دغدغ سمعته صحيح، لكن أمواله وثرواته وشركاته وأسهمه لم يمسها أحد، بل عاد لنا ما كان متحفظًا عليه، وتركه يعمل باسمي وباسم أشقائي حتى كبرت وتوليت المهمة عنه. وكان أبي موزعًا في مشاعره بين الإحساس أن والدك ضحى به وبين فضل والدك عليه حيث ترك له ماله لأولاده وثرواته لبناته، ولم نشعر في يوم من الأيام أننا فقراء أو أعوزتنا الحاجة لأحد.

وبعدها بسنوات بدأ والدكم يسمح لأبي بالحضور معنا لاستقباله في أثناء زيارته ضريح عمي الرئيس الأسبق في ذكرى وفاته، وحرص والدي على نشر صورته مع والدك الرئيس متعانقين ووزعها على جميع مكاتب شركاته، وكانت أوامره لي دائمًا أن أترك ما في يدي سواء في أوروبا أو أمريكا وأكون حاضرًا في مقدمة الصف الذي يصافح الرئيس في مقدمة النشرات وصدر أولى الصفحات أكثر ضمانًا لنا في أعمالنا وتجارتنا وثروتنا، وهو الذي طلب مني آمرًا شاخطًا أن أبحث عنك بمجرد ما سمع عن دخولك عالم الأموال والأعمال وقال لي هات ابن الرئيس معنا، وأشركْه في شركاتنا، وأسس معه مؤسسات جديدة، سيقوى بك وستقوى به. ولعلك

تتذكر عندما زارنا في قصرنا بإسبانيا كيف كان حفيًّا بك، محبًّا لك حريصًا عليك وعلى رضائك.

كان ابن الرئيس مثل ذرة الفشار وهو يستمع لهذه الكلمات، لم يكن يعرف هل يفرح وتنبسط أساريره، أم يغتم ويلتم على نفسه؟ لكنه ما صدق أن سمع أنفاس «ح» بعد أن توقفت كلماته، أن قال:

ـ لكن الوضع الآن أكثر مما كان قبلًا.. والرجال الموجودون بعد والدي ليسوا مثل والدي في حكمته ولعبه على كل الحبال (.....)، ثم إنني أمثل تحديًا لهم أكثر مما كان يمثل والدك. عفوًا، إنه لم يكن في سيرك السياسة، بل في ملعب المال، ولكنني في حلبة الأسود والنمور، قد لا أفلت من مخلب إذا نجحت في الإفلات من ناب؛ لذلك أفكر في السفر، أن أهج من البلد الآن.. أعيش في أمريكا، إن لديَّ جواز سفر أمريكيًّا وستتم معاملتي على أنني مواطن أمريكي.

ضحك «ن» حتى أزعجه هو نفسه ضحكه، فختم وقال:

ـ لا تنس أننا جميعًا نحمل جوازات سفر أمريكية وبريطانية، جواز السفر الأمريكي حماية لثروتنا، لكن ليس حماية لحياتنا.

ـ هل تعني قتلي؟

ـ لا أظن أن الأمور ستصل أبدًا لهذه الدرجة، فالرجال هنا عاقلون وأنا أعرفهم جميعًا على مستوى شخصي، لقد كانوا يحبون والدك ومخلصين له، لكن لديهم إحساسًا أنهم أولى بالسلطة منك، فقد تعبوا مع والدك وشقوا لأجلك.

انزعج ابن الرئيس فانفجر:

- لا تنس أن والدي هو الذي صنعهم جميعًا، ماذا كانوا هم؟ كانوا ولا حاجة، لم نكن نعرف أن أحدهم سياسي ماهر أو وزير فذ، هو الذي صنعهم من لا شيء، أتى بهم من الصفوف الخلفية ووضعهم في مقدمة الجميع، فلا تقل لي إنهم خدموه ووقفوا جنبه ومش عارف إيه...

- لا تغضب.

قالها «ن» وهو يعنيها، فاضطرب ابن الرئيس ونظر حوله كأنه يبحث عن كاميرا تصور أو تسجيلات تسجل، فأطفأ «ن» ناره:

- اطمئن.. لقد فحصت شركة أمن خاصة المنزل قبل اجتماعنا وهو آمن، لكنني أنصحك فعلًا أن تكون أهدأ في مثل هذه الأيام، وخاصة أن الحكاية ليست صغيرة ولا داعي أن تستفزهم أكثر ما هم مستفزون.

ذعر ابن الرئيس وسأل متقطعًا:

- ومن قال إنهم مستفزون؟ ولماذا؟ وما الجديد؟

جذب «ن» ملفًّا من مكان خلفه وفتحه وبدأ يتكلم:

- هذا الملف بدأ إرساله بالإنترنت لعشرات السياسيين ورجال الأعمال والوزراء في البلاد، بفحصه والبحث عن مكمنه ومصدره ثبت أنه قادم من الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا أقصى ما وصلت له الأجهزة هنا عن مصدره، لكنه يضم مائة صفحة كاملة بعنوان «ثروات ابن الرئيس».

ارتج ابن الرئيس لما سمع هذا الكلام، بينما تصفحت عيونه وجوه

الجالسين في دائرة أمامه؛ السيجارة، الأدخنة، الكؤوس، النظرات القاسية، العيون الثابتة، الشفاه المدلاة، الأيدي المرسلة بحرية، السيقان الموضوعة فوق السيقان، الشورت الذي يرتديه أحدهم، الجلباب الفاخر الذي يلبسه آخر، إن ملياراتهم تجلس على أكتافهم.. أكمل «ن»:

ـ الملف يحتوي على كل صغيرة وكبيرة عن ثروتك، والأخطر كل أسهم لك في شركاتنا ومصانعنا، بالسنت وبالدولار، بمنتهى الدقة حصر يشبه الحصار لنا كلنا، لم ينس الملف أتفه الأشياء حتى صالات البلياردو وقاعات السينما، حصتك من الأرباح على مدى السنوات الخمس الأخيرة والتي دفعتها لك شركاتنا، كلٌّ على حدة، الأخطر أن أسهمك لم تكن في كثير من الشركات باسمك، لكن المدهش أنهم كتبوا الأسماء الحقيقية التي تمثلك، من أول طقم السكرتارية لغاية السائق، لغاية أولاد خالاتك، لغاية موظفيك كله.. كله، إنه تقرير أشبه بالمعجزة. من المستحيل أن تستطيع أنت بنفسك أو حتى أهم محاسبيك كتابته بهذا الكمال وتلك البراعة، إن هذا الملف موزع بين أيدي الناس منذ شهر تقريبًا، وأصبح من الصعب إخفاؤه مثل انتفاخ بطن امرأة حامل، ثم جاء بعد ذلك خبر وفاة والدك ليصمت وقع الملف، لكن نحن لسنا في حاجة إلى أن يعود للظهور فعودته غير مضمونة العواقب على الإطلاق.. إن عودة هذا الملف للظهور لن تنقذك منها حتى عودة والدك من القبر.

رنين جرس التلفون المحمول أفزع ابن الرئيس كأنه صفارة إنذار مدسوسة في أرنبة أذنه، كان رنين الجرس لـ«ن»، رد فهمس وردد كلامًا وترحيبًا، ثم أغلق التلفون:

ـ علينا أن نتكتم على أحاسيسك وعليك أن تكف عن الشعور بأن أحدًا يغدر بك، ثم إن البلد كله يتحدث عن أحضانك مع وزير الحرب أمام مقبرة أبيك، هذا جميل للغاية، استمر، ثم سافر لأي بلد لو أردت لكن بعد الانتخابات، أساسًا نحن نقضي في عواصم أوروبا أكثر مما نقضي هنا، لكن لا بد للأمر أن يظهر بشكل طبيعي وقبل أن يأتي أمين الرئاسة إلينا الآن.

التفت ابن الرئيس:

ـ وده إيه اللي جابه؟!

رد «ن»:

ـ إنه صديق لك ولنا جميعًا.. وهو قادم لما عرف أنك هنا يريد أن يراك ويأخذ بيدك...

سكت ونظر لابن الرئيس الذي عاد فأحس طوق النظرات يلتف حول عنقه منهم جميعًا.. واصل «ن»:

ـ عمومًا وقبل أن يأتي أمين الرئاسة أريد أن أقول لك إنه لا بد من تهدئة خلال المرحلة القادمة سواء في معاملاتنا معًا أو إجراءات الدفع المالي.. نهدأ قليلًا.

وصلت الرسالة الآن لابن الرئيس: الحلفاء وقَّعوا على عقد بيعك. نشره القلق، لكنه حاول أن يتماسك وينتظر قدوم أمين الرئاسة أهو فخ يبخ سمومه الناقعة في وجهه؟ أم إن اشتباك المصالح عارم في تلك الغرفة، جارف لكل ما يقف أمامها من عواطف تفتح نوافذها لهبوب عواصف؟ أم طفح لتلك البئر الممتلئة حتى حافتها بالحقد والحسد والضغائن

والإحن؟ قدوم أمين الرئاسة مداس آخر، نعل جديد، يضغط على لحم قلبه يفعصه بالمرة في تلك الأيام التي يتراقص فيها جسده عاريًا معلقًا على حبال مشدودة إلى الأرض، في أية لحظة عابرة مارقة مسروقة من الزمن يمكن أن ترتفع الحبال عن الأرض، أو تهبط الأرض عن الحبال، فتصير مشنقة.

دخل أمين الرئاسة..

طويلًا كما ينبغي لضابط كان حارسًا للشرف، وممتلئًا ومنفوخًا كما يليق بموظف ترقى نفوذه في أجواء تعبد النفوذ. نهض الجميع في استقباله، لم تكن سعادة استقبال مسؤول، بل راحة استقبال حليف، لم تكن حفاوة أيد وأحضان وضغطات على الظهر وضمات للكتف، بل كانت توقيعات على معاهدة تضامن وتكاتف، سواء توقيعات مجددة على معاهدة قديمة، أو توقيعات طازجة على معاهدة جديدة. كان «ن» هو الذي أشار لأمين الرئاسة على ابن الرئيس فاندفع أمين الرئاسة ـ كأنه لم يكن يراه.. كأنه لم يكن يعرف أنه سوف يراه ـ نحوه يحتضنه ويغمض عينيه تأثرًا كمن يحجز الدمع في المقلتين ويضمه بقوة وحرارة، وقال له برقة وحنيَّة:

ـ إزيك يا حبيبي.

سمع ابن الرئيس كلمة «يا حبيبي» تلك واعتبر أنها تحول الجلسة إلى غرفة الدمى في روضة الأطفال، وكان سر سريرته أنه يتعجب أن الموضوع وصل لغاية «يا حبيبي» بمثل هذه السرعة. إن زمنًا ينقضي أمامه، الأفعال كلها صارت ماضية، وإن ما يشغله من هنا ورايح هو تلك الأفعال المضارعة، الضباع الضواري هي التي «تضارعه»، إذن الضراعة وهشاشة الرضع «تضارعه». كذلك كان يواصل أمين الرئاسة تراتيله الخاصة:

ـ إن والده رحمه الله أوصاني به كثيرًا، قال لي إنه ابنك مثلما هو ابني تمامًا، والذي يعرف علاقتي بالرئيس الراحل.. (توقف وتأسى وتنهد وقال ياه بقى الرئيس الراحل.. وحاول أن يداري دمعة، أو يداري مكان دمعة كان من المفروض أن تكون موجودة فلم توجد) ثم عاد فقال: «كان في أول عهده ابنه هذا الرجل الجميل، ابني، صغيرًا مراهقًا فإذا أراد أن ينشغل بأمور الحكم وشؤون السياسة وشجون الدولة طلب مني أن أكون والدًا لابنه في تلك الأيام.. آه والله العظيم كان يقول لي.. إنت من دلوقتي أبوه وليس أنا».

ثم ربت على كتف ابن الرئيس مرة أخرى وسكت ليضع خطوطًا بصمته تحت كلماته التي انتهت.

حين كان «ن» يسأله عن آخر الأخبار، كان أمين الرئاسة يحمل سيجاره الكوبي من جيب سترته ويضعه على المائدة الصغيرة أمامه، وسلسلة المفاتيح يلقي بها من يده والتلفون المحمول يضعه في نفس المكان والولاعة.. وبحركة بدت مفاجئة وغير متوقعة، جذب من تحت إبطه مسدسًا غليظًا فضي اللون فقبض القبضة وألقاه على المائدة أمامه كأنه إعلان عن نوع جديد من المسدسات أو نوع جديد من السلطة ثم راح يتحدث:

ـ تخيل الراجل رئيس المحكمة العليا ما صدق أنه يبقى رئيسًا مؤقتًا، يا أخي سبحان الله! جاء اليوم واتصل بي وقال:

ـ تعال أريدك.

ـ خير يا سيادة المستشار أصلي مشغول قليلًا.

قال لي:

ـ فيه إيه.. مشغول في إيه؟!

ـ قلت بس هذا الرجل لن يأتي بهْا إلى بر، قلت لنفسي أروح له أحسن وربنا يجيب العواقب سليمة، أصل وزير الحرب لا يطيقه، وكما تعرف هناك تعليمات بتجاهله لأننا نعرفه جيدًا فيه حاجة في دماغه، المهم رحت للرجل.

أيوه يا سيادة المستشار أمرك.. اؤمر.. نحن جميعًا رهن إشارتك.

قام الراجل مزعق فيَّ كأنه حلة برستول خَلَّصت غليان:

ـ أيوه هذا الكلام الفارغ هو كل ما أسمعه منكم كلما كلمت أحدًا، لكن أنتم عاملين عصابة عليَّ.

ـ يا أفندم العفو لا تقل ذلك.

صرخ بعزم ما فيه:

ـ أنا أقول اللي أنا عايز أقوله.. لا أحد يتحكم فيَّ.

ثم دخل في الموضوع الذي يريدني فيه وسط هذا الانفعال:

ـ الآن.. أنا رئيس الجمهورية، ما معنى ذلك؟

صمت وترك الأمر لمفهوميتي، طبعًا كان مستحيل أعرف ماذا يريد بالضبط، فخرست أنا الآخر مما أشعل ثورته:

ـ اسمع، القصر الرئاسي.. اسمه إيه.. اسمه القصر الرئاسي، يعني بيعيش فيه ويزاول منه كل رئيس يتولى مقاليد الحكم في هذه البلاد

أمور حكمه ومهام منصبه ومسؤوليات عمله، ولكن أنتم تتفرجون عليَّ منذ أن حلفت اليمين، لماذا لم تأت لي يا أستاذ وتقول لي اتفضل القصر بيتك ومطرحك؟ هل تعرف يا أستاذ أنني يمكن أن أرفدك الآن؟

قلت له بمنتهى الهدوء على الرغم من أن الدم كان يغلي في عروقي:

ـ يا ريت ترفدني يا سيادة المستشار كي أرتاح من هذه المسؤوليات وأذهب لأقعد في بيتي في العزبة أفلح الأرض وأزرع الفدانين بتوع المرحوم أبويا.

ويبدو أن كلامي هذا أثاره أكثر مما كنت أعتقد، فخبط ورزع في كل شيء أمامه وصرخ:

ـ أنت بتتحداني.. كما فعل وزير الإعلام.. هناك مؤامرة لتولي مهام الحكم وإذا لم توضع أخباري في صدر نشرات الأخبار في التلفزيون.. اعتبروني منسحبًا من هذه اللعبة.

احترت هل أتعامل معه على أنه مجنون يثير جنوني أم على أنه عاقل يثير غضبي؟ حاولت أن أمشي على الحبل:

ـ يا سيادة المستشار، نحن نُكِنُّ لك كل احترام وتقدير، لكن لا بد أن تعرف سيادتك أن هذا الوضع مؤقت، وأن الشعب اختار مرشحه للرئاسة فعلًا، وأن الأمر عبارة عن أسابيع قليلة للغاية ويتولى هو مقاليد الحكم فلماذا نفتعل أزمات في مراحل مؤقتة؟

هدأ وتراجعت أمواجه، ولكنه قال:

ـ ومن أدراك أن الشعب اختاره؟ ما أنتم الذين اخترتموه يا خوي، ثم ما أعرفه أن الدستور دستور والقانون قانون ولا بد من تنفيذه حتى لو كانت أوضاعًا مؤقتة أو مراحل عابرة.

ـ يعني أعمل أيه؟

ـ عايز القصر.

قلت له بمنتهى البراءة:

ـ إذا كان ولا بد.. يبقى تكلم سيادتك وزير الحرب وإذا أمرني بفتح القصر لك سأطيعه فورًا.

فعاد إلى جنونه الحانق:

ـ أنا أكلم عسكري كي آخذ منه إذنًا بحق دستوري.

اسمع أنا لن أكلم أحدًا، وأرجو أن تبلغ وزير حربك هذا: إنه لو لم يتم احترام منصبي ورئاستي للجمهورية سوف أسافر لأولادي في كندا تاركًا الجمل بما حمل ومن بكره.

أخذت كلامه في جنبي ومضيت، اتصلت وأنا في الطريق إلى هنا بوزير الحرب الذي قال لي إن الرئيس المؤقت عصبي وبمجرد ما يهدأ سوف يدرك أن الأمور أكبر من التي يتوقعها، فطلبت منه أن يتكرم بالاتصال بالمستشار في منزله يهدئ من روعه ويطيب من خاطره، وقبل ما أنزل من العربية جاءني تلفون من سيادة وزير الحرب وصوته مليء بالتوتر والانزعاج.

ـ ما لك يا سيادة الرئيس؟

(ابن الرئيس هو الوحيد الذي توقف عند هذه العبارة...)

قال لي:

ـ أنا اتصلت بالرجل.. وتحدثت معه في الأول بهدوء ورقة وكان ودودًا ولطيفًا معي للغاية، ثم قلت له وإن كنت تريد حراسة خاصة أو تشريفة لائقة فإنني سوف أرسل لك أكثر من دبابة تقف حول بيتك وسَرية جنود من سرايا الحرس الجمهوري.

فإذا به بعد ما نطقتُ هذه الكلمات يتشنج ويتهته ويصرخ:

ـ إنت عايز تحدد إقامتي.. إنت عايز تسجني.. إنت عايز تقتلني.

الحقيقة أنني انفجرت فيه وقلت له:

ـ إنت مين إنت كي أعمل لك حسابًا.. إنت راجل مجنون.

وأغلقت السماعة وأنا دمي فائر وسكَّري زائد وقلبي مجهد.

فهدَّأت من خاطر وزير الحرب وقلت له:

ـ يا سيادة الرئيس، المهام ثقيلة والمسؤوليات كثيرة، حكاية المستشار هذه حكاية لطيفة وتضحَّك، ولكن ماذا عن الحكايات السخيفة الثقيلة التي سوف تأتي مع مقاليد الحكم؟..

ـ المهم هدَّأت الرجل وأغلقت التلفون وها أنا أمامكم.

تبادلوا الضحك والمشروعات والآراء والمعلومات، وبات مكشوفًا أن علاقتهم أكثر قربًا وأشد وثوقًا من أن يفك عراها أحد، وكان أمين الرئاسة رمحًا قوية عتيدة في أيديهم، يشيرون بها إلى أحد فيجزع، ويغمزونها في صدر آخر فيقنع، ويغرسونها في بطن ثالث فيفزع.

بينما جلس ابن الرئيس يشفط دهون دلاله الغابر، لمح أمين الرئاسة و«ن» يتهامسان ثم قدم «ن» بطاقة صغيرة من تلك التي يوضع فيها اسم المرء وتلفونه ويقدم للناس على سبيل التعارف والتواصل والتواصي.. أمسك أمين الرئاسة بالبطاقة هاشًّا باشًّا، لكن لارتجافةٍ ما سقطت من يده وخبطت في حافة المائدة فطارت فسقطت تحت أقدام ابن الرئيس، كان ظهرها مكتوبًا عليه رقم بالإنجليزية، بخبرته عرف أنها أرقام حساب بنكي، الأرقام بأحرف صغيرة زرقاء مكتوبة بخط اليد، وبجوارها مكتوب «باسم كريمة».

ارتبك وتوتر «ن» تمامًا، لكنه حاول أن يقلل من أهمية سقوط البطاقة تحت أقدام ابن الرئيس، أمسك بها وقدمها لأمين الرئاسة الذي اشتعل وجهه ألوان لوحة تجريدية، وبحركة مسرحية مزق أمين الرئاسة البطاقة مرتبكًا ومهزوزًا وقال:

ـ أنت ناسي إن رقم تلفونك الخاص معي منذ زمن طويل.

مشى ناحية باب الخروج في ركبه «ن» يودعه. غابا خارج البيت أكثر مما يلزم أمر الوداع. بين لحظة وأخرى كان ابن الرئيس يلمح ظلهما في الخارج من دون أن يتبين وجوههما أو إيماءات جسدهما. حينما عاد «ن» صرخ في الحاضرين مدهوشًا، يرمي عليهم بالدهشة:

ـ شفتم ماذا حصل؟ لقد اتصلوا الآن بأمين الرئاسة من المطار يخبرونه بأن الرئيس المؤقت وصل المطار وفي طريقه للطائرة المتوجهة إلى مونتريال ـ لقد كان واضحًا أنه اختار توقيت تهديده بعناية.

رد عليه ابن الرئيس:

ـ وماذا سيفعلون معه، معقولة رئيس جمهورية يهرب ولا يحضر الانتخابات وإعلان النتيجة وانتقال السلطة؟

.. في المطار حيث طائرة ضخمة تعج بالمسافرين تستعد للإقلاع في الرحلة الثالثة لها مباشرة إلى مونتريال بكندا، وفي زحام وضع الحقائب على الأرفف والبحث عن رقم المقاعد، والاستفهامات للمضيفات، وبكاء الأطفال المبدئي بمجرد ركوب الطائرة، والركاب الذين بدأوا قراءة الصحف أو الكتب، والهمسات للتعارف بين راكب وجاره، ومتابعة وجه مضيفة جميلة.. إذا بعربات عسكرية مزودة بالأسلحة الدائرية الآلية تحيط بالطائرة من كل جانب، تجري على مضمار المطار، تعبر الأسفلت والإشارات البارزة، تحت جسد الطائرة الجهم الباسق، وأضواء كاشفة حارقة النور تقتحم زجاج نافذة كابينة القيادة، وأقدام عسكرية بأحذيتها الثقيلة بسيقان الأزياء المموهة تعدو على الجسر الكهربي الذي يربط صالات انتظار الإقلاع بطائرة السفر، تقتحم القوات باب الطائرة ممسكة بالمدافع الرشاشة بسنون السنكي البارقة، يمر بين كتل الجنود المتراصة شخص يرتدي بذلة مدنية كاملة وحوله خمسة ضباط ثقيلو الرتب على أكتافهم.. يمرقون إلى مقعد الدرجة الأولى الذي يجلس فيه الرئيس المؤقت للبلاد.

٢٢

تلبسها فجأة هاجس أنهما مراقبان، فاتصلت «ريتا» بيوسف تستدعيه وتصرخ فيه بلهجة لا شك في أنها آمرة أن يحضر لها في بهو الفندق، فلما استجاب كلفه ذلك إقامة ليلة كاملة في العثور على عنوان شبه سري لشقة صديق لها مدرس بالجامعة الأمريكية اتصلت به «ريتا» فعرفت أنه في إجازته بالولايات المتحدة فطلبت منه أن تستخدم شقته في أثناء تلك الإجازة، وافق داعيًا لها بالتوفيق مع عشيقها، تركته في وهمه، تلقت منه العنوان ودلها على وجود مفتاح الشقة في مكان خاص في بابها، أخذته «ريتا» ودارت ولفت معه على عنوان كان يدرك وهو ابن البلد أنه عنوان مقصود منه إفشال العثور على المكان، لكنها أصرت وأكدت أن الفندق غير آمن، وأنه يستحسن استخدامه في التضليل حيث إنه مغطى بوسائل تنصت وأجهزة التقاط، وأن كل ما يقولانه في السر يظهر علنًا لدى كل الأجهزة العاملة في القضية من مكان لآخر، ومن بواب لثانٍ، ومن شارع لشارع. صعدوا العمارات خطأً، وركبوا المصاعد اختلاطًا، وحاولوا طرق أبواب نهرهما أصحابها. كانت تقوده ولا تترك له فرصة للتمرد مهما بدت سانحة، وحين ضجت بالتعب

وهدها التضليل المكشوف في العنوان وأوشكت أن تستسلم للعودة، إذا بهما في الشقة أخيرًا.

رمت نفسها على أول كنبة وقالت إن أمامهما عشر ساعات فقط من الاختفاء، بعدها يمكن أن يظهرا في الفندق حتى لا ينشغل عليهما أحد فيسعوا وراءهما، وافقها متخذًا حال الجندي المطيع على الرغم من انفجار مرارته بالتبرم، جلس يرقب تفاصيل الشقة التي كانت متربة، ولكنها تنم عن أناقة وذوق على الرغم من غياب أثاث كثير واتساع الفراغات في المكان، وتبعثر الكتب. جهاز الأسطوانات قديم حتى يبدو أنه أثري، والعود المرتكن على الحائط والتماثيل الصغيرة الملونة لأصحاب الحرف في البلد مصفوفة على رف رخامي في إبداع.. مروحة سقف بادية القدم ورسوم أطفال مبروزة داخل أطر خشبية ممسوحة النقوش، ما شد نظراته اغترابًا هو علم الولايات المتحدة المركون في زاوية ما على صاري معدني قصير، وهناك في عمق الممر الممتد في الشقة تتدلى قبعة مثل تلك التي يرتديها العم سام في الرسوم التقليدية الفجة وعصاه كذلك معلقة من خيط يتدلى من السقف، ابتلع ملاحظاته ناظرًا إلى مروحة السقف وقد بدأت تعمل بعد أن ضغطت على زرها «ريتا» فكان مع دورانها صرير ما تجزع له نفسه حتى تعتاد عليه.. قالت «ريتا»:

ـ نبدأ بالمعلومات أم بالتحليل؟

فتحت حقيبتها فامتلأ المكان تحت الكنبة بعشرات الأوراق التي تبعثرت واندلقت من الحقيبة، في غير حساب وبلا تحسب.

رد على سؤالها:

ـ لقد قرأ كلانا الملفات، لنخلط إذن المعلومات بالتحليل.

دخنت سيجارتها الأولى، لكن المدهش أنها أخرجت قاروصة من السجائر وضعتها أمامها كمن يضع سلاحًا في وضع الاستعداد، تأهب أن يتكلم فتهيب أن يبادرها فتغضب فسكت حتى تبدأ هي فبدأت:

ـ نبدأ بحكاية الخنجر التي تحولت إلى حدوتة شعبية في أجهزة المخابرات.. ثبت لنا الآتي:

أـ الخنجر المستخدم في الجريمة هو الخنجر الذي تم إهداؤه للرئيس وكان يعلقه على حائط غرفة نومه.

ب ـ الخنجر بقي في جثة الرئيس حتى استخرجه مسؤولو الأمن الوطني حين فحصوا الجثة.

جـ ـ خبراء المخابرات الأمريكية يقولون إن الخنجر قديم وفي حالة لا تسمح له بالقتل بهذا العمق وبتلك الطريقة، من هنا فهم يطرحون وجود سلاح آخر للجريمة لكن لا يعرفون ما هو.

التفتت إليه وقالت:

ـ بالمناسبة هل شاهدت الأفلام التي صورتها كاميرات الأمن الداخلي للقصر الرئاسي؟

رد يوسف:

ـ لا لم أشاهدها، إنها معك على ديسك وليس لديَّ كمبيوتر في الفندق.

أومأت برأسها:

ـ صحيح صحيح.. سوف نشاهدها معًا الآن.

تدخل هو قائلًا:

ـ وبالمناسبة أيضًا هل قرأت تقرير الطب الشرعي؟

قالت وهي تنظر في الورق دونما أن ترفع رأسها له:

ـ آه.. تافه ومختصر.

مساحة صمت لم يعبرها أحد، لم يعرها يوسف اهتمامًا، أما «ريتا» فقد كانت تنتظر أن يحدث شيء خارجها.. نظرت له في استغراب:

ـ لماذا لا تتكلم يا يوسف؟

ـ أبدًا.. لقد عرضت معلوماتنا عن الخنجر، ثم لم تفسري شيئًا أو تدلي برأي.

خلعت نظارتها وواجهته بنظراتها:

ـ وافرض يا أخي ليس عندي تحليل.. هل نسكت ولا نشتغل؟ قل أنتَ رأيك؟

ـ آه إذن ليس لديكِ رأي.

تنفست غضبًا:

ـ جرى إيه يا يوسف، عارفة أنك تريد أن تقول إنني عاجزة عن حل شيء.. حد قالك إنني «أجاثا كريستي».

رد في برود:

ـ إذن فهمت وعرفت، هذا هو المطلوب منا ألا نصل لشيء، إنهم يعرفون أننا لسنا خبراء جريمة.

بادرته:

ـ لكننا خبراء حقيقة.

صمت فأكملت:

ـ لماذا لا تهتم يا يوسف، أليس المقتول رئيسك؟

تراجع يوسف برأسه وتقدم بكلماته:

ـ هل تقصدين أنني لست حزينًا على مقتله؟

ـ نعم.

تنهد يوسف وقال لها في هدوء:

ـ هل أفهم هذا باعتباره استجوابًا؟

على غير المتوقع ردت هادئة:

ـ أنت ما زلت سيئ الظن بي.. لكن عمومًا دعني أقول لك إنني أميل للإعجاب بك، وأفهم استسلامك لغضبي ولقيادتي رجولةً وحكمةً ليس فيهما ضعف ولا هوان.

كانت قد جلست على السجادة المفروشة في الصالة، واستندت بظهرها على الكنبة ومدت ساقيها للأمام وفوقها أوراق ملفوفة، وكان يوسف قد اكتشف وجود مقعد هزاز بجواره فلم يجلس عليه، اكتفى بأن يهزه فيتحرك فيتابع حركة المقعد في تأمل، قرر أن يقطع عليها الطريق في هذا الحوار ودخل في تحليله فورًا بهدوء يصل إلى حد البرود:

ـ عندما أنوي أن أدخل غرفة نوم الرئيس لأقتله، معنى ذلك أنني أعرف

كيف سأدخل إلى غرفته حتى سريره؟ وأنني أعرف أنه يمكنني الخروج؟ ثم لا يجب أن أنسى شيئًا مهمًّا وهو بأي شيء سأقتله، سأخنقه مثلًا، أو سأضربه بالرصاص؟ أم سأطعنه بالخنجر؟ لكل من هذه الطرق وسيلتها، ومن المستحيل مهما بلغ غبائي وبلاهتي ـ وهذا أمر مستبعد حيث إنه من الصعب أن يصل غبائي إلى موضع يسهل معه دخول غرفة الرئيس ـ فلن أترك للصدفة اختيار وسيلة القتل!

غاصت «ريتا» في كلام يوسف، ثم أطفأت سيجارتها (وكانت قد وصلت للسيجارة الرابعة تقريبًا):

ـ أو ربما كنت أدخل غرفة نوم الرئيس وليس في نيتي أن أقتله.. النية ظهرت عندما دخلت ورأيته بعد مناقشة حادة، ومواجهة غريبة!

أومأ يوسف بإعجاب:

ـ كلام رائع يا دكتورة «ريتا».. نخلص من هذا إلى أن القاتل يمكنه دخول غرفة نوم الرئيس وهذا يحصر دائرة المتهمين داخل القصر الرئاسي.. هذا واحد.

إن القاتل إما أنه كان ينوي قتل الرئيس ومن ثم لم يجهِّز نفسه بسلاح للجريمة؛ لأنه كان يعرف أن السلاح قد وفره عليه الرئيس، إنه بالداخل معلق على الحائط، إنه الخنجر الذي يعرف القاتل أنه معلق هناك.. إذن فالقاتل دخل غرفة نوم الرئيس من قبل وهذا يحصر دائرة المتهمين داخل القصر الرئاسي في الذين يمكنهم دخول غرفة نوم الرئيس.. هذان اثنان.

أعود إلى تقرير الطب الشرعي وما قلته عنه صحيح تمامًا، إنه تافه ومختصر، لكنه يطرح سؤالًا مهمًّا.

صرخت «ريتا»:

ـ عرفته.

ابتسم يوسف وحثها على الكلام بإيماءة من رأسه، فقالت:

ـ إذا كان الرئيس نائمًا فجاء شخص ليقتله، فإنه لن يظل نائمًا، سوف يصحو مفزوعًا فماذا سيفعل؟

القاتل يضع يده على فمه وبالأحرى يطعنه في صدره، الرئيس يقاوم، يضربه بيديه، ينشب أظافره في رقبته، يحاول أن يضرب الجرس بجواره، يحاول أن يعض كف القاتل، يخبط برجليه يهز السرير ويرفع ساقيه محاولًا ضرب القاتل.

إذن أدرك يوسف أن لماحيتها لامعة.. ردد معها:

ـ إذن الرئيس لا بد أن يقاوم القاتل.

ردت عليه كالصدى:

ـ ولا توجد أي آثار لهذه المقاومة لا في تقرير الطب الشرعي ولا في أقوال كل من شاهدوا جثة الرئيس ومسرح الجريمة.

صرخ يوسف مصفقًا:

ـ بالضبط.

ارتجت تمامًا وكأنها فتحت مغارة على بابا:

ـ ثم إذا كان الرئيس قد قرر عدم تصوير جناحه وغرفة نومه بأجهزة المراقبة فإنه بالتأكيد كان حريصًا على أجهزة إنذار تكشف الغرباء.

إذن القاتل إما كان يعرف أماكن هذه الأجهزة؟ وإما أنه استطاع أن يعطلها.. أو..

أكمل لها يوسف جملتها الناقصة:

ـ أو أنها اشتغلت فعلًا ودقت أجهزة إنذار لكن أحدًا..

همست:

ـ لم يسمعها.

ـ أو لم يكن مطلوبًا أن يسمعها..

رددت:

ـ سمعها وسكت.

انتفضت:

ـ نحن إذن أمام مؤامرة.

قال لها بثبات وإيمان:

ـ مؤامرة ضد حاكم ظالم غاصب مكروه مجمد على عرشه أكثر من ثلاثين عامًا.. من سيهتم إذن.. من سيطلب ثأره.. إن الناس ستفرح بموته، كما أنها ستجزع خوفًا مما قد يحدث من فوضى بعد موته، عندما يتعود الناس على سماع كلب مسعور ينبح طول الليل فيحاولون إقناع أنفسهم أن نباحه ليس إزعاجًا أو تهديدًا، ولكنه يحرس المنطقة من اللصوص.

أكملت «ريتا»:

ـ وحين يغيب هذا النباح بعد سنوات طويلة تعودوا فيها عليه يبدأون فعلًا القلق خشية أن يأتي اللصوص.

قام يوسف وقال:

ـ هنا.. تأتي أطراف المؤامرة لتحل في المكان الخالي فورًا.

أحرقت السيجارة الثامنة أصابعها:

ـ كلاب جديدة تنبح مكان الكلاب القديمة.

رفعت رأسها له كرجل مطافئ مهدود في لحظات فحص آثار الحريق لمعرفة سر اشتعاله:

ـ هل تعرف أن أوراق الحرس الجمهوري تكشف أن خمسة من حرس تلك الليلة من أبناء الوزراء سواء حاليين أو سابقين وأولاد مسؤولين؟

بدأت في فر الأوراق وتلاوة الأسماء:

ـ ابن وزير الاقتصاد، وابن وزير العدل، وابن وزيرة الشؤون، وابن نائب رئيس وزراء سابق ورئيس مجلس إدارة بنك حالي، وابن مندوب البلد في الأمم المتحدة.

توقف يوسف عند هذه الأسماء وأمعن في ملامح وجهها المنكسرة:

ـ ماذا يعني هذا؟

ـ الفساد والواسطة.

ـ دعيك من هذا.. أنا أسأل ماذا يعني للجريمة؟

رجعت برأسها للوراء واكتشفت السر:

ـ آه.. هذا سر الإفراج عنهم بسرعة ولم يستغرق التحفظ عليهم كثيرًا من الوقت كما هو مفروض في مثل هذه الحالات الخطيرة.

ثم عادت فقالت:

ـ هل لهم ضلع في الجريمة أم إنهم مجرد ضباب لإخفاء الأثر؟

رفع كتفيه وضرب المقعد الهزاز بقدميه:

ـ الله أعلم.

باغتته بالسؤال:

ـ يوسف.. لماذا لم تتكلم؟ لم تعارض أبدًا؟ لم ترفض أبدًا؟ لماذا أنت ـ مثل غيرك ـ مستسلم، مثقفون خائفون في هذا الوطن؟

زم شفتيه وتجعدت جبهته وانحنت عيناه كمن ينحني ظهره.

همست:

ـ آسفة.

وضع كفيه في جيبي بنطلونه وجلس ـ أخيرًا ـ على المقعد الهزاز، أمسك سيجارتها التي لا تزال على اشتعالها لم تسحب منها نفسًا بعدُ فوضعها بين إصبعيه ثم بين شفتيه، دخن وحين أشعلت لنفسها سيجارة أخرى كان يتكلم ببطء وبحزن:

ـ جدي رضوان كان رجلًا جميلًا رقيقًا خجولًا وعجوزًا ونحيفًا وقصيرًا، مصليًا وقارئًا للقرآن.. كان هذا هو الحضن الجميل الذي يتلقاني حين ذهابي في الصيف إلى بلدة والدي في الجنوب، لم أكن

أعرف وقتها أن جدي كان قد خرج من السجن وأنا ما زلت في العام السادس من عمري. كان قيادة بارزة في حركة الإخوان المسلمين، بل كان عضوًا في مكتب الإرشاد وهو أعلى المراتب التنظيمية في هذه الجماعة، مكث في السجن ١٦ عامًا وخرج، بدا للكل معتزلًا وإن كان قد تحرك في العمل السياسي في فترة مصالحة مع الحكومة ربما أفهمته أنها تريد للجماعة أن تعود وله أن يعمل، وحين كنت صبيًّا من دون أن أكون يافعًا، رأيت ذات صيف مئات الجنود بأسلحتهم وهراواتهم وعشرات السيارات البوليسية كلهم يندفعون ناحية منزل جدي ويدخلون ويكسرون كل شيء أمامهم وسط الصراخ والنعيق والنحيب من نساء البيت، ومع صيحاتهم المتكبرة المتجبرة يأخذونه، يرفعونه من تحت إبطيه، تعلقتُ به صارخًا باكيًا فما كان من أحدهم إلا أن صفعني على وجهي ورمى بي إلى أحد الجنود الغلاظ الذي رفعني عن الأرض وألقى بي في صندوق سيارة الاعتقال مع جدي، والمذهل المذل أنهم اقتادوه إلى مقر مديرية الأمن هناك وأنا معه، وفي قلب مكتب أحد كبرائهم أخذوا يضربون جدي أمامي ويصفعونه على قفاه ويعرون جسده حتى انكشاف العورة، وبعد ساعات من الضرب والركل والسب والإهانة، جاءت جملة أحدهم لتشطرني شطرين، لتفجر قلبي شظايا زجاج يخر لها جسدي كله دما للأبد.. قال الرجل وهو يمسك بعضو جدي: «تحب نخليك تـ.. حفيدك.. ولا نخلي حفيدك يـ.. قدامنا؟».

لم يحدث لا هذا ولا ذاك.. لكن ما حدث أكثر لعنة من التهديد نفسه، أفرجوا عن جدي ثاني يوم، كانت مجرد رسالة له وللجماعة، وعلى الرغم من أن الـ١٦ عامًا من الاعتقال والتعذيب لم تفقد جدي

ابتسامته، لكن الساعات التي قضاها أمامي مهانًا معذبًا مهدور الروح والكرامة أفقدته النطق.

هل تعرفين ماذا حدث؟

كان جدي ينظر إليَّ ثم كأنه لم يرني.. هل سمعتِ أبدًا عن أحد يفقد حاسة البصر حين ينظر لشخص واحد فقط.. كان هذا جدي حين كان ينظر إليَّ ـ لحفيده ـ مات جدي بعدها بعامين ولم تفلح معه عقاقير ولا أدوية ولا علاج ومات شيء مني لم يَصْحُ أبدًا.

أرهقتها اعترافات يوسف، كانت تبكي في صمت وضراعة، لكن سيل فيضانه كان لا يزال يحمل حجارته وصخوره المدخرة في خزانات القلب عميقة الغور.

قال يوسف:

ـ المأساة الملهاة أن جدي لأمي كان واحدًا من أبرز قيادات الحزب الشيوعي، وما جمع إلا ما وفق، كان يدخل سجنًا ليخرج إلى سجن، وما زلت أذكر يوم دفن جدي رضوان إذا بجدي الزعيم الشيوعي العظيم يقف باكيًا ملتهب الدموع فوق قبر جدي الإخواني يخطب في الناس حتى هرب بعض الناس من الجنازة ومن دفن الجثمان خوفًا على أنفسهم، كان يخطب فيهم عن عظمة الفقيد وقوة إيمانه وصلابة أفكاره وصمود روحه وكبرياء رسالته، وأخذ يعدد فضائله وشمائله ويلقي الآيات الكريمة من القرآن فتهتز معها القلوب ويرثيه بالشعر العربي القديم فترتجف الأفئدة.

هذا الجد نفسه بعد خمس سنوات كان ينضم للحزب الحاكم ويخطب

في عظمة الرئيس، ذلك الرئيس المقتول، ويؤلف في مدائحه الكتب والمقالات، وكان وكنت أتمنى أن يفقد كلانا حاسة البصر حين نظر كلٌّ منا إلى الآخر، ومن يومها قررت أن أهجر السياسة تمامًا.. أن أبعد عنها حتى الغرق في اللامبالاة، في العدمية، في العبث، كنت كلما نجحت وتفوقت في القانون، زاد قَسَمي ألَّا أعمل بالسياسة، وكلما كنت أتعرض لإغراءات أو تهديدات بماضي أجدادي كنت ألوذ بالسلبية. كان جدي يزورني في المنام، وأراني أعتدي عليه، فأقوم مفزوعًا وأنوي أن أعمل لهذا النذير، وأن أدافع عنه وعن غيره من المظاليم، فإذا بجدي يزورني في المنام وأراه يعتدي عليَّ فأقوم مفزوعًا وأنوي أن أعمل لهذا النذير. أما المصيبة التي كادت تودي بحياتي البدنية والعلمية يوم جُن جدي الشيوعي، فوقف في مؤتمر عام للقوى السياسية احتشد لإعلان تأييد الرئيس في دورته الرابعة حينذاك، فإذا به يخطب خطبة يسجلها التاريخ بحروف من نور ضد الرئيس وحكمه وظلمه، بينما كان الكل مذهولًا مبهوتًا إذا به يخطب عن جدي الإخواني ويذكر الفقيد (الذي يبيعه الإخوان الآن حين يجلسون بجانبي لتأييد الرئيس) وينشد أشعارًا ويغني غناء مبحوحًا لعجوز يلعن فيه الظلم والقمع، وكانوا يشدونه ويضربونه ويجرونه على الأرض وهو يقاوم بعمره الذي تجاوز السبعين ويصرخ في الجالسين: «يا خونة، يا جبناء، يا منافقين، يا كلاب».

وحين وصلت به الشرطة خارج القاعة.. كان قد مات.. وكان قد تطهر بدمه من ذنبه إلى الأبد.

تخيلي أنت ما حدث بعدها.. فصلوني من الجامعة، وألغوا تدريس

مؤلفاتي، وسحبوا كتبي من الأسواق والمكتبات، ونبذني زملائي، وهجرني تلاميذي. وتخيلي أنت ما حدث بعدها.. كتبتُ التماسًا واعتذارًا وقعناه أنا وأمي للرئيس حتى يعفو عنا. أما الذي غفر لنا ذنب جدي أن أمي رفضت أن تتسلم جثمانه وعدتُ أنا إلى الجامعة والحياة بثمن بخس للغاية أنَّ جدي قد تم دفنه في مقابر الصدقة، وظلت مقبرته في مدافن عائلته فارغة موحشة. غمرني اكتئاب وحزن، وازددت انعزالًا واعتزالًا، كنت أرى دومًا مشهد الأب الذي قتل ابنه لأني إرهابي - حسبما زعمت الحَكومة - وكيف استقبله الرئيس فرحًا مبتهجًا والتُقطت لهما الصور والرجل يمسك بالبندقية التي قتل بها ابنه. كتبت الصحف واحتفت الإذاعات ومحطات التلفزيون بالرجل، وكانوا يلتقون به في كل برنامج يمطرونه بالأسئلة عن كراهيته لابنه عن كفره ببنوته، كنت أشعر جلادين في قرون الإمبراطوريات الأوائل يجلدون بأسواطهم الرجل في ميدان عام هام يتدافع الناس لرؤية الضحية بين منقبض الصدر أو متحمس للمشاهدة، كنت ألمح في عيون الرجل هزيمة وانكسارًا وضياعًا وتوهانًا، عيونه زائغة، وشفاهه مرتعشة، وبدنه متخدل، وكانوا لا يرحمونه وهو يتلقى أسئلتهم ومسامير تطلب جسده، ورصاص يشق صدره، ولما هدأت الضجة وانسحبت عنه العيون كان يظهر لي في كل لحظة كأنني هو، كأنه أنا، أحيانًا كان يبدو هو جدي أو أبدو أنا جدي أو يبدو جدي هو، ولما امتلكني تمامًا قررت أن أذهب إليه، تسترت بالليل وسافرت متخفيًا تقريبًا ووصلت إلى قريته النائية، كان كل شيء عنه قد تم ابتذاله في التلفزيون، فبات معروفًا وبات مفضوحًا كل ما له صلة إليه من اسمه وعنوانه حتى جيرانه وأقاربه في بلدته، ومن ثم كان الوصول إليه سهلًا، لكن الكلام معه كان مستحيلًا، كان بيته مثل كل البيوت، لكن كانت له رائحة حزينة حتى تعفن فيها

الحزن، ولما وصلت إلى داره واستقبلتني زوجته المكلومة وعيونها ملأى بالتوجس والتخوف سألتني:

ـ حضرتك حكومة؟

فقلت لها:

ـ لا.

لم تصدقني، لكنني حاولت أن أكسب تعاطفها فقلت:

ـ لقد جئت لأطمئن عليه وعلى صحته.

تبللت السيدة بالدموع وقالت:

ـ لو كنت حكومة تبقى لازم تعرف إنه سافر عند «أخوه» على البحر.

كان الأمر غامضًا عليَّ تمامًا فأعدت لها ضبط الحديث:

ـ أنت زوجته.. أليس كذلك؟...

هزت رأسها أن نعم..

ـ هل زاره أحد من الحكومة بعد ما عاد من العاصمة؟

هزت رأسها أن لا..

ـ إذن لماذا تشكين أنني من الحكومة؟.. أنا أراه غلبانًا ومظلومًا وعايز أصبره وأطمئن عليه.

فتحتِ الباب وأذنتْ لي بالدخول، مشت أمامي وأنا وراءها في ممرات متقاطعة مظلمة وهي تمسك بمصباح من الجاز، يدها تدل نفسها وتدلني

على طريقه عند غرفة ذات باب خشبي كبير وجهم، وقفتْ وفتحت الباب، دخلتُ وراءها فإذا بالرجل راقد بلا حراك على السرير لأسلِّم عليه، فلم ينتبه، تأملته لحظة انخطف فيها قلبي وانسرقت فيها روحي، لقد أدركت أنه ميت!.. هل كانت السيدة تعرف؟ هل كانت تفهم أنه مات؟ لا أعرف، فقط سألتها:

ـ منذ متى وهو على هذه الحال؟

قالت:

ـ ماعرفش من ساعة ما جه من عند الحكومة والتلفزيون، لا أكل ولا شرب وقال لي أنا تعبان قوي، دخل ينام ومن ساعتها لم يتحرك ولم يرد عليَّ، قبل بس ما ينام قال لي لو حد سأل عليَّ من الحكومة قولي له إنه سافر عند أخوه على البحر..

كانت «ريتا» منهارة من البكاء، تتماسك حينًا ثم تعود فتنخرط في زخم الدموع اللاطم، تنهض من حزنها لتتعثر في بكاء ونحيب آخر، كانت تتلقى كل كلمة قالها وحكاها يوسف على أنها قطعة لهب تصب في شريان قلبها حريقًا، كانت ملهوفة عليه وآسفة على حكمها المتطرف على سلوكه، وفي أحايين من الحكاية كانت ترتعش كل أعضائها وترتجف شفتاها.. قام يوسف فأمسك بمناديل من ورق وأخذ يجفف دموعها ويربت على كتفها ويمسح على شعرها، وقد تحول بياضها إلى كتلة من حمرة مضرجة حرارة لهيبة.. قال لها مبتسمًا:

ـ أسأل الآن نفسي وأسألك: «هل اختارتني الحكومة هنا من أجل هذا الذي تعرفه عن تاريخ عائلتي؟ أدركتْ أنني أكره الرئيس، وأن

قلبي زغرد عندما عرفتُ أنه مات، وأن ثأري تقضى عندما عرفتُ أنه مات مقتولًا. إنهم يقولون لأنفسهم لن يعمل هذا الأستاذ أبدًا على محاكمة قاتل الرئيس، بل ربما يعطيه وسامًا.. هل ضحكوا على الأمريكان بحكاية تفوقي الدولي وشهرتي العلمية في العالم وموسوعات القانون التي تضم اسمي وصورتي وسيرتي؟»، ربما..

مسحت مخاطها وقالت له في صوت متهدج مبحوح:

ـ لأنك تكرهه لا بد أن تعرف من قتله.. إنهم لا يعرفونك جيدًا.. إنك عادل تحب العدل وتعمل له وتموت من أجله، أليس كذلك؟.. أنا أريد عدلك قبل ذكائك.. علمك قبل مشاعرك.. روح أجدادك قبل حزن حفيدهم.

أمسكت بكفه بحرارة، حاول أن يفلت:

ـ لقد تأخرنا.. يجب أن نذهب إلى الفندق.

هزت رأسها رافضة:

ـ لن أذهب إلى الفندق، أنا أريد أن أنام هنا.. وفي حضنك..

قامت ففردت ذراعيها وضمت رأسه إلى صدرها، وأخذت تقبل بعيونها الدامعة وشفتيها المبللتين وجهه وعينيه ورأسه.

بدا بكاء يوسف دموعًا سائبة منسالة في صمت، ثم زغرت وكشرت، ثم بدأ صوته يتحشرج يختنق، ثم بات بكاؤه نحيبًا مهتزًّا ومرتجًّا ومتواصلًا كأنه لن يضحك بعدها أبدًا.

في الصباح أيقظته من النوم عابثة بالأوراق في وجهه، تضرب بها أنفه. صحا، نظر إليها وهي تبتسم مستندة بمرفقها عند أعلى الوسادة فوق رأسه،

فيرى جزءًا من إبطها وبطن ذراعها الوضاح ووجهها الصبوح المغسول من الدموع، ابتسمت وقالت:

ـ هل تحتفلون عندك بعيد ميلادكم؟

استغلق عليه السؤال في البداية، لكن عندما نفض النوم من مقلتيه فهم:

ـ حسب من هو هذا الشخص.. طبقته الاجتماعية.. اهتمام أسرته، لماذا تسألين؟

أمسكت بورقة من ملف الحرس الشخصي وقالت:

ـ لأن ليلة اغتيال الرئيس كانت يوم عيد ميلاد أحد ضباط الحرس المكلفين بحراسته ليلتها.

رفع كتفيه استخفافًا:

ـ إذن لم يحتفل بعيد ميلاده.. ربما بَكَّر به يومًا أو أجله يومًا أو لم يحتفل إطلاقًا.

هزت رأسها:

ـ ممكن طبعًا.. ممكن جدًّا.

عندما أوشكا على الانتهاء من ارتداء ملابسهما ضحكت فجأة وقالت:

ـ لن أقول لأحد إنك تقريبًا لا تعرف ما هو الجنس؟

خذلته ضحكته فقد بان مرتبكًا، أضافت هي:

ـ هل يمكن أن يظن أحد أن أقصى ما فعلناه ليلة أمس هو البكاء كلٌّ في حضن الآخر.

ضحك وهو يقول:

ـ أليس هذا هو الجنس؟! عمومًا عندنا هذا اسمه جنس.

ضحكت معه وقهقهت، وحين همًّا بالانصراف رجعت بسرعة تشد ورقة من ملف وتضرب رقمًا في هاتف.. رد الهاتف بعد فترة وسمعها يوسف تقول:

ـ منزل حضرة الضابط سعد سالم؟

ـ أيوه يا أفندم.

ـ المدام موجودة؟

ـ أنا المدام.

ـ أهلا بك يا مدام.. الحقيقة نحن شركة بريد وعندنا رسالة.. إنها متأخرة للغاية، عذرًا فقد أهمل موظف الشركة عندنا وتم عقابه فعلًا.

ـ ما هي الرسالة؟

ـ إنها تورتة مكتوب عليها عيد ميلاد سعيد يا سعد.. ومكتوب عليها التاريخ مع كارت توصية للشركة بتوصيل التورتة في لحظة الاحتفال بعيد الميلاد، ألم يكن في اليوم الفلاني (وحددت «ريتا» ليلة اغتيال الرئيس)؟

فقالت زوجة الضابط:

ـ نعم.. فعلًا.. لكن غريبة لم يذكر لنا أحد من أصحابنا موضوع هذه التورتة على الرغم من أنهم هم الذين دبروا الحفلة وأعدوها فجأة.

ثم لماذا طلب صاحب الهدية من شركة بريد إرسالها، وليس من محل أطعمة عيد الميلاد؟

ـ في الحقيقة لا أعرف.. لكن عمومًا سوف نستبدل التورتة بأخرى بنفس المواصفات، لكن طازجة ونرسلها إليكم وتبقى مناسبة للاحتفال بعيد ميلاده مرة أخرى.

قالتها في شيء من المداعبة والإيحاء بليلة زوجية أخرى، ردت الزوجة:

ـ يا ستي متشكرين.. لكن سعد نفسه مسافر.

ـ في رحلة؟

ـ لا.. في شغل.

ـ طيب ما هي فرصة نبعثها له في الشغل.. آه.. نسيت إنه ضابط.. أكيد هذا المكان منطقة عسكرية؟

باحت الزوجة فورًا:

ـ لا.. ما خلاص.. استقال وترك حياة الضباط ويعمل منذ أسبوعين مديرًا لقرية سياحية.

نظرت «ريتا» إلى يوسف بنظرات توحي عن نفسها أنها امرأة قديسة:

ـ ممكن أعرف اسم القرية؟

لما عرفتْ.. وضعت التلفون فورًا ونظرت ليوسف مثبِّتة نظراتها في عينيه وانتظرت منه أن يتكلم:

ـ احتفل بعيد ميلاده الغبي.. وهو في حراسة رئيس الجمهورية؟

ـ أولم يذهب إلى حراسة الرئيس أساسًا ليلتها؟

ـ إذن كيف ظهر اسمه في كشف حراس هذه الليلة؟

قالت «ريتا» وهي مستثارة تمامًا من الاكتشاف:

ـ هل تعتقد أننا وجدنا القاتل؟

رد يوسف وهو ممتلئ إحساسًا بالخطورة:

ـ أعتقد أن هذا الصباح منيل بستين نيلة.

٢٣

أفزعتهم ثورته، فقد قام فجأة من فوق المقعد الذي يتصدر مائدة الاجتماعات في مبنى مجلس الوزراء وهو منفعل لا يفتعل العصبية والثورة، بل كان صادقًا للغاية في توتره وارتجافه. تكهرب الجو تمامًا، شعروا جميعًا أن تحت مؤخراتهم مقاعد للصعق الكهربي، صرخ فيهم بعزم ما فيه من حيل مهدود:

ـ هو أنا أقل من أي واحد قعد مطرحي؟

كانت الإجابة مؤكدة بالنفي، فخرجت من أفواه كثيرين منهم:

ـ لا.. طبعًا..

تبادل رئيس الوزراء نظرات مشدودة مع وزير الداخلية، لكن رجل الأعمال «ن» شاء أن يخفف غلواء الجو (عندما تتحدث ثلاث مليارات دولار على لسان أحدهم فإنها ولا شك تخفف غلواء الجو).. قال «ن»:

ـ أعرف أن وجودي هنا مع بعض أصدقائي من رجال الأعمال وجود شرفي لا يؤثر في أي من قراراتكم.. لكنني أتدخل هنا باعتباري

مواطنًا يحضر اجتماعًا عالي المستوى.. فإذا كان لي أن أتحدث مندوبًا أو ممثلًا عن المواطنين فأذنوا لي بالكلام..

ثم ضحك:

ـ أو خلونا أصحاب أحسن.

هدأ وزير الحرب وجلس.. ربما من التعب:

ـ والمواطنون مش ح يلاقوا أفضل ولا أحسن منك مندوبًا عنهم، ثم أنا يا أخ «ن» باعتبر رجال الأعمال في البلد جزءًا من الحكم، جزءًا أصيلًا من سلطة اتخاذ القرار، هو البلد كله عايز إيه؟ عايز رفاهية، رخاء عمل، فلوس، طيب كل هذا سوف يأتي من أين؟ أليس من شركاتكم ومصانعكم وأعمالكم.. أنت هنا لا تقل عن أي وزير في المجموعة الوزارية الخاصة، واسأل رئيس الوزراء: ألم أطلب أنا حضوركم معنا؟

أومأ رئيس الوزراء:

ـ نعم، طبعًا.. طبعًا.. وحدَّدكم بالاسم.

نظر وزير الحرب لرجل الأعمال وزملائه:

ـ شفتم.. إذن تكلموا بكل حرية واعتبروا أنفسكم مسؤولين معنا عن هذا البلد.

قال «ن»:

ـ أشكر لسيادتك هذا الكرم الكبير.. وأحب أن أتدخل فقط لأقول إننا جميعًا نحب هذا البلد، ونتمنى مصلحته ونعمل على تقدمه

كلٌّ في موقعه، يعني اللي بياخد مرتب خمسمائة جنيه في الشهر واللي مشغل ثلاثة أو أربعة مليارات جنيه في البلد.. كلنا واحد في الوطنية، وكلنا بنعمل على قدِّ طاقتنا وموهبتنا.. لذلك أنا لا أجد خلافًا في وجهات النظر التي عُرضت الآن، فالذي يريد أن تخرج نتيجة الاستفتاء القادمة بنسبة ٨٥٪ موافقة يسعى أيضًا إلى إظهار البلد في صورة الذي يستعد لنقلة جديدة في حياته والذي يريد أن يعرف رئيسه الجديد حتى يأمن له تمامًا.

عاد وزير الحرب لثورته، لكن هذه المرة على درجة أقل وبلهجة أخف وظل جالسًا على مقعده:

ـ يعني يرضيك إن كل رئيس انتُخب قبلي في كل مدد الرئاسة كانت النسبة ٩٩,٩٪ موافقة وتأتي عندي فتصبح ٨٥٪ مرة واحدة، هذا معناه إيه أكثر من إن الناس لا تريدني ولا تثق فيَّ أو لا تعيرني أهمية.

قال «ن»:

ـ يا ريس أنا لم أقل ذلك.. أنا قلت إن وزير الداخلية لما قال إن نسبة ٨٥٪ كنسبة أول استفتاء نسبة معقولة، كان ينطلق من حسن نية وفهم للأمور بشكل له احترامه.

هتف به وزير الحرب:

ـ لأ.. لأن.. دعك من رأي وزير الداخلية، أنا عارف إنه يقصد كل خير، لكن تفكيره السياسي على قده.. قل لي إنت رأيك هل تريد نسبة الاستفتاء ٩٩,٩٪ أم ٨٥٪.. ها.. قل لي إنت رأيك الآن.. بوضوح وبصراحة.

رد «ن» فورًا:

ـ طبعًا أتمنى النسبة التي يثق الشعب فيها برئيسه، والتي تعطي رسالة للجميع أن الرئيس الجديد يحظى بشعبية وجماهيرية تجعله يتخذ القرارات التي يراها بمنتهى القوة والشجاعة والحزم.

ارتفعت دقات قلب وزير الحرب وقال:

ـ يعني نسبة كام؟

قال «ن»:

ـ ٩٩,٩٪ نسبة مطمئنة ومعقولة.

وتحسس وزير الحرب قلبه الذي كاد ينفتق في انتظار الإجابة ونظر إلى رئيس الوزراء الذي هتف:

ـ والله يا سيادة الرئيس أنا أراها نسبة معقولة وجيدة جدًّا، لكن ليست هي النسبة المهمة؟

ـ إزاي؟

ـ طبعًا فيه نسبة أهم لا أحد يأخذ باله منها على الرغم من أنها المقياس الحقيقي لرضا الشعب عن الرئيس والإيمان به والسير وراءه والثقة فيه.

صرخ وزير الحرب:

ـ ما هي هذه النسبة؟.. قلها وجعت قلبي.

انتفض رئيس الوزراء بالحكمة التي تحشو عقله:

ـ نسبة المشاركين يا أفندم.. كم واحد ذهب لصناديق الاقتراع وصوَّت في الاستفتاء.. أصل ممكن تبقى نسبة الموافقة على انتخابكم رئيسًا للجمهورية ٩, ٩٩٪ فعلًا، لكن نسبة المشاركة والتصويت مثلًا ٦٠٪ أو ٥٠٪ وهذه نسبة تقول إن الإقبال كان ضعيفًا وأن الرئيس ليس محل جماهيرية أو ثقة.

أومأ وزير الحرب وهز رأسه وتحسس قلبه:

ـ صحيح.. هذه فكرة وجيهة لم تكن في بالي.

ثم نهر وزير الداخلية بنظراته الحادة الموجعة:

ـ هل كانت في بالك يا سيادة الوزير؟

قال وزير الداخلية وهو يشعر أن اليوم لن يفوت:

ـ أنا هنا يا أفندم لتلقي الأوامر.. وكل ما تتفقون عليه سأنفذه، وستجد إرادة الشعب متطابقة تمامًا مع رغبة سيادتكم.

أعجبه كلام وزير الداخلية فنظر إلى وزير الإعلام وسأله:

ـ النسبة الأخيرة في استفتاء رئيس الجمهورية.. ماذا كانت؟

قلَّب وزير الإعلام أوراقًا أمامه، لكنه لم يتكلم.. فهو لا يتذكر ولم يستعد لمثل هذا السؤال، فاستنجدت نظراته بوزير الداخلية وقال:

ـ على ما أذكر كانت ٨٦٪ يا سيادة الوزير.. أليس كذلك؟

وزير الداخلية أدرك أن وزير الإعلام يضرب رقمًا والسلام.

قال خشية أن يعرف وزير الحرب حقيقة الرقم فيما بعد فيطلِّع دينه:

ـ على وجه الدقة كانت ٦, ٩٣٪، لكن أريد أن أنوه أنه كان الاستفتاء الخامس وكان الناس تعرف أن الرئيس ناجح ناجح وكانت مطمئنة إلى النتيجة ولم تكن متحمسة للذهاب إلى صناديق الاقتراع، حيث بات الأمر على مدى ٣٥ عامًا شيئًا عاديًّا وروتينيًّا، لكن في مثل هذا الاستفتاء الجديد هناك أحداث جديدة ووجوه مختلفة والناس حريصة على أن تدلي بصوتها للمرحلة القادمة.

آمن وزير الحرب بما قاله وزير الداخلية تمامًا فتدخل رجل الأعمال «ر»:

ـ أظن أن الناس بكل طوائفها وشرائحها وثقافتها سوف تخرج لتدلي برأيها في هذا الاستفتاء التاريخي، لذلك لا بد أن تكون نسبة المشاركة نسبة تاريخية، وأنا أقترح أن تكون ٩٩٪ هي أيضًا.

أحس وزير الحرب أن الرقم جميل، لكن فيه بعض المبالغة، فنظر إلى وزير الداخلية الذي خاف أن يبدد فرح وزير الحرب بالرقم فقال:

ـ قوي قوي.. ممكن جدًّا.

لكن وزير الإعلام تدخل بصوت يبدو عاقلًا:

ـ لكن لا بد أن نحسب نسبة أصوات الموتى والمسافرين للخارج والمجندين وهذه وحدها أكثر من ١٪ كثيرًا.

وزير الحرب كان رشيدًا حين قال:

ـ صحيح.. لا نريد للنسبة أن تعلو إلى درجة تفقد معها مصداقيتها، تفتكر يا وزير الداخلية النسبة التاريخية التي يريدها السيد «ر» ممكن تكون كام؟!

قال وزير الداخلية:

ـ حتى تجمع بين المصداقية ودليل الشعبية أفتكر نسبة إقبال تصل إلى ٩٧٪ تبقى نسبة كويسة جدًّا، وأعتقد أن سيادتكم لو وافقت فإن الشعب لن يخذلك أبدًا وسيصل إلى هذه النسبة بسهولة..

بسرعة وبحماس سأل وزير الحرب:

ـ ما رأيك يا سيد «ر»، هل هذا يحقق وجهة نظرك؟

قال «ح»:

ـ جدًّا يا سيادة الريس.. إنها نسبة تاريخية ومطلوبة.

هنا قال وزير الإعلام:

ـ طيب طالما اتفقنا على أن نسبة المؤيدين والموافقين ستصل إلى ٩٩,٣٪ ونسبة التصويت والإقبال سوف تكون ٩٧٪.. بقي أن نعرف عددًا مهمًّا للغاية وهو عدد من سيقول «لا».

رد رئيس الوزراء بمبالغة في الرفض:

ـ وهل لا بد أن يكون هناك من يقول «لا»؟

فقال وزير الحرب بسرعة وحماس بالغين:

ـ طبعًا، إن هذا دليل حرية وديمقراطية ولا بد أن نحرص عليه ونعلم الناس أننا لا نخشى من كلمة «لا» أبدًا فليس لدينا ما نخاف عليه أو نخشى منه، ولذلك من الضروري جدًّا أن يكون هناك عدد لا بأس به يقول «لا».

أدلى وزير الداخلية بدلوه حتى يغترف اعترافًا من الرئيس الجديد بجدارته:

ـ النسبة لا بد أن تكون محسوبة جيدًا، فمن المفروض أن تكون ١ ٠ , ٠٪ لنسبة المشاركين في الاستفتاء.. وهي مسألة معقدة قليلًا.

لكن وزير الإعلام لم يترك لوزير الداخلية فرصة للتباهي بخبرته فقال:

ـ نحن من الممكن أن نحدد رقم الذين قالوا «لا».. والباقي من النسبة نعملها الأصوات الباطلة.

صرخ «ن»:

ـ صحيح.. برافوا يا سيادة الوزير.. هذه فكرة مدهشة.

ثم أراد ألا يخسر وزير الداخلية أيضًا فقال:

ـ وأكيد سيادة وزير الداخلية بخبرته وحنكته يعرف ما هو الرقم الطبيعي للذين يمكن أن يقولوا «لا» في الاستفتاء القادم بعد غد؟

وزير الداخلية تقبل المجاملة قبولًا حسنًا وقال:

ـ طبعًا هم قلة ولا شك.. لكن تحديد عددها في أيدينا كلنا، ومهما كانت خبرتي فإن إحساسكم بالشعب وبنبضه سيكون أدق قطعًا.

كان الجميع يهرب من البدء بتحديد رقم وأدرك وزير الحرب ذلك، لكنه أراد أن يبدأ أحدهم وليس هو، حيث يخشى أن يكون مبالغًا في النقصان أو الزيادة.. أخيرًا تحرك رئيس الوزراء لقطع الملل والتوتر معًا وقال:

ـ لنعتمد أيضًا على عدد الذين قالوا «لا» في آخر استفتاء.

قال وزير الداخلية:

ـ كانوا ٧٨٢ شخصًا.

قال وزير الإعلام:

ـ كثير.

وقال وزير الحرب:

ـ تفتكر؟

وقال «ن»:

ـ نقول ٤١٢ مثلًا.

قال وزير الإعلام:

ـ ليكن الرقم أكثر تعبيرًا عن الحقيقة فيصبح مثلًا ٣١٨ شخصًا قالوا «لا».

قال وزير الداخلية:

ـ أنا كان تصوري نسبة أقل من ذلك، يعني في حدود من ٢٨٠ إلى ٣٠٠ شخص.

قال وزير الحرب:

ـ نقول ٢٨٠ كويس.

قال رئيس الوزراء:

ـ لأ فيه مبالغة.. نقول ٢٣٠ كويس.

تدخل «ر»:

ـ طيب أنا ح أقول رقمًا أرجو أن توافقوني جميعًا على واقعيته وصحته.

قال وزير الحرب:

ـ قل.

فقال:

ـ ٢١٧ شخصًا قالوا «لا».

فهب الجميع:

ـ موافقون.

ـ على بركة الله.

٢٤

لم يصدق أن إغفاءة مثل هذه بسرعتها وضمورها سوف تخايله بحلم فج في مباشرته وانفضاح ما يفضي إليه من أمر ا رأى نفسه في صحراء وقد ارتدى مع عشرات الأشخاص ملابس معدنية من تلك الملابس الجلدية السميكة والفضية، وقناعًا من الزجاج أمام وجهه، وعلى رأسه غطاء يشبه غطاء رواد الفضاء، يمشي بحذاء أسود طويل يصل حتى ركبته في رمال، ممسكًا بعصا كشف الألغام، يبحثون عن ألغام في تلك الصحراء، كل تلك المجموعة المصاحبة له، وبينما يتلفت فإذا بلغم ينفجر في أحدهم، يطير في السماء بفعل لهب صاعد بركاني المذهب، ثم تبدأ الألغام في الانفجار واحدًا تلو الآخر، تقذف بشخص في كرة نار، ثم ثالث، ثم رابع يطير ويدفع الهواء، وإذا بـ«ريتا» تخلع القناع الزجاجي الذي يغطي وجهها وتبتسم له، فتسيل زخات من المطر على رؤوسهم، ثم يبدأ كل منهما في الجري في كل الاتجاهات كالمجانين تحت المطر مثل قطط فاجأتها المياه الزخمة، أو أطفال يخرجون من خيمة للعبث تحت الماء الضنين. وتتوالى الانفجارات كأنما العالم كله يشتعل حولهما.. استيقظ من الإغفاءة مدركًا أنه لو من أولياء الله الصالحين فهذه بشارة الموت وغرة النهاية، فلما فتح

عينيه رأى «ريتا» تدير جهاز الكمبيوتر وقد ركنت السيارة المستأجرة على جانب الطريق السريع.

نظر إليها ففهمت زيغ النظرة فقالت:

ـ حلم سخيف أليس كذلك؟

تنهَّد ولم يعد يبهره ذكاؤها:

ـ كذلك.. لكنه مباشر وفج كأنما ألفه شخص.

ثم حكى لها ما الحلم، فابتسمت وأرجعت ذلك إلى ثلاثة أشياء: الأول صوفيته، والثاني أنه رأى برنامجًا وثائقيًّا في التلفزيون قبل أن ينام عن الألغام، والثالث أنه في الطريق ـ معها ـ إلى منطقة كانت أرضًا ملغمة في حروب خاضتها البلاد مع عدو لها.

سألها:

ـ ماذا تفعلين؟ ولماذا أوقفت السيارة؟

ردت عليه:

ـ أبدًا، قلت أرتاح.. لا أريد الظهور في استراحات الطريق المكشوفة وأحببت أن نعيد مشاهدة صور القصر الرئاسي ليلة الاغتيال مرة أخرى.

ـ قولي مرة رابعة.. خامسة..

كانا في الطريق إلى القرية السياحية التي تبعد ٤٠٠ كيلومتر عن العاصمة، استأجرا سيارة تصلح لصحراء الطريق الطويل ولم يخبرا

أحدًا كما لم يستأذنا أحدًا في الذهاب إلى سعد سالم حيث يعمل الآن وبعد فترة قصيرة (حتى الشك) من تركه خدمة الحراسة الرئاسية.. لم يتصلا به حتى تتم المفاجأة وإن حفظا ملفه بالكامل، كانا على يقينٍ زَرَعه الحدس والتمني أن يكون هو مفتاح اللغز، فإذا لم يكن قاتلًا فليكن شريكًا فليكن شاهدًا. بعد ركوبهما السيارة مباشرة اتصلا برئيس الحرس من تلفون يوسف المحمول يتأكدان منه مرة أخرى.. ومتعجبًا من ثقته في أقواله حيث أكد أن الاستجوابات شملت الجميع بمن فيهم سعد سالم:

ـ سعد سالم يا أفندم.

ـ طبعًا كان موجودًا ليلة الاغتيال وكان لا بد من استجوابه.

ـ وأين هو الآن؟

ـ بعد أن تم تسريح كل الضباط لا شيء أعرفه عنهم.

دعَكَ وجهه وارتدى نظارته وشرب من ترمس القهوة فنجانًا صغيرًا وأخذ يتأمل انشغال «ريتا» العاتي في متابعة خطوات الحرس على الممرات داخل القصر تعيد تشغيلها بالبطيء، الداخلون والخارجون من بوابات الجناح الرئاسي، الحراس الجالسون على المقاعد الجلدية وفي أيديهم أسلاك معلقة للاتصال اللاسلكي وعلى أحزمتهم مسدسات متأهبة.. ضربت كتف يوسف فجأة وهتفت فيه:

ـ انظر أليس هذا هو وجه سعد سالم؟

تفحصه بعيونه المكدودة، تأمل شبكات الخيوط المتعارضة والمتلاقية التي تكون صورة ملامحه على شاشة الكمبيوتر، كانت زاوية وجهه

ولم يظهر سوى بجزء من كتفه وجانب من جبهته وأنفه وخده الأيمن، أخذت تعيد له الحركة حتى يتأكد يوسف فلم يتأكد، فأزعجها تشكُّكه:

ـ هو نفس الصورة.. إنه سعد سالم.

قال لها:

ـ وما الذي يعنيه ذلك؟ إن الساعة كما هو واضح على شريط الصورة الخامسة صباحًا، إذن لم يترك موقعه وكان موجودًا بالفعل ليلة الاغتيال، ولم يذهب لعيد ميلاده ولا غيره، القصة كلها تبقى ساعتها كتلة ضخمة من غزل البنات، لا معنى لها ولا دلالة فيها.

صدقته في منطقه وصدقت نفسها في أنه سعد سالم، فجمعت التناقض في صرة بطنها موجعة وسكتت، لكن يوسف الذي بادر الآن وأشار إلى صورة أخرى ملأت شاشة الكمبيوتر كانت لحوض السباحة وقد ظهر على حافته بعض الفنيين ومهندس الصيانة (عرفوا أنه المنوط به الإشراف اليومي على حوض السباحة استعدادًا لساعة سباحة الرئيس الصباحية).

قالت «ريتا»:

ـ ما الذي شدك هذه المرة في مشهد حوض السباحة؟

أشار بمقدمة قلم في يده إلى شخص بدا واضحًا الآن في الصورة مع مهندس الصيانة المسؤول، كان شخصًا يحمل ملامح أجنبية من الشعر الأشقر والوجه الأبيض الغطيس والجسد الرياضي ذي المسحة العسكرية.

قال يوسف:

ـ من هذا؟

قالت «ريتا»:

ـ لا أعرف.

ـ إذن فكرينا نسأل عن شخصيته وما الذي أتى به إلى هذا المكان في هذا التوقيت؟

أومأت برأسها علامة الموافقة، هي تغلق الكمبيوتر وتضعه في حقيبتها وتصلح من وضع مقعد القيادة وتبدأ في تشغيل السيارة، طلب منها أن تدير غناء لأم كلثوم، لكنها رفضت:

ـ لقد شغلنا أم كلثوم بما فيه الكفاية.. تأمل الطريق وأنت صامت وفكر ماذا سنقول لسعد سالم؟

قال يوسف:

ـ أنا لن أقول شيئًا.. ولا أريد شيئًا..

ثم في مزج من التوتر والمداعبة الهازلة أخذ يدور ويلف في مقعده وينزل برأسه كمن يبحث عن شيء يعبث بكفه تحت المقعد خلف مسنده حتى استغربت حركاته فسألته:

ـ عم تبحث يا يوسف؟

قال لها:

ـ عن جزمة.

ـ ليه؟

ـ كي أضرب نفسي بها.

ضحكت:

ـ وفِّر على نفسك البحث عن حذاء، فهناك العشرات الآن الذين ينوون ضربك.

حين وصلا إلى القرية السياحية كان المكان مزدحمًا وصاخبًا ومرحًا، كأن البلد لا يعيش حالة حداد رسمية، اكتشفا معًا أن الحداد رسمي فعلًا، لا أحد يبكي الميت ولا أحد يخشى أن يحدث أسوأ مما حدث، أغلب السياح من البلد نفسه، ولكن ملابسهم البهيجة وملامحهم المسترضية وأطفالهم المرحى تعطي الانطباع أن بينهم وبين البلد علاقة سياحية فعلًا. كان الإحساس بالاغتراب يأكل قلب يوسف، لكن «ريتا» انغمست فورًا في البحث عن سعد سالم حيث أخبرهما موظف الاستقبال أنه سيكون في انتظارهما في مكتبه بالكوخ الرابع في الساحة الخلفية. انغرست وسط حشائش وأشجار زينة تكون شبكة محكمة تَحُول ـ كالسور ـ بين المرء والعبور، وكان يوسف غافلًا عن المكان، ينغمر برأسه تحت موج نفسه.

لحظة وهبَّت «ريتا» مذعورة حيث وجدت أمامها سعد سالم (إن لم تكن قد أخطأت ملامحه)، فوجئ هو بذعرها المباغت فاعتذر:

ـ أنا آسف جدًّا.. ألست أنت دكتورة «ريتا مكربي»؟

قالت وهي تضع يدها على قلبها كي توقف هزته المهجوسة:

ـ نعم.. حضرتك سعد سالم؟

أومأ برأسه أن نعم فعرَّفته بيوسف رضوان.. دعاهما لدخول الكوخ حيث ظهر من الداخل مكتب بسيط وإن كان محشوًّا بزينات من مصنوعات ومصوغات المنطقة، سألهما:

ـ خير.. هل هناك من خدمة أقدمها لكما؟

قالت «ريتا» بصراحة وبسرعة من يلاحق أرنبًا في غابة:

ـ نعم.. نحن اللذين نحقق في جريمة اغتيال الرئيس.

على عكس ما توقعت أن تدوي قنبلتها في أنفه تلقى التعريف هادئًا حتى البرود من دون أدنى مفاجأة فأشعلها استفزازًا:

ـ أأنت تعرف أننا قادمان.. أو تعرف أصلًا مهمتنا؟

ظهر شبح ابتسامة على شفتيه:

ـ يا دكتورة لا يوجد شيء خفي في وسط مثل الذي جئت أنا منه.. ثم إن زوجتي أخبرتني بحكاية التورتة إياها فعرفت أنها حيلة وإن بدت نسائية للغاية إلا أنها تعني أنكما وصلتما إلى ما كان يجب ألا يصل إليه أحد.

أقلقت يوسف لهجة سعد الصريحة والتي لا تخلو من طيف الوقاحة.

قالت «ريتا» وهي تشعر أن موقعها المهاجم قد تقهقر لخط منتصف الملعب، فقاتلت من أجل ألا تتراجع إلى منطقة مرماها أمام محترف مثل سعد سالم:

ـ لدينا أسئلة مباشرة، ولا أقول اتهامات، نريد أن نسمع رأيك فيها بشكل غير رسمي.

بادرها سعد:

ـ هل تريدين يا دكتورة لفًّا ودورانًا أم الحقيقة من الأول من دون إزعاج مشترك؟

قالت «ريتا»:

ـ الحقيقة ولكن من دون صياغة ضباط محترفين.

ضحك سعد:

ـ أظنك قرأت ملفاتنا جميعًا، وعرفتِ أن معظمنا وسايط وأولاد مسؤولين وأن موضوع الحراسة كان تشريفًا وأمرًا هينًا خفيفًا لم يؤخذ أبدًا مأخذ الجد.. كنا منظرًا على الفاضي ونحن نعلم أننا لن نحمي الرجل في شيء لو حاول أحد اغتياله.. بصراحة كان الجميع قد فقد الأمل في أن يحاول اغتياله أحد وخاصة بعد محاولة جنينة الحيوانات التي ليس لها نظير.

أحس يوسف صدقًا مخلوطًا بشيطنة في كلمات سعد، لكنه أدرك أنه لا سبيل إلا التسليم بأن يسمعه من دون تجارب مراهقة في استنطاقه تحاولها «ريتا»، فتدخَّل:

ـ اتفضل يا أستاذ سعد.

نظر سعد إلى «ريتا»:

ـ موافقة يا دكتورة.

قالت وقد شعرت بخيبة أمل مسبقة:

ـ اتفضل يا سيدي.

بدأ سعد يتكلم:

ـ أنا سعد سالم ابن سفير البلاد في الأمم المتحدة الذي توفي العام

قبل الماضي، وخدمت مع الرئيس في حراسته منذ خمس سنوات كاملة، وقد كانت آخر أيام خدمتي محددًا لها اليوم الذي أصبح تاليًا لاغتياله، وليس صحيحًا أنه تم تسريحي، بل أنا كنت قد استقلت من الخدمة، حيث عملت هنا، وأنا بالمناسبة أحد الشركاء في هذه القرية ولست موظفًا بها فقط. أما عن عملية اغتيال الرئيس فقد كنت في الخدمة فعلًا وكان عيد ميلادي أيضًا، ونحن عائلة برجوازية لا تفوت فرصة الاحتفال بعيد ميلاد أحد أبنائها، لكن طبعًا ـ نظرًا لظروف انشغال أي منا ـ يمكن أن نؤجل الحفل، فليس بالضرورة أن يكون الاحتفال نفسه يوم عيد الميلاد، لكن يومها في حدود الثامنة مساء فوجئت برئيس الحرس وقد أخبره زملائي بأن اليوم عيد ميلادي يمنحني بقية الساعات المتبقية على نهاية خدمتي راحة وإجازة، وزيادة منه في الكرم شارك زملائي في الاتصال بمحل حلويات شهير وأرسلوا التورتة إلى البيت، ولما وصل لزوجتي ذلك دعت بعض أصدقائها المقربين والذين صادف عدم ارتباطهم يومها بشيء إلى حفل عيد ميلاد سريع لي، ولكن في حدود الواحدة صباحًا وحين أوشكت أن أستكمل احتفال عيد ميلادي في سرير الزوجية وجدت رئيسي يستدعيني للحضور إلى القصر، أرسل لي السيارة العسكرية وأسرعت بالعودة، فشرح لي أنه كان متفقًا مع الشيخ رزق بركة على أخذ ساعاتي، ولكنه بعد ساعتين ثلاث زهق واختفى، فقرر أن يعيدني هو إلى الخدمة.

فنظرت «ريتا» إلى يوسف مبهورة فرأته مبهورًا ينظر إلى سعد الذي قرأ اندهاشهما:

ـ الشيخ رزق.. طبعًا هذه المرة هي الأولى التي تسمعون فيها عنه، فالكل يحاول تجاهل وجوده حيث يمثل لهم عارًا أمنيًّا من المستحيل تصديق حسن النية وبلاهة المقصد من وراء وجوده.

في الأصل الشيخ رزق بركة اسمه عبد الرازق بركات، وهو ضابط فذ في تفوقه العلمي والرياضي والبدني والعسكري، كان تقريبًا أستاذنا ومثلنا الأعلى ونموذجنا الأكثر نجاحًا وانضباطًا، ليس ابن مسؤول كبير حالي أو سابق، ولكنه كان أول دفعة كلية الحرب، وحاصل على الدكتوراه في العلوم العسكرية في زمن قياسي. بدأت قصته بعد الالتحاق بالخدمة كحارس للرئيس حينما سافر إلى بعثة تدريبية ستة أشهر في الولايات المتحدة الأمريكية، وهناك تغير تمامًا حتى صار الشيخ رزق، فقد صدمت ريفيته وانضباطه وأخلاقياته بحضارة الغرب في أقصى صورها وضوحًا وأكثر جوانبها الفاضحة فضحًا، لاحظوا أنه كان هنا ثورًا في ساقية فعلًا، لا حياة إلا في الثكنات العسكرية وفي علوم الكتب، المهم أحدثت هذه الصدمة لديه هزة نفسية غريبة، فبينما انبهر الأمريكان بقدراته وإمكانياته وتعاملوا معه كأسطورة شرقية إلى الحد الذي عرضوا عليه الجنسية والخدمة في أجهزتهم، لكنه رفض تمامًا، وقيل إنهم استضافوه في فرقة مكثفة خاصة لمدة شهر في المخابرات الأمريكية، لكن كان هذا مجرد كلام لم يتأكد لأحد منا، لكن في نفس الوقت كان عبد الرازق يرتاد مساجد المسلمين في أمريكا أكثر من أي زميل له، ثم سرعان ما ارتبط بعلاقة ودية عميقة وغريبة مع شيخ أحد المساجد هناك، وانخرط معه في جلسات صوفية وسهرات دينية ولقاءات لا أول لها ولا آخر. ولأن تفوقه كان عاملًا يغفل معه أي ملاحظة لدى مراقبيه، عاد من

البعثة بأعلى درجات الرضا من الأمريكان وبحالة تصوف متطرفة، فبدأ يصلي في أثناء الخدمة ويدعونا للصلاة، ويقف طول خدمته في الرايحة والجاية إذا لم يقل قرآنًا بصوت عال فإنه يلقي مواعظ عن الموت والجنة والحساب والنار.. لكن قصته زادت في غرابتها حينما قال للرئيس قبل ذهابه إلى جنينة الحيوانات، لا تذهب إلى هناك.. فهناك يكمن الخطر، لكن الرئيس لم يسمع كلامه وتقريبًا نوى أن يفصله، لكن حدث ما حدث في جنينة الحيوانات، حيث تعرض الرئيس لمحاولة اغتيال، فصار من يومها عبد الرازق بركات الشيخ رزق بركة، وبدأ يدخل على الرئيس غرفة نومه يقرأ فيها قرآنًا ويتلو شعائر لا نفهمها، وصار هو الوحيد الذي يمكن أن ينصح الرئيس بما يريد، وكان متخصصًا في تفسير أحلام الرئيس، وكان طبعًا يأتي في أي موعد للحراسة ويمشي في أي موعد، لهذا كان يوم عيد ميلادي طبيعيًّا للغاية أن يدعه رئيس الحراس يحل مكاني بعد أن وصل، لكنه بعد أكثر من ساعتين زهق فمشى فخشي رئيسي أن يحاسبه أحد على نقص العدد فقرر استدعائي مرة أخرى.. واختفى الشيخ رزق من يومها ربما حتى الآن.

صرخت «ريتا»:

ـ إذن هو الذي قتل الرئيس.. لقد دخل غرفته ليلتها وانصرف قبل نهاية خدمته واختفى.

قامت من مكانها مفزوعة، ومضطربة ومستثارة تمامًا:

ـ كيف تركوه يفلت بفعلته؟!.. كيف لم يظهر ذلك في أي ملف لأي جهاز؟.. هذه مؤامرة.

كان يوسف يشعر أن ثمة شيئًا غامضًا كاسحًا في كل ما يسمعه، وأحس تمامًا كما يشعر أحدنا وماء البحر يدخل فمه، لكن الوحيد الذي كان متماسكًا وصلبًا هو سعد سالم الذي ثقب نظره وجه يوسف طالبًا منه أن يهدئ الدكتورة «ريتا».. فلم يستجب يوسف ولعله لم يفهم، فصرخ سعد:

ـ اهدئي من فضلك يا دكتورة «الشيخ رزق لا قتل ولا نيلة».. بدليل أن الرئيس خرج من غرفته بعد رحيل الشيخ رزق وسألني أنا واثنين من زملائنا:

ـ أمال الشيخ رزق راح فين؟!

٢٥

عندما أخبره مدير جهاز الأمن الوطني اقتحمه فيروس يخرب موتور السياسي داخله فخرج عن شعوره وتمتم:

ـ يعني نخلص من رئيس لم يكن أحد يعتقد أنه سيموت أبدًا ليأتي رئيس نعتقد كل يوم أنه سيموت صباح الغد.

ثم عاد هو لشعوره مخافة ألا يعود شعوره إليه.. لكن كلمات وزير الإعلام الفالتة خربشت في أذن مدير الجهاز الذي أدرك أن الموضوع لا بد له من ستارة غموض كثيفة ومحجوبة.. طلب من وزير الإعلام أن يأتي بسرعة إلى المستشفى العسكري لوضع ضوابط كابحة حيث يمكن لكل صواميل النظام أن تنفك الآن.

كانت ليلة مراوغة وثعلبية الهوى، بدأت بانشراح وزير الحرب ورضاه وصفاء ذهنه وتوقد مشاعره، ومداعباته لضباطه ومسامراته مع مسؤوليه، واستقبال وفود متأخرة في ساعة متأخرة من الليل في مكتبه الذي ألحق به غرفة منامه ومعيشته منذ قرار ترشيحه رئيسًا، وحين مضى الوفد إلى حال سبيله، طلب وزير الحرب كوبًا من النعناع وأشعل سيجاره الكوبي

الفخيم الذي لا يشعله إلا في لحظات انتشاء نادرة وعزيزة، وعاد بمقعده إلى الخلف واهتز به ودار قليلًا، ثم لف دورة كاملة فأعطى ظهره لمن يدخل، وهجع بيده على مسند المقعد العالي.. دخان السيجار يحوم حول رأسه في دائرة لا تكتمل ولا تستقر أبدًا، دخل ضابطه بكوب النعناع وحيا وزيره الذي استغرقه تفكيره في غيمة وعي عن ضابطه، وضع الضابط كوب النعناع ومضى خارجًا، لكن حشرجة خفيفة خفيضة استوقفته فتمهل في سيره وعدل وجهته وعكس اتجاهه ومشى نحو الوزير الذي لم يكن باديًا منه سوى ظهره. كفه اليسرى بارز منها سيجار يتبختر دخانه في دعة من تركه ينطفئ، همس ثم علا صوته:

ـ سيادة الرئيس.. سيادة الرئيس.

ثم تجرأ فاقتحم الفضاء المحيط بوزير الحرب فإذا بوجه الضابط يمتقع وتكاد ملامحه تذوي على وجهه.. أسرع مندفعًا نحو زر الإنذار العاتي، فضغط عليه، فانطلقت فهود من مكانها تبحث عن المصيبة التي انحدفت عليها.. كان مكتب وزير الحرب قد امتلأ تكدسًا بالضباط الساهرين اليقظى.. وكان كبير ضباطهم يطلب سيارة إسعاف فائقة التجهيز لنقل وزير الحرب إلى المستشفى العسكري.

وصل وزير الإعلام حيث كان ينتظره مدير الجهاز الوطني ووقفا مع عدد من كبار قادة وزير الحرب أمام النافذة الزجاجية المطلة على غرفة العناية المركزة التي ينام فيها وزير الحرب، وقد هدأ تنفسه الآن، وانتظمت دقات قلبه، وبرح الخطر مكانه وبدأ يستعيد وعيه بانتظام، لكن ابتلال تفكيره بالعجز واعتلال عقله عن اتخاذ قرار جعله يستشعر في استسلامه للرقود سلامًا من غزو أفكار سوء لا قبل لصحته بها في تلك الساعة النَّحِسة..

كان يعرف ـ لعله لم يعد يعرف سوى ذلك ـ أنه بعد ساعات قليلة سوف تفتح أبواب لجان الاستفتاء لتعميده رئيسًا للبلاد.

وهو هنا قعيد أسلاك في فمه وعند رسغيه ومحاليل موضوعة في عروقه، ورداء بلا كنه، أبيض، مفتوح الظهر، مربوطة فتحاته بأربطة مثل فيونكات البنات الصغيرات، بينما عري ظهره ومؤخرته وساقيه مفضوح في ذلك الرداء، فأي رئيس يقبل منصبه في عري الختان هذا.. أحس وجع قلبه يضرب في وجع كبريائه وكان يظن أن شرايينه الجديدة سوف تصمد أكثر مما هو بائن.

قال وزير الإعلام هامسًا:

ـ والحل الآن.. اللجان بعد ساعات.. ثم لا بد من تصويره وهو يدلي بصوته في لجنته الانتخابية حيث تنتظره كل وكالات الأنباء.

لاحقه مدير الجهاز بالهمس ذاته:

ـ وأظن أنه لا بد من إدلائه بتصريحات للصحفيين بعد خروجه من اللجنة.

أومأ برأسه:

ـ قطعًا.. فضلًا عن أنه لا بد أيضًا أن يمر على أكثر من لجنة انتخابية مختارة بعناية كي يحاور المواطنين، ويبدو في منظر الساعي إلى أن يحوز أصواتهم، وقد أعددنا فرقًا للموسيقى وأطفالًا بالأعلام وبنات بالورد وعددًا من الوزراء لانتظاره في كل لجنة مختارة للتصوير.

قال مدير الجهاز:

ـ يا رب لم نفرغ من مصيبة حتى تأتي غيرها.

ثم استدار ونادى على أحد معاونيه وأملاه بعض الأوامر، ثم التفت لما انصرف معاونه وطلب من كبير قادة وزارة الحرب استدعاء مدير المستشفى وخبراء القلب لديه، ولو استلزم الأمر إحضارهم بالدبابات، لكن كبير القادة قال له بحزم:

ـ كلهم هنا.. لم نترك واحدًا في بيته منذ عرفنا بحال الرئيس.

ابتسم وزير الإعلام في سره فقد صادفته الدبابات في كل رقعة يعبر إليها في العاصمة، حتى إن الدبابات كانت تتجول في إشارات المرور شأن السيارات العادية، ولا ينسى المشهد الذي صوره أحد مصوري وكالات الأنباء، مما اضطر إلى منع الصحف التي نشرت الصور من دخول البلاد؛ كانت الصورة عبارة عن دبابة واقفة في إشارة مرور وبجوار عربة كارو يجرها حمار عجوز وعلى مقدمة العربة يجلس عربجي حاله أكثر سوءًا من حماره، لقد كان الجنود يجلسون على الأرصفة من ميدان لآخر، يحتسون الشاي، ويجوبون الطرق، ويدخلون ويخرجون من المباني، واختفى ضباط المرور وعسكر الداخلية واقتحم أزيز مراوح الهليوكوبتر سماوات وفضاءات كثيرة طيلة الأيام الماضية، وقد اتخذت أوامر بإقلاع طائرات حربية على مستوى منخفض فوق سماء البلاد وخاصة في العاصمة، وقد لعبت أعداد من الطائرات ألعابًا بهلوانية في السماء بألوان وأطياف كانت فرجة فرحة للمواطنين.. كان المطلوب ألا يكون الأمر كله استعراضًا للقوة لِبَث الرهبة بقدر ما كان مرغوبًا أحيانًا أن يكون عرضًا للحب والمودة التي تربط البنادق بالفنادق، والمدافع بالجوامع.

بعد لحظات بدأ اجتماع خفي حفي بقضية تمكين قيام الرئيس بأداء

مسؤوليات ومهام يوم الاستفتاء من دون أن يظهر في حالة إجهاد وتعب، أو من دون إعلان اعتلال صحته أو تسرب هذه الشائعات كالعادة.

أحد الأطباء الخبراء أعلن صعوبة المغامرة والموافقة على قيام الرئيس بأي مجهود يجهده ويؤزم من حالته التي تحتاج إلى راحة لا تقل عن أسبوع لا يقوم فيها بأي من متطلبات منصبه، وأن يبتعد عن أي توتر عصبي أو نفسي.

تبادل مدير الجهاز مع كبير القادة مع وزير الإعلام نظرات اتهام هذا الطبيب بالجنون، قال مدير الجهاز:

ـ لنكن واضحين ومحددين، نحن هنا من أجل خلق إمكانية لا غنًى عنها ولا بديل لها في ظهور الرئيس غدًا، غدًا إيه؟ بعد ساعتين ثلاث أمام لجنة الاستفتاء، وأن يزور أيضًا أكثر من لجنة في جو احتفالي.. هذا كلام لا مناقشة فيه، المناقشة في كيفية عمل ذلك.. فأرجو أن تتجاوزوا معنا نقطة إظهار الخطر وندخل في الموضوع.

عاد نفس الطبيب للكلام واستبان الآن مدير الجهاز ملامحه، كان أحد علامات الطب في البلاد وأستاذًا كبيرًا له مراكز لطب الحالات الحرجة باسمه في مستشفيات كثيرة.. قال بثقة تغيظ:

ـ أظن أن هناك شخصيات تحمل نفس شبه الرئيس وملامحه.. يمكنها أن تقوم بمهمة الظهور أمام الكاميرات مع بعض الحيل الصغيرة وندع الرجل في راحته القلبية.

تعامل مدير الجهاز مع هذا الاقتراح باستخفاف فقال:

ـ لا تكثر يا دكتور من مشاهدة الأفلام البوليسية بعد مواعيد العيادة.

قال الطبيب بشجاعة عدم معرفة مَن المتحدث أمامه:

ـ إذن علينا أن نعترف أن الأفلام البوليسية أكثر تقدمًا من أجهزتنا الوطنية.

اشتعل توتر في سقف الحجرة، خفف منه وزير الإعلام حين قال:

ـ طيب نسمع آراء بعض الإخوة معنا من الأطباء.

قال مدير المستشفى:

ـ في الحقيقة الوضع طبيًّا يختلف عن الوضع سياسيًّا تمامًا ولازم نعرف الآن من سيدير هذه الأزمة، الطب أم السياسة؟

تدخل كبير قادة وزارة الحرب حازمًا:

ـ السياسة.

وتدخل وزير الإعلام ملطفًا:

ـ بمساعدة الطب طبعًا ومن دون أن نستطيع الاستغناء عنه أبدًا.

وثب الصمت على المكان في انتظار من يحسم الأمر وينتقل إلى الحل. انبرى أصغر أطباء المستشفى العسكري الموجودين بالمكان.. قال مستغلًّا فراغًا من الصمت سمح له بالولوج إلى آذان الواقفين:

ـ إذن الحل في سيارة إسعاف فائقة التجهيز، يعني الموجودة لدينا، مع تزويدها بأجهزة طبية تجعل منها في مستوى العناية المركزة، ثم وجود فريق طبي كامل في السيارة وفي نفس التوقيت هناك سيارة أخرى مفتوحة على سيارة الإسعاف بحيث ينتقل منها كرسي متحرك

حاملًا الرئيس حيث يرتدي ملابسه في السيارة الأخرى التي ينزل منها أمام الناس والمصورين.

كان أول من تفاعل مع الاقتراح مدير الجهاز الذي استفسر:

ـ طيب وهل معقول يبقى فيه سيارة إسعاف في موكب رئيس؟!

رد الطبيب الشاب:

ـ لا.. ليس معقولًا.. لذلك يجب ركوب الإسعاف داخل شاحنة عسكرية وجودها في موكب الرئيس مع هذه الظروف التي نحياها أمر أكثر عادية من ظهور عربة إسعاف.

أضاف وزير الإعلام:

ـ حل رائع.. لكن ماذا عن الرئيس نفسه؟

رد الطبيب الشاب وكأن لديه حلًّا لكل شيء.. يشغل مخه في انتعاش وألق:

ـ أظن أن الرئيس مقاتل، بمجرد معرفته خطورة الوضع سوف يتقوى ويتحامل على نفسه، وبقي عليكم الإسراع بكل خطوات التصويت والتصريحات حتى لا نثقل عليه.

وجد مدير المستشفى نفسه في حالة من لا بد له أن يتدخل، فالأضواء كلها سرقها طبيب شاب طموح وخياله متربي على ألعاب الكمبيوتر:

ـ في هذه الحالة أقترح أن يكون هناك عدد ضخم من الجماهير يهتف ويعلو صوته ليغطي على ضعف صوت الرئيس ويقاطعه بما يسمح له بالتقاط أنفاسه.

قال الطبيب الشاب كأنه يصر على القفز من الطائرة بلا مظلة:

ـ ويستحسن أن يراجع السيد وزير الإعلام بنفسه صورة الرئيس على الشاشة وفي الصور الصحفية التي سيتم التقاطها حتى لا تنم عن أي تعب أو إجهاد، ولمزيد من الحيطة والاستعداد من الضروري وجود سيارة إسعاف أخرى متوفرة بذات المواصفات للطوارئ أو الأمور غير المتوقعة.

قرر مدير الجهاز أن يركب فوق ثور الأحداث الهائج ويحاول أن يروضه، فتمثل كل مهام وظيفته وبدأ في التلقين:

ـ أمامنا من ثلاث إلى أربع ساعات لاتخاذ كل هذه الإجراءات والاحتياطات، سيكون طبيبنا الشاب هو حلقة الوصل بين الفريق الطبي والفريق الأمني، سيتم اختيار الفريق الطبي بمعرفة السيد اللواء مدير المستشفى، سنعتبر ما يجري في هذه الحجرة سرًّا من أسرار الأمن الوطني، وأن أي تسريب لما يجري إذاعة لأسرار عليا، ومن ثَم يخضع الذي سربها أو أذاعها أو أشار لها أو أكدها للإجراءات القانونية التي يتم اتخاذها ضد الجواسيس من خونة الوطن، وإذا انتهى اليوم على سلام فلا أريد لأي منكم أن يُحدث الآخر في هذا الموضوع، وبطبيعة الحال التعامل مع السيد الرئيس وكأن الأمر لم يحدث أساسًا.

حين بدأ الجمع في الانفكاك والانفضاض بدأ الطبيب الشهير يتكلم كأنه يحاور نفسه، وبعد بدايات الكلمات أفاق الضباط والمسؤولون والأطباء على ما يقوله:

ـ حسنًا أنتم تريدون له أن يصوت اليوم في لجان الانتخابات كي يفوز بمنصب قد لا تسعفه صحته على أن يرى نفسه فيه، وأنتم تعجلون بذلك اليوم، فليس هناك أمل في إقناعكم الآن.. لكن دعوني أتحدث معه لعلي أقنعه أن يختار حياته ويفضلها على منصبه.

نهره مدير الجهاز بعيونه ثم بصوته:

ـ الأمر لا يتحمل هذا الخرف.

لكن كبير قادة وزارة الحرب أطرق للطبيب والتفت لزملائه ثم قال:

ـ أمامك عشر دقائق يا دكتور.

دخل الطبيب متوجسًا ومهمومًا إلى العناية المركزة حيث تلاحقه العيون المزدحمة والمتكالبة من وراء الزجاج، بينما وزير الحرب يضمر تحت أجهزة التنفس وتحدق نظراته في السقف باحثة عن منفذ للسماء، تتوالى أمامه سماوات زرقاء بنجومها البهية في صحراء المواقع العسكرية، أو غيطان قريته البعيدة، وسماوات البلاد الغريبة التي سافر إليها.. والسحب تطل عليها الطائرة التي يركبها، سحب من اللون الأبيض المنفوش والرمادية الملفوفة وزرقة السماء المخبأة، والأرض المحجوبة، كان يشعر أنه يجلس في مقعد في طائرة تحلق فوق أطنان من القطن وغزل البنات وقطع الإسفنج وفلين الكراتين، كانت روحه مسحوبة وإرادته مع ما تبقى من هزال جسده حين همس الطبيب الذي أدرك ملامحه المقتربة منه بوضوح:

ـ كيف أنت الآن يا سيدي؟

ـ الحمد لله.. بخير.

في هدوء حكيم قال الطبيب:

ـ الإخوة في الخارج يريدون أن يأخذوا سيادتك إلى لجان الانتخابات، وهم يستعدون بسيارات إسعاف مجهزة وفائقة القدرة والتكنولوجيا، ليكن اعتبارها مستشفى مصغرًا أو غرفة عناية مركزة صغيرة.

رد بوهن:

ـ عظيم.

قال الطبيب:

ـ لكنني بوصفي الطبيب المعالج لا أرى الأمر عظيمًا، والموضوع فيه خطورة على صحتك وعلى حياتك.

ـ الأعمار بيد الله يا دكتور.

ـ صحيح الأعمار بيد الله، لكن منعك من الإجهاد والتوتر وقتل نفسك بيدي أنا.. وبيدك.

رفع الوزير من صوته وأشاع حيوية مصنوعة على كلامه:

ـ أنا جندي وسأدخل المعركة.

تنبه الطبيب إلى أنه يصرخ غضبًا، فهدأ وهو يواصل كلامه:

ـ معركة إيه.. كلنا نعرف أن ما يريدونك له الآن مجرد استكمال الصورة، إنهم يعملون حسابات كثيرة إلا حساب موتك أو حياتك، ثم إن الانتخابات معروفة نتيجتها سلفًا يا سيادة الرئيس.. نحن من هذه البلاد ونفهم.. هذا الكلام يخيل على الأطباء الأمريكان أو

الأوروبيين على شاشة التلفزيون وستعلن النتائج وستفوز بالرئاسة ولن يستطيع أي شخص خارج هذه الغرفة أن يمنعك.

ضحك الوزير:

ـ هل تعتقد أنني أريد أن أخرج وأكمل التمثيلية حتى لا ينصرف الناس من الانتخابات؟ إن هذا هزل يا دكتور، أنا أريد أن أخرج حتى أثبت دعائم سلطتي، لو لم أخرج اليوم لنهش في جسدي الجميع وطمع في رئاستي القريب والبعيد والعسكري والمدني.

إنني لست زعيمًا ولا تاريخ لي فاتركني أصنع حاضرًا ومستقبلًا، ثم كيف أفرط في ملك منحني الله إياه.. لقد اختارني الله لهذه المهمة لحكمة هو يعلمها وأنا أنفذها.. ثم هل تعرف معنى أن يكون مقعد السلطة الذي نمت تحت حوافره طيلة عمرك تحت أمرك؟ هل تعرف معنى النفوذ والسلطان؟ هل تدرك معنى أن يكون أبناؤك أبناء للرئيس، وفخامة وغلاوة وعظمة وألوهية هذا العرش، ربما لا يكون أي منا جديرًا به، لكن ليس هناك أحد أجدر مني به. سأقوم من سريري يا طبيبي، لأنني لو لم أقم منه اليوم فلن أقوم منه أبدًا، كما أنني لا أضمن ولا أطمئن إذا ما تراجعت ماذا سيفعل بي من يأتي بديلًا عني؟!

دعني يا دكتور إن صحتي بُمب وسأظل أحكم هذا البلد حتى يشيب أولادك.. ومن المحتمل أن أسجنك مدى الحياة حتى لا تذيع ما قلته لك الآن..

ابتسم من دون أن يعرف هو ولا الدكتور هل يهزل حين ذكر السجن، أم أنه جاد فيه!

خرج الطبيب من الغرفة ناظرًا إليهم جميعًا، ثم أمعن تأمله في الطبيب الشاب وقال مخاطبًا إياه:

ـ إنك لست موهوبًا في الطب فقط يا بني، بل موهوب في السياسة تمامًا، ومن الصعب جدًّا أن تجمع بين مهنة أساسها علاج الناس ومهمنة أساسها خداع الناس، من اليوم ابحث لك عن أستاذ غيري أو مهنة غير الطب، ثم تحول إلى مدير الجهاز وأومأ برأسه:

ـ إنه ينتظر بالداخل ومستعد للخروج معكم.

في المساء.. كان كل شيء قد تم إنجازه على خير وجه، وبدا وزير الحرب متألق الوجه، باشًّا وهو يدلي بصوته الانتخابي، وشاهد الناس كل ما يجب أن يشاهدوه بنفس الطريقة التي تم التخطيط كي يشاهدوه عليها، وفيما عدا أن وزير الحرب كاد يسقط مرتين مغشيًّا عليه، في ذهابه وإيابه للجان الانتخابات، وفيما عدا أنه وضع تحت جهاز التنفس في نهاية الليل حوالي ست ساعات.. فلا شيء عكر خطة الطبيب الشاب وظل الرئيس حيًّا.

٢٦

وصل دكتور يوسف مع «ريتا» إلى الحي الأثري القديم، ابتسم لها وقال:

ـ إن عمر بيت واحد هنا أطول عمرًا من تاريخ الولايات المتحدة.

ردت في برود:

ـ إنها قسمة عادلة إذن، الماضي لكم والحاضر لأمريكا ماذا إذن عن المستقبل.. من يملكه؟

قال يوسف وهو يتحاشى الاصطدام بالعابرين في الأزقة الضيقة:

ـ أفضل ما يفعله المستقبل ألا يأتي.. فالحقيقة أن أفضل ما فعله الماضي أنه مضى.

أمسكت بيده حتى لا يفلتا بعضهما من بعض في قلب فوج سياحي قادم نحوهما يشق تقاربهما.. عبر الفوج فتنهدت «ريتا» لما رأت الزحام خف والأضواء الكهربائية تبزغ من البيوت والحوانيت.. قالت:

ـ ألستَ قلقًا بشأن فقدان أي اتصال بأي مسؤول سواء هنا أو هناك.. أكاد أشعر أنهم نسونا ونسوا مهمتنا.

ابتسم يوسف:

ـ إننا مشغولون بدفن الميت وهم مشغولون بتوزيع الإرث، فالأمر طبيعي لا غرابة فيه.. ثم قلت لك إنهم غير مهتمين أساسًا.

قالت «ريتا» بحماس بالغ:

ـ أحسن.. حتى تنزل الحقيقة فوق دماغهم كالصاعقة، إن ظهور الشيخ رزق سوف يفك طلاسم هذه القضية ولا شك.

قال يوسف ببرود يفوق بروده السابق:

ـ أتعشم.. وأشك.

ردت عليه «ريتا» وهي تعلق نظراتها على قباب مساجد وبوابات جوامع:

ـ أما العشم فتشكر عليه.. أما الشك فليس بجديد عليك.

ثم وقفت أمام بوابة مسجد:

ـ أتعرف أن هذه البوابة هي نفسها بوابة كنيسة تم نزعها منا في العصر الإسلامي ووضعوها في مدخل هذا المسجد.

هز يوسف رأسه موافقًا وأضاف:

ـ حدث مثل هذا كثيرًا جدًّا، وحدث نفسه في الأندلس لما سقطت الدولة الإسلامية، الجوامع تحولت إلى كنائس بقدرة قادر.

وافقته «ريتا»:

ـ إنها طبائع الاستكبار وليست طبائع الأديان.

كان سعد سالم قد قال لهما على أن يبقى الأمر سرًّا إن جهرًا به نفاه وإن أكداه فلن يحصد شر ذلك إلا هما وربما بأرواحهما، إن الشيخ رزق في تكيةٍ ما في حي إمام المسلمين، ولأن هناك عشرات التكايا التي يحتلها الصوفيون حين استقرت شوكتهم بانضمام زعامات تائبة من ذوي التاريخ المسلح في العنف الديني، لم يعد مسموحًا لأي من الحكومات أن تقتحم التكايا التي اكتظت بالمريدين من كل جنس وصنف، وأن مظاهراتهم الدينية حتى مسجد الإمام وتجمعاتهم في مولد النبي صلى الله عليه وسلم وفي الليلة الأولى من شهر رمضان وليلة القدر، قد تجاوزت مليونًا من البشر في مناسبة من المناسبات، وأنهم يرسلون رضاهم عن الرئيس والحكومة في كل تجمع ويدعون لهم بالبقاء والصلاح، وقد شاهد أحدهم مرة الشيخ رزق في مرواحه وغداته لهذه التكايا، وأنه اتخذ شيخًا هناك إمامًا له وأميرًا بايعه مع مريديه، وأنهم يعتكفون ليالي طوالًا لا يأكلون فيها إلا التمر والحليب ويخلطون تلاوتهم وتراتيلهم بالحزن والنحيب، وقد شبت معارك شتى بينهم وبين أنصار السنة، وأخرى بينهم وبين فرق الشيعة، وانتصروا في المعارك بحبهم البالغ للنبي صلى الله عليه وسلم وزهدهم في الدنيا وما فيها.

وقد أنفق يوسف و«ريتا» أسبوعًا بالكامل يتلصصون على سيرة الشيخ رزق في هذا الحي، ودخلوا التكايا كلها حيث لا يصد أحد أحدًا إلا لو كان من الشرطة أو مثيري الشغب، ورأوا التكايا التي اكتظت بالبشر مهللين ومكبرين في أردية بيضاء وأوشحة خضراء وغناء رائع بطبول ودفوف تقطع القلب من حلاوتها ورطوبة قلبها، وترى الوجوه فعلًا عليها صفاء ما وورع حقيقي وسمو رباني، والأبخرة تمخر في الأسقف والوشوش باشَّة محلقة، والرؤوس حليقة تميل إلى اليمين وإلى اليسار، وراقصي

التنورة بشعورهم النسائية الطويلة والخشنة يلفون بها رقصًا وهيامًا وهي تضرب الجو بأجنحة من زرقة وخضرة مع أنغام منضبطة ودافقة في حسيتها، وجسدية تمامًا.

انسابت «ريتا» في طقوس الاقتراب من الله، ووجد يوسف راحة ما في الاحتشاد لليالي طويلة في دفء مثل هذه الحلقات والدوائر، وبات مأخوذًا بالذهاب الروحاني في تحليقات جسدية مطوية على غريزة مروضة حفية بالحياة، على الرغم من زهدها الماثل. كان شراب الشاي هو الوحيد السائد في التكايا بفناجينه الصغيرة دقيقة الحواف خشنة الملمس، ولم يكن هناك إلا عسل النحل وسيلة لتحليته بدلًا من السكر، وقد امتلأت التكايا كذلك بزروع من نعناع مطلوق في كل مكان، سواء عند حلبات الغناء والدروشة، أو في مداخل التكايا، على أسوارها العالية، حتى زرع في قلب الجداريات كالنقش الحي الأخضر على سطوحها.

مالت عليه «ريتا» وقد أغرقها العرق بعد احتدام راقص مدو بالتحليق إلى فراغ الروح من تمتمتها وتعقدها.. قالت «ريتا» وهي تنهج:

ـ لم تسألني أبدًا يا يوسف من أنا؟

كان يوسف قد مدد ساقيه ووضع إبريقًا من الشاي الأخضر في كفيه، كلما عبر شخص مد له يده بالإبريق فأخرج الآخر فنجانه فصب فيه يوسف الشاي وعاد الإبريق إلى حضنه، قال يوسف:

ـ الحيرة موجودة طبعًا والسؤال «من أنت؟» لم يبرح ذهني.. لكن قلبي تتبع خطوات روحك، فلم أكن أعرف إلا ما أراه لكنني أخشى ما لا أعرفه.

في هيام باللحظة حتى انخلاع القلب وجدًا قالت:

ـ أمن الممكن أن لقاءنا في زحام هذه الأحداث الأسطورية وفي مصادفة إلقائنا من سفينة فضاء إلى أرض، فقدنا فيها المعرفة، وفقدنا عليها الاتصال بسفينة الفضاء، أمن الممكن أن يكون هذا مبررًا للقرب لهذا الإحساس المهووس بحنان مغمور تجاه هذا المكان.. إحساس حسي له دفق النشوة وهيجان السحر؟

قال يوسف وهو يسقي رجلًا شايًا:

ـ أنت سيدة مشتعلة بالمشاعر، تستولد فيها كلما خطوتِ قدمًا تدارين بعنفك المصطنع ورجولتك المؤلفة ضعف امرأة في قلب عاصفة.

قالت «ريتا»:

ـ أَوَتدري يا يوسف، أنني رأيت في حياتي ما أشك أنني أتوهمه؟ إن جدي كان مصريًّا، طبيبًا مصريًّا قبطيًّا سافر من القاهرة إلى لندن لاستكمال دراسته العليا في الطب، وتعرَّف هناك على طالبة فرنسية تدرس الفيزيقا، تزوجا وبعد عامين سافرا إلى أمريكا، فإذا بالسفر يتحول إلى إقامة دائمة، أنجبا هناك والدي وماتا معًا في يوم واحد ولحظة واحدة، ودونما حادثة ولا كارثة، ناما على سرير واحد، وماتا عن عمر طويل من الركض في الحياة والبحث عن معنى. والدي اشتغل طبيبًا هو الآخر، تعرف على فتاة سورية كانت تدرس في أمريكا، تزوجا وبعد فترة من الزواج جئت أنا.. وإذا بأبي وأمي يموتان معًا بنفس طريقة الجد والجدة، لكن هذه المرة عن عمر في الأربعين، فأخذتني الأيدي وتلقفتني الأسر، فنشأت على البحث

عن هوية وعالم أنتمي إليه، وألقيت بنفسي على أصل جدي وروح أمي، على الشرق. درستُ آثار الشرق الأوسط، زرت مصر ثلاثين مرة تقريبًا، سكنت في دار السلام وإمبابة غالبًا، تكلمت العربية والعامية المصرية كما تنطق بها بائعات السمك، كتبت كتبًا ورسائل في السياسة عن الشرق الأوسط، خضت معارك ضد الصهيونية والتعصب والتفرقة العنصرية، تعرفت على رجل أمريكي كان غرامي به خرافيًّا، كان ضابطًا في الشرطة ملتزمًا وأمينًا ومحبًّا لي، وحينما تم الاعتداء على شخص أمريكي أسود وتعذيبه، كان مسجونًا متهمًا في جريمة ما، تعذيب الشرطة له أدى إلى قتله، إذا بالاتهام يطول زوجي مع مجموعة من الضباط، وإذا بي أعرف لأول مرة أنني تزوجت عنصريًّا غليظًا عنيفًا. فقدتُ المظاهرات وتقدمت المسيرات مطالبة بتقديمه مع زملائه إلى المحكمة، وكنت حديث المجتمع الأمريكي كله بإعلامه وجنونه بالحياة الخاصة، اليمين جعل مني نموذجًا للزوجة الخائنة، واليسار جعل مني شهيدة المثل العليا.. أما أنا فقد انكسر قلبي من يومها وعلا اسمي وبزغ نجمي، دخلت علاقات مشوهة، وسافرت وتعبت وأرهقت وتعالجت نفسيًّا.. ثم لا شيء، نموذج لخليط من حضارات الشرق والغرب، العرب وأوروبا، أمريكا والعالم الثالث، البيض والصفر والسود. بالمناسبة بعد الحكم على زوجي وطلاقي، فكل الذين دخلت معهم علاقات كانوا من السود أو ما شابه. طوال الوقت في اهتمامي بالشرق الأوسط في نومي مع السود، أطارد عقدة ذنب غريب وعاتٍ.

اندلعت دفوف بأكف مترعة بالنشوة فلدغت «ريتا» بالجنون، قامت واندفعت واندمجت في رقص محموم مع صفوف من رجال بدأوا في

غمرة التفقير فاقدي الصلة بالعالم. يوسف فوجئ برجل ملتح لحية طويلة كثيفة لكنها ليست منفرة أو مشعثة، ويرتدي جلبابًا أبيض وشالًا أخضر، ويلف رأسه بعمامة بنية حولها وشاح أبيض ملفوف بعناية، هذا الرجل يمسك بيد «ريتا» المذهولة المأخوذة، ويقتربان منه وهو جالس بلا حركة.. همست «ريتا» فلم يسمعها، ابتسم الرجل بوسع فمه وبوسامة فطنة وقال:

ـ إنها تخبرك بأنني الشيخ رزق بركة!

٢٧

قادهما إلى فناء خلفي للتكية، خرجوا إلى ممر ضيق وقصير ومسوَّر بالحجارة إلى منزل بدرجات سلم شديدة الضيق حتى الاحتكاك والتعثر، ثم يصعدون إلى سلالم ملتوية صخرية ذات نتوءات حادة، وصلوا إلى سطح مشرق بأضواء شعلات من النار المحاطة بأسيخة قصيرة من نحاس، ومثبتة على أعمدة في قلب مربعات السطح، السطح نفسه بلا سور، لكن تستدير مع دورانه أشجار قصيرة متشابكة ونباتات متسلقة، جلسوا على سجاجيد وأكلمة ذات ألوان فاقعة في زهوها، كان جسد رزق لا يزال على عسكرية تفصيله، ورياضية تكوينه، يبدو أكثر نحافة داخل الجلباب الفضفاض، وكانت بشرته الخمرية تتوهج في انعكاسات حمرة النار المشتعلة وعيونه لامعة بتلك الشعلات المهتزة داخلها من استقرار نظره على النار في طقطقتها وأكلها فحمًا أو خشبًا.. قال بصوته الخشن الآمر:

ـ حسنًا.. وصلتما أخيرًا.

قال يوسف:

ـ نحن لم نصل، أنت الذي عثرت علينا.

ابتسم رزق:

ـ لقد أغواكم المقام في الحي وأغراكم صفاء التكايا حتى كدتما تبلغان نسياني فقلت أذكركما بنفسي.

اندفعت «ريتا» وقد انجذبت إليه على نحو مراهق ومفضوح:

ـ كيف وجدتنا؟

ـ ليس صعبًا العثور على خواجاية رائعة الحسن وأفندي في هذا الجو، خصوصًا أنتما لم تبذلا جهدًا في إخفاء نفسيكما، كما سألتما طوب الأرض عني.

في هدوء العارف بمشقة تلمس الحقيقة:

ـ أنت تعرف طبعًا من نحن ولماذا جئنا؟

رد رزق وقد انسحبت تمامًا كل تصوراتهما عن دروشته وسذاجته وجنونه المنزلق في حكايات سعد سالم:

ـ من أنتما بالتحديد لا أعرف.. أما لماذا جئتما فواضح لأنكما اللذان حاولتما البحث عن الحقيقة فعلًا فقادتكما الحقيقة إلى هنا.

قال يوسف:

ـ كنت أتوقع ملاقاة درويش مجذوب ملتاع يهذي بالكلمات ويخرف بالحقيقة.

تداخلت مشاعر «ريتا» مع حماسها:

ـ فوجدنا فارِسًا.

ابتسم رزق وقد بدا ملكًا في هذا السطح الغرائبي الموحش مثيرًا وغامضًا:

ـ الكل قرر ألا يعرف فلماذا تصران على ارتكاب بلاهة معرفة الحقيقة.. الرجل لم يكن يستأهل أن يريق أحد دمه عليه ولا على حقيقة من قتله!

همست «ريتا» كأن صوتها يرمي بنفسه من السطح:

ـ هل تعتقد أن هناك خطرًا على حياتنا لأننا نحاول معرفة القاتل؟

أضاف يوسف:

ـ أو لأننا عرفناه؟

رد رزق في لهجة بريئة فيها رنة شفقة:

ـ لا أستطيع أن أقول إن هناك خطرًا على حياتكما.. لأن ذلك إما أن يكون معناه تحذيرًا وإما تهديدًا.. ولا قدرة لي على الاثنين.

قالت «ريتا» وهي تحاول أن تطرد عنها حرارة النار الراقصة التي دبت في بدنها:

ـ هل تتوقع أننا سوف نوجه لك تهمة قتل الرئيس؟

ضحك فظهر الفلاح من حنجرته:

ـ تهمة لا أدفعها وشرف لا أدعيه.

أمسك يوسف بعنق كلماته:

ـ هذا معناه اعتراف صريح بأنك قتلته.

تحسس رزق موضع الخشونة في نتوءات كلام يوسف.. قال:

ـ هذا معناه اعتراف صريح مني بأن قتله ليس جريمة.

رد يوسف حازمًا يشم منازلة محمومة تقرع فيها السيوف الصوارم:

ـ على حد علمي كرجل قانون أن القتل لا يزال جريمة، وأن محاكمنا تقضي بإعدام القاتل أو سجنه مؤبدًا.

منازلة مؤمن بقضية أمر ليس سهلًا على الإطلاق.. كان رزق يثبت ذلك ليوسف.. قال:

ـ ساعة واحدة تفصل بين أن يكون صاحب الانقلاب بطلًا زعيم ثورة ورئيس أمة، أو يكون خائنًا وعميلًا وسجينًا ومعدومًا.. ماذا يقول قانونك عن هذه الساعة يا دكتور؟

لمَّا صمت يوسف أكمل رزق:

ـ بالمناسبة هنا في التكايا أساتذة قانون مثلك وربما أساتذتك وأطباء وعلماء ذرة ومهندسون وفنانون.. لسنا مجموعة من الصبية المغرر بهم أو دراويش مغمورة عقولهم في التفقير والنواح.. إن مدنًا بالكامل تدار من تحت أرض هذه التكايا، عالم بكل تفاصيله غارق حتى الثمالة في البحث عن حل لتعقد روحه.

عادت نبرة التحدي ليوسف:

ـ هذه صوفية جديدة.. تقتل وتحكم هذه الأيام!

ضحك رزق ساخطًا:

ـ أو هناك كمثرى مثل كمثرى زمان، إن بها بعض الطعم، بعض الشكل، لكنها لم تعد الكمثرى التي تجنيها من على الشجر، هل الفراولة لها ذات الشكل والطعم القديم، حتى الخيار يا رجل.. جينات الفواكه والخضار تغيرت، فلماذا تستكثر على الأفكار أن تغير جيناتها.. إنها صوفية مهجنة، أو ليست صوفية على الإطلاق وما يضيرك من الاسم؟

ثم التفت إلى «ريتا» وقال لها برقة:

ـ إنك تلاقين واحدًا قصيرًا وأصفر وعينه ضيقة.. يطلع إنه شخص أمريكي.

وقطع جملته وأقحم فيها الأخرى مباشرة:

ـ إلا «مكربي» دي يا دكتورة يعني مغربي بالعربي.

صفقت بيدها مستثارة تروي بئر حرمانها بحماس العذارى:

ـ فعلًا.. كيف عرفت؟

ثم التفتت إلى يوسف:

ـ جدي فعلًا اسمه إدوار مغربي.

ضحك رزق وقال ليوسف مشيرًا لـ«ريتا»:

ـ أهوه يا سيدي.. مسيحي من الشام اسمه مغربي ويعيش في مصر.

تنهد يوسف وهو يرى يد «ريتا» تنسحب من إناء قضيتهما:

ـ نهايته.. كيف كانت طبيعة علاقتك بالرئيس إلى الحد الذي كنت الوحيد المتاح له دخول غرفة نومه.. وموضع ثقته؟

تراجع رزق برأسه للوراء وصرخ خالطًا البلاهة على الشيطنة:

ـ حامي أنت يا دكتور قوي.

حدة يوسف في عينيه التي بدت له لأول مرة مكحلة بسواد فحيم وطازج:

ـ كفاية يا عبد الرازق.. لقد لعبت دور عبيط القرية بكفاءة فترة طويلة.. لنتكلم الآن عن حق وبصراحة وبلا أقنعة.

زجره رزق بنظراته وطق منها طقطقة شر:

ـ إذن لا تعاملني كمتهم.. ولا توجه إليَّ أسئلة تحقيق.

ثم رق وأضاف:

ـ اسأل كصديق تهمه معرفة الحقيقة.

أومأ يوسف من دون رد، لكن من دون نفي أو رفض، فأكمل رزق:

ـ لقد كان من الصعب أن يرى الرئيس ورجاله ورفاقه زاهدًا في قلب دائرتهم.. وكان عصيًّا على فهمهم أن يعزف المرء عن السلطة والنفوذ والمال والقرار، فلما رأوا فيَّ هذا الرجل صرت تحفة مقتنية واكتسبت ما يكتسبه عبيط القرية كما قلت أو شيخ القرية كما أقول من مكتسبات الجرأة في الكلام، حتى التطاول والتندر على الجميع والغياب والإياب كأنها مواعيد سماوية وترتيل القرآن في أي محفل من دون أي سابقة.

كتم رزق ضحكة ندت ـ على الرغم من جديته ـ وذكر لهما سببها:

ـ أبدًا.. افتكرت كنا في استقبال ملكة هولندا في المطار وقد أصر الرئيس على أن يستقبلها هناك مدعيًا أنها بتكرمه قوي لما يزور هولندا، كان الموضوع أنها ملكة شابة في زهو جمالها، وكان هو من أحرص الرجال على ترضية نساء الحكم بدءًا من الغزل وانتهاء إلى التفريط في ثروات البلاد لو أردن منه ذلك، دعني أقل لك إن هذه الملكة زارته في الحكم مرات عديدة قبل حضورها، بل منذ توليها عرشها، وحتى زيارتها للبلد وعودتها منه، كان إذا أتيح له أن يرتد مراهقًا فإنه لا يتورع عن ذلك مغتنمًا أية فرصة، المهم كان يسير معها أمام حرس الشرف والعزف الوطني للسلامين يدوي، وإذا بي أرى ميكروفونًا أمامي لا أعرف من أين ارتمى عليَّ، كان ميكروفونًا مخصصًا لأية نية للزعماء أن يخطبوا أو يدلوا بتصريحات لجمع ما في ساحة المطار، فإذا بي أنتع ربع القرآن من سورة طه أمام الميكروفون، وأفسد حرس الشرف، وانتابت الجميع فوضى ورعدة، وأنا أرفع صوتي بعزم في طه، طه، طه، والرئيس قاعد يقول لهم حد يندهله طه يا جماعة ويخلصنا.. وفين وفين لما فهم أنني أقرأ من سورة طه وأنها إحدى نوباتي المهووسة، ولم ينقذ انفلات الموقف يومها إلا تصور ملكة هولندا أن هذا غناء ديني مقصود منه تكريمها وتحيتها، وأول ما أدرك الرئيس فهمها الساذج، ابتسم لي وهو يشيح بيده:

ـ بركاتك يا شيخ رزق.. ادع لنا يا مولانا.

ثم مال عليَّ بعدها ونحن في صالة كبار الزوار هامسًا:

ـ وكان فيها إيه لو قلت ربع من سورة يوسف وحكايته مع زليخا، مش كانت فرصة نشرح للملكة معاني الكلمات يا مغفل.

غرقت «ريتا» في ضحك متهتك إن لم تكن غيرة بائنة أو نقمة ظاهرة منه عليها لربما حسبه يوسف ضحكًا رقيعًا.. قال يوسف:

ـ آه لقد كنت ممثلًا مدهشًا، لكن أليس في الأمر سذاجة زائدة عن اللازم، أن تخيل الحيلة عليهم جميعًا من رئيس وقادة وضباط؟

رد رزق:

ـ ربما يا دكتور، لكنك تتصور في هؤلاء الناس ذكاء ليس فيهم إلى هذه الدرجة وتنفي عنهم بلاهة وسذاجة موجودة إلى هذه الدرجة، ثم من قال إنه كان تمثيلًا؟.. إطلاقًا.. كل ما في الأمر أنني قررت أن أقول رأيي بصراحة وأفعل ما أفكر فيه من دون تفكير، وكانوا هم يتلقون هذه الجسارة على أنها مس من الجنون يوحي بالدروشة، بالبركة، بالطيبة.

اقترب يوسف برأسه في المساحة الفاصلة بينهما:

ـ هل تسمح لي أن أتمتع بمثل ما كنت تتمتع به من جسارة وجرأة وأقول رأيي بصراحة من دون مواربة؟

بثقة بليغة رد رزق:

ـ أنا أرى أنك قبضة ذراع يمكن أن تخبط، لكن لا يمكن أن تتحرك لوحدها..

ـ أنت قفاز من يا سيد عبد الرازق؟

رزق ضحك حتى الصخب، ثم قال من دون أن ترجف نقطة فوق حرف من كلامه:

ـ أنا قفاز من لا قفاز له.

ـ أشك.

ـ أثبت.

ـ أصبر.

ـ حاول.

ـ مؤكد.

ـ أتعشم.

ـ أتمنى.

ـ واثق؟

ـ مؤمن.

ـ حماقة.

ـ ذكاوة.

ـ خيال؟

ـ احتمال.

ـ ستفشل.

ـ ستندم.

ـ سنرى.

ـ ستذهل.

ـ كبر دماغك.

ـ صغرتوا دنيتي.

ـ تعال معانا.

ـ منْ وراءك؟

ـ ورائي منْ أمامك.

ـ التفت وواجهني.

ـ اجرِ واسبقني.

ـ لست مجذوبًا، ولكنك لست شيخًا.

ـ لست جبانًا، ولكنك لست شجاعًا.

ـ سأصل للنهاية.

ـ نهايتك.

ـ وماله؟

ـ خسارة.

ـ مكسبي أن تخسروا.

ـ من أجل الحق.

ـ من يحدد الحق؟

ـ الله.

ـ اسأله.

أشعراها بالإجهاد وقد تجمدت أنفاس «ريتا»، ولعُها بغموض رزق

وفتوته وروحه ورسالته وجسارته وزعامته ومشبوبة بشبوب شبابه انحازت إلى رزق، حتى التماع عينيها باليقين تجاهه، حتى رغبتها حارقة وموجوعة وشبقة في تشبيك ذراعها في ذراعه تعريها، فإذا فتول عضلاته وزغب شعره ولهب جلده يكتنفها في شمول النشوة مترعة بهذيان الروح المحلقة والوجد المفتقد حين واصلا حوارهما، قال يوسف:

ـ نرجع مرجوعنا لوجعنا.. كيف قتلته؟

وضع رزق قنبلته في جيب بنطلون يوسف حين قال:

ـ رحت أقتله لقيته مقتولًا.

تناثرت الدهشة شظايا انغرست في جلد ثلاثتهم.. دوت الكلمات فطغى لهيبها على مشاعل النار، على طقطقة الشرر، على رفرفة الهواء للنار.

قال رزق:

ـ إليكم الحقيقة كاملة كأنها نزلت هكذا من بطن أمها.. لم تقطع حيرتها ولم يمسح بللها ولم يجف دمها ولم تلبس فستانها.

كنت قد غبت في التكية على غير ما اعتدت أن أفعل، وعلى غير ما اعتادوا أن يتحملوا، وكانت روحي قد ضاقت، وقلبي قد انخلع وهمتُ في هيام الحزن الوشيج، عشت أيامي مصليًا من دون شحذ للنفس، مرتلًا قرآنًا من دون غموسه بالروح، أيام صدئة وخيالات غير مفضوضة ونواقص هواجس ونواقض وضوء حتى جاءني شيخي، لم يكن قد حضر للبلاد منذ عام أو يزيد، هللت ورحبت وكبرت وصليت وسافرت معه وتجولت وجبت ربوع البلاد وضياع العباد، والتقينا من الناس بأسود ونمور وديكة ودجاج وضباع ودببة وثعابين

وسلاحف.. ولما عدنا إلى التكية بأيام وليال وقد أقرض شيخي ربي قرضًا حسنًا قال لي:

أنا جئت لأن حالك تغير، وصَفْوك تعكر، وفي مجيئي راحتك وهناؤك، قم نكبر وفكر ودبر والرجس فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر، حان الموعد كأنه الوعيد وحل اليوم المجيد.

ففهمت أنه إذن بقتل الرئيس بعد صبر جاوز المدى، فذهبت بصبوات عاشق لأداء المهمة وأني أرى في كل ركن من قصره قيحًا مفتوحًا، وكل حارس شبحًا مذبوحًا، تملأ أذني أصداء أنات ضحاياه وفقر رعاياه.. استقبلوني كما يستقبلونني دومًا مرحبين متباركين، كنت قد كلمت رئيسي أنني قادم فانتظروني، وأعدني لأداء المهمة الليلية.

ـ لكن زملاءك يقولون إنك خرجت قبل نهاية ليلة الخدمة وأن الرئيس خرج بعدك يسأل عنك ولم يجدك؟

ـ فأغشيناهم فهم لا يبصرون يا دكتور.

ـ هل أنت النبي؟

ـ وما النبي؟.. أليس الرسالة، والحق، ورفع الظلم ونشر العدل.

ـ سأتناظر معك بما فيه كفايتي بعد انتهاء روايتك للأحداث.

ـ ليكن.. لقد دخلت غرفته وحكى لي حلمًا من أحلامه.. كان حلمًا يفقع في الحقيقة، كان كلما أمسك في الحلم بكرة التنس رفعها في الهواء وضربها بمضربه إذا بها تنكسر كبيضة فرخة وتنفعص في يده وتدلق السائل الأصفر على قميصه..

ـ ناقصة هيه بيض وفقع!!

ـ وفسرت له الحلم كالعادة؟

ـ أبدًا.. لم ألحق، كان ينهج على غير عادته وعيونه زائغة إلى حد ما، فقال لي إنه سوف يدخل الحمام لإسهال غريب لحق به منذ ساعة، كما أنه يشعر بضربات قلبه أسرع وكأنها مسموعة في الحجرة. قلت له أأحضر الطبيب، قال لا وضحك ربما أنني زودتها حبتين الليلة، كان يقصد لقاء جنسيًّا ومن المؤكد أن هذا لم يكن صحيحًا فلم يكن مع أحد تلك الليلة، لكن خيالاته في هذا المجال كانت قارصة في وجودها عندما تختلط السلطة بالنفوذ والإحساس بالذات والجنون بالعظمة مع خرف رجل في الثمانين.

تحدثت «ريتا» السلبية أخيرًا:

ـ وكيف عرفت أنها تخاريف ربما كانت حقًّا!

ـ حقًّا إيه يا دكتورة.. إن الرجل توقف عن ممارسة الجنس منذ سنوات على الرغم من كل الحقن والحيل والتكنولوجيا.. ثم ما لذة الجنس جنب ما طاب من لذة السلطة.. لكنه الغرور الذي يعمي ويصم.. دخل الحمام، فنمت تحت السرير نعم هكذا ببساطة كمن يستعد لسرقة مصوغات سيدة عجوز. خرج لم يجدني ففتح باب الغرفة وسأل عني أكثر من مرة على مدى ساعة، كان يغفو وأنفاسه تتحشرج وتتلاحق ثم يصحو يسأل عني وقد بلله العرق ويعود إلى السرير.

كان في إعياء ولا شك غامض وملتبس، سكنتُ وسكتُّ في مطرحي ساعات حتى أدركت الساعة الرابعة تقريبًا، قمت بعد أن هدأت أنفاسه

حتى اختفت تقريبًا وتوقفت حركته حتى خمدت تمامًا، أخذت الخنجر وقد لففت يدي بمنديل أبيض من فوق الحائط أحفظ مكانه وأعده ليوم الحدث الأكبر، بالمناسبة كنت أفتحه من جرابه وأتحسسه أحيانًا وأقبله وأقرأ عليه آيات من القرآن وشيئًا من الأدعية، أمسكت بالخنجر واقتربت منه فإذا هو جثة هامدة بلا نبض وبلا روح خاضع كلية، ميت كما الموت تمامًا، لا يتنفس ولا يتحرك ولا ينطق، مصفر ومزرق، همود وخمود وعيونه نصف مفتوحة مصبوبة في مكانها كدوائر حديد منصهر فيه سواد وفيه نار. أمسكت بيده ووضعت أذني على قلبه، أخرجت لسانه، رفعت ذراعه، صفعت وجهه، لا حس، لا نفس.. الموت وقد حضر بكل جلاله ودلاله الذي اشتقنا إليه، كثيرًا كانت في يدي قبضة الخنجر فلم أفكر كثيرًا كأنني أتمم مهمة بدأها غيري أو أكلل أمرًا دبره غيري، طعنته طويلًا وكثيرًا حتى تضرج السرير بالدم، ولاذت روحي بالراحة.

تركت الخنجر في صدره.

همست «ريتا» ملتاعة:

ـ وخرجت؟

قال رزق:

ـ لا.. نزلت مرة أخرى تحت السرير..

مبهوتان يتابعان قصته التي فتتت عظام القضية برمتها.

ـ نزلت تحت السرير، وسكنتُ وسكتُّ ونمتُ ربما ليلة وثانية وثالثة بلا حركة وبلا طعام وبلا صخب وبلا تقلب وبلا ملل وبلا خدر. دخل كثيرون بأحذية العسكر والمدنيين رفعوا وشالوا وحطوا وهدأوا

وخرجوا.. وماتت الحركة تمامًا في القصر، صحوت من النوم في أية ساعة في أي يوم في أية ليلة لا أعرف بالتحديد.. وخرجت وعدت إلى التكية.

قال يوسف:

ـ أولم يرك أحد؟

عاد فأجاب:

ـ تحسبهم أيقاظًا وهم رقود يا دكتور.

ثم بادره يوسف بالسؤال:

ـ لكن كيف مررت منهم وعبرت من البوابات من دون أن يعوقك أحد؟

رد بهدوء:

ـ ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب.

لملم يوسف شتات عقله:

ـ يعني أنت قتلته.. لكنه كان مقتولًا..

ـ نعم.

ـ بالسم؟

ـ أو بغيره.

ـ منْ قتله؟

ـ لست أنا.. أنا فقط وضعت الختم الرباني على جثته.

٢٨

وحده الآن، كأنما غمام العالم كله أمطره غمًّا حتى أغرقه في نفسه البللة المبلولة بالحزن، كأنما رقعة بول في ظهر طفل صحا من نومه ليفاجأ أن إرادته مسحوبة وبوله أقوى منه، يصارع الإنسان طول عمره بوله، من يهزم الآخر؟ في الطفولة يَدْحَرُكَ البول لا إرادة لك فيه حتى إن جاءك صرخت وبكيت ليعرف أهلك أنه يغزوك ويسيطر على جسدك، وتلقاه ـ غالبًا ـ بشعور من الخزي والعار أن تمكَّن البول منك. في شبابك شعور بالقوة والغلبة عليه. في الكبر في المرض يردعك البول، يشعرك جبنك وقشعريرتك، ماذا لو انتصر؟ ماذا لو جاء من دون أن تقوى على مقاومة تسربه؟ إنه عدو غريب منك وضدك، وجوده المفاجئ الغازي مثل غيابه واختفائه كلاهما عدو.. على الرغم من أن انبثاقه يحميك من سمه، إلا أن قرارك أنت دومًا أن تطرد سمومك وكل ما تخشاه أن يكون قراره هو لا قرارك أنت!

هل اكتشف يوسف بول الحياة على ظهره.. سُمها وزعافها ناقعًا واقعًا في قلبه؟

صرخ يوسف في الممر الضيق المعتم المفضي إلى دروب المدينة الخلفية:

ـ منْ يجفف بول هذه الدنيا.. منْ يمسح الخراء عن مؤخرة هذا الوطن؟

تردد صدى صرخته كأنما هي الحياة الصحراء الموحشة الخلاء.. يحسها يوسف فعلًا صحراء ـ لأول مرة ـ بلا سماء.

الداهية أن يكون وراء هذا الحبوط حب مجهض.. هل أحب «ريتا»؟ أم إن «ريتا» هي صاحبة مصباحه السحري القديم الذي حكته فخرج يوسف من مكمنه من ظلمته من سلامه وتسليمه إلى العالم، إلى السعي للحقيقة الذي ينقلب سعيًا إلى الحق:

ـ مال أمك يا يوسف بديكتاتور مقتول.. ومتى تبكي الشعوب سفاحيها وظالميها؟ هذا وطن كف عن أن يبكي حكامه منذ كف حكامه عن أن يجففوا طمعه، ما يتحرق رئيس قُتل.. اغتِيل.. وآخر قادم قد يقتل، قد يُغتال، وماله أحسن! إذا كان الناس لا يعرفون للنفاذ من تحت جثث حكامهم الراكبة فوق صدورهم، الجاثمة على أنفاسهم، سوى أن يغرسوا سكينًا في لحمهم حتى يتخلصوا من ثقل وجودهم.

هل هو جنون جد.. يعود إليك في تلك اللحظة، يحوز على عقلك ويملك وجدانك ويحرك وجودك.. لحظة ما صرخ جدك.. بعد أن سلم واستسلم كثيرًا ـ ضد الحاكم وضد النفاق وضد السيد وضد السادة، أهذا إرثك الغالي والمعز المذل من جدودك.

جاءت «ريتا» تنفخ في خشب متفحم فتوقده نارًا ثم تمضي بكل ما تملك مما ورثته ـ هي كذلك ـ من ملكات النحل. وقفت عند باب التكية وقد ارتجت وارتجفت من الموقف، فأسرعت خطى كلماتها تضرب في كعوب كلماتها السابقة.. قالت:

ـ أنا آسفة يا يوسف.. حقك عليَّ.. أنا غلطانة وزعلانة.. لكن أعمل إيه.. تعبانة ومهدودة من حياتي.. كارهة عيشتي وبلدي.. هنا أحسن لي.. سأجد حريتي في أسوار التكية.. واحتمال في ذراعي رزق.. عارفة أنك لن تحترمني بعد الآن.. نسيت نفسي في مكان مليء بالدخان والأبخرة وأذرع الرجال.. لكن صدقني الإنسان بيعمل حاجات كثيرة قوي في حياته لغاية ما يلاقي نفسه.. أول ما يلاقيها يبطل يعمل أي حاجة.. يفرح بلقيته على الأقل شوية.. سيبني أجرب.. لا أريد أن أكذب عليك.. من أول ما دخلت التكية وأنا بافكر أقعد.. قلبت حياتي كل ليلة قبل ما أنام أدور على سبب أخرج منها لأجله.. لا شيء.. لا أحد.. حتى أنت كده يا يوسف لكن أنت راجل عاقل.. أنا مجنونة كما تعرف.. خلاص زهقت من الأحلام التي صارت أوهامًا.. من العلاقات التي صارت ذكريات، وتركت تشوهًا على روحي وعلى جسدي، الهوية صارت سرابًا، العمر راح سدى. أما حكاية قتل الرئيس فهو يستأهل.. القاتل ليس بطلًا والقتيل ليس شهيدًا، أنت أول واحد عارف ذلك.. ثم ما أنت شفت وعرفت بنفسك.. الكل تخلص منه.. والكل أيضًا لا يريدنا أن نصل لشيء.. كما قلت.. كانوا متحمسين ساعتها وبيهزروا بينا.. وخلاص النكتة خلصت، لكن للأسف عمر اللي عايشين في النكتة ما ضحكوا.. عمرك ما سمعت إن مرة واحد صعيدي ضحك في نكتة.

ومضت..

وتركته ـ كما كل الرجال الذين نعرفهم ـ واحدًا ووحيدًا.

ماذا سيفعل الآن؟ سيواصل السعي من دونها؟ ولماذا؟

ومنِ القتلة الآخرون الذين يسعى إليهم؟

يوسف بقلب شتيت وعقل مراوغ وروح مخزولة كان الآن وحده أمام بناية من طوابق ثلاثة في حي بعيد من العاصمة، يطرق مطرقة حديد في بوابة جهمة وسط صمت سائد وهواء قوي وعاصف يثير في حي شبه خالٍ مثل هذا، عواصفه وأتربته في خماسين كأنها تطارد يوسف أينما حل.

استغرق الأمر وقتًا حتى خرج صبي صغير من الباب الداخلي وجاء حتى البوابة وسأل في فظاظة:

ـ من أنت؟

ـ دكتور يوسف رضوان.

ـ ماذا تريد؟

ـ عندي موعد مع السيدة والدتك.

ـ محدش من أخواتي عايزها تكلمك.. وهي لن تقابلك.

كاد يعري قطعة من جسده تحت قميصه ويقول للصبي:

ـ هذه لم يضربها أحد حتى الآن بسهم أو سن سكين.

أداخه الموقف وحيره.. كان قد اتصل بالقصر الرئاسي وسأل عن كبير الطباخين المنوط به طبخ الأكل للرئيس، وهو نفسه الذي كان موجودًا ليلة الاغتيال فقدم له إفطاره وغذاءه وعشاءه، حيث لم يكن للرئيس أي زيارات خارجية يومها.

كان يظن أن السر على لسان هذا الرجل.. لكن اكتشف أن السر صار في بطنه.

قالوا له:

ـ لقد مات.. مات بعد وفاة الرئيس بأسبوع تقريبًا.

ـ غريبة.

رد موظف القصر:

ـ ولا غريبة ولا حاجة، لقد جاءته أزمة في القلب مات على إثرها في المستشفى.

أيزداد الأمر غموضًا.. أم ينفجر وضوحًا؟!

تكلم في التلفون مع زوجة الطباخ.. كان الحزن قد نهب صوتها تمامًا، جاء مجرد نحنحة مبهمة وغائمة.. أذنت له بالحضور للتكلم معها بخصوص زوجها، ولما جاء في العنوان خرج له الصبي وأخرج له لسانه رافضًا الإذعان لدعوة أمه له بالحضور.

دخل يوسف سيارته وأدار مفتاحها فدار موتورها فتحركت عجلاتها فإذا بشبح يهجم فجأة على مقدمة السيارة، كبح مسيرها بالفرامل ووقف مبهوتًا إزاء ما يحدث. كان الشبح سيدة ممتلئة الجسد، ترتدي السواد، وتلف شعرها بطرحة سوداء شفيفة وتلبس نظارة غامقة كبيرة تبلع ملامح وجهها كلها.. اقتربت منه وخبطت على زجاج الباب الأيمن للسيارة تعني أن افتحه، ففتحته، فدخلت وهي تركب أعضاءها بعضها فوق بعض حتى تتمكن من الدخول الآمن.

جلست وقالت:

ـ اطلع بسرعة وحياة أبوك أحسن يشوفونا.

تردد فطبطبت على صدرها متحايلة عليه، وضربت ـ خفيفًا ـ ظهر كتفه:

ـ اطلع يا خويا أنا مرات الطباخ.

فطلع..

عندما جلسا في مكان قصي، بات شكلهما متنافرًا مع فريق العشاق الموزع على الموائد، بادرته السيدة:

ـ على فكرة أنا ست متعلمة ومتخرجة في معهد محترم، وزوجي الله يرحمه كان خريج اقتصاد وتدبير منزلي.. كان من أحسن الطباخين في البلد وياما سافر واشتغل وراح وجاء لغاية ما اختاروه طباخ الريس.. الناس حسدونا على الأملة، لكن والله من يوميها الفلوس قلت والبركة راحت، كان يقول لي هوه طباخ الريس حاجة سهلة.. فلوس إيه دي جنب وجودي مع العز والسلطنة.. لكن الشهادة لله عمره ما جاب سيرة أكتر من كده ولا ذاع حاجة ولا حكى حكاية، وكنت لما أسأله أنا ولَّا العيال كان يقول لنا أنتم عايزيني أروح في داهية.. أنتم ماتعرفوش إن فيه مخابرات ورايا وأمن بيراقبني في كل حتة.. كنت أنكتم أنا والعيال أول ما يزعق ونعدي الموضوع ونقعد نروَّق دمه علشان ما يزعلش يا روح قلبي.

ثم بدأت تنسال دموعها بغزارة فطرة الحب المدله، ببراءة الفقد العزيزة والعزيز.

فسألها:

ـ لكن ألا تتذكرين ماذا قال لك ليلة وفاة الرئيس قبل ما تسمعوا الخبر؟ لم يقل لك ولا كلمة؟ لم يحك لك أي شيء؟.. لم يتوقف عند أي ملاحظة؟.. ألم يقل أي شيء غير عادي تعليقًا على أي شيء؟

أجلت دموعها حيث هناك وقت طويل للتفرغ لها وقالت:

ـ لا والنبي ما فاكرة.. لكن هوه يوميها لم يأخذ عشاءه.

ـ هل كان معتادًا على العشاء في البيت!

ـ طبعًا.. هو يغرك أنه طباخ.. دا كان المرحوم...

وانهالت بالبكاء وهي تتحدث:

ـ... يقول: «عليَّ طباخة أحسن من طباخ الريس».

ـ تعيشي وتفتكري.. لكن ليلتها لم يأكل.. لماذا؟

ـ قال إن نفسه غمة عليه زي الستات الحوامل.. وبطنه مقلوبة، الصبح سألتُه أخبار بطنك إيه كان يا ولداه عرقه مرقه وبينهج، قلت له العرق شِفا وشرب نعناع كتير وراح الشغل.. رجع قبل ما الظهر يأذن.. تعبان زي ما يكون ح يغمى عليه، وقال لي الريس مات وساعتين تلاتة والبلد كلها ح تعرف.. مات إزاي يا خويا.. قال لي جاءت ساعة السر الإلهي وهو نايم.. راجل محظوظ ربنا رحمه من سكرات الموت. على آخر النهار كان فرهد مننا خالص، طلبنا الدكتور، جاء وقال إن عنده التهاب معوي حاد، لكن الحمد لله سليمة، وكتب له على أدوية وطلب يأكل شربة خضار مسلوقة بس.. ارتاح على الدوا يومين ثلاثة، في الرابع...

انفطر قلبها بكاء حتى ظن أنها سوف تلفظ قلبها على كوب العصير أمامها:

ـ ساعة العشاء تقريبًا تعب خالص، نقلناه المستشفى وبعدها بساعتين ربنا رحمه برحمته.

ـ والدكاترة في المستشفى قالوا إيه؟

ـ ح يقولوا إيه.. قضاء ربنا.. هوه فيه دكاترة بتأجل قضاء ربنا.

فاجأها يوسف بالسؤال:

ـ انتو المدافن بتاعتكم فين يا حاجة؟

ردت بسرعة ثم فكرت بعد أن ردت:

ـ نعم يا خويا.. ليه؟!

لم يُجب.. دفع الحساب وأوصلها حتى قرب منزلها وهي تهبط من السيارة ببطء ومهل.. سألها:

ـ ليه ولادك مانعين عليك الكلام يا حاجة؟

دمعت عيونها في صمت، ثم قالت:

ـ خايفين.. يوم ما مات المرحوم.. اتصل بنا الجدع ده المهم اللي ماسك القصر ونبه عليَّ وعلى العيال مايتكلموش مع حد على وفاة الوالد..

وقفت كلمات يوسف على أطراف أصابعها:

ـ لماذا؟

ـ أنا عارفة.. قال أصل البلد مولعة ومش ناقصين دوشة!

ـ إيه الدوشة دي؟

ـ أصل إنت مش عارف يا خويا.. ثالث يوم موت الريس مات إيشي

مهندس شاب كان بيشتغل في اسمه إيه ده حمام السباحة في القصر.. وبعدين مات زوجي.

غامت وماهت الصور أمام يوسف برهة حتى التقط أنفاسه بعدما خرجت وظن أنها لن تعود.. قال لها:

- يا ساتر.

ثم أضاف:

- لكن ليه إنت صممت تكلميني مع إني لا ضابط ولا نيابة ولا حاجة من دول؟

ردت في رقة دافئة:

- مش عارفة يا خويا.. قلبي متوغوش والمرحوم جاء لي في الحلم وسألني عنك.

- قال إيه؟

- ماقلش.. سأل بس.

مضت مبتعدة في تؤدة وزنها وحزنها الثقيل، كان رأسها يميل لأسفل ويدها لا تنزل عن أنفها، لم يحرك السيارة ولم يتحرك من مقعده، دارت حمم في ذهنه حتى فوجئ بالسيدة تقف.. تلف.. تعود إليه في شيء من العجلة.. قاد السيارة للخلف بسرعة خفيفة حتى يوفر عليها المشوار، اقترب منها، فتح شباك نافذته، ثم عدل عن ذلك فهبط إليها، فتح الباب ونزل:

- خير يا حاجة عايزاني؟

كادت تتقطع ملامحها من البكاء المحتدم وبصوت مخنوق بذل مجهودًا في فك رموزه قالت له:

ـ والله ما أنا عارفة أقول لك إيه.. أصل فيه حاجة غريبة بس والله العظيم أنا باكلمك جد.. مش عارفة ح تصدقني.

ـ طبعًا يا حاجة.

ـ أصل المرحوم قال لي حاجة بس مش عارفة والله قالها لي قبل ما يموت ولا بعد ما مات.

ـ نعم بعد ما مات؟!

ـ آه.. في الحلم.. والله ما أنا فاكرة كانت بجد وهو نايم على السرير يا حسرة قلبي ولّا في الحلم؟ أصله بيزورني كل يوم في الحلم فمش عارفة والنبي الفرق بين أيهما حلم وأيهما حقيقة.

ـ ماذا قال لك؟

ترددت ثم انسحبت من لسانها:

ـ قال: «طباخ السم...».

٢٩

وقف يوسف بسيارته أمام القصر الرئاسي، المبنى الضخم الهائل في وحشة الصحراء وصوت الصمت المدوي، ريح الخماسين تطارده هذه الأيام أينما حل. نزل من السيارة فإذا بالريح تكاد تعميه، تقلع نظارته، ترفع ذيل بذلته، ويعبئ الهواء بنطلونه، يمشي بثقل وبصعوبة حتى يصل إلى القاعدة الصوتية التي تترك فيها اسمك وعنوانك حتى يفتح الأمن لك الباب التمهيدي للقصر. لم يجد أحدًا، كأن المكان مهجور، ضغط على كل الأزرة، تكلم لكل الأجهزة المثبتة في الحوائط، لا شيء سوى طعم التراب في فمه ودوي الريح مفلوت زمامها من عقال الصحراء، يضرب في أذنه، يعرف أن الكاميرات التلفزيونية تصوره الآن وصورته تظهر على شاشات الأمن الداخلي، لكن لا أحد يعيره اهتمامًا ولا يبادله همًّا. أدار رقم التلفون المحمول، ردت عليه سكرتارية القصر بعد طنين الجهاز:

ـ أيوه.. من.. دكتور إيه.. أيوه يا أفندم.. لأ.. طب ح أحولك على مدير مكتب أمين الرئاسة..

طنين في الحرارة.. تقطع.. شفرات رقمية.. نغمات موسيقى مكتومة:

ـ أيوه.

جاء الصوت كأنه خارج من الثلاجة حالًا:

ـ لأ غير موجود.. ليست لدينا تعليمات بحضور حضرتك للقصر.. لا أستطيع أن أقدم لك أسماء أحد من العاملين.. لا أعرف.. لا أعرف.. الحقيقة ليست لديَّ معلومات.. حضرتك تترك له خبرًا.. لا لا أعرف.. لم يترك تعليمات.. لا أعرف.. بإذن الله.. معلهش نقوله الاسم إيه تاني.. آه رضوان.. أيوه.. العفو.. الله يسلمك.

حين عودته إلى السيارة سقطت منه المحفظة.. ثم طيرها الريح.. لشُدَّ ما تكون الأمور هزلية في هذا المكان.. بدأت الريح تطلق محتويات المحفظة في البراح الصحراوي.. بذل جهدًا أرهقه وأسقطه على الرمل الخشن بحصوات حادة وشظفات الأرض. عاد للسيارة مهدودًا، جلس على مقعده.. لملم أشياءه في محفظته.. دمعت عيناه ثم هدأ قليلًا وبلع ريقه، ثم نظر من الزجاج طلة، ثم انهار في البكاء مثل صبي في جنازة أبيه.. كانت يده ترتعش وهو يبكي محمومًا والدموع غزيرة سخية فياضة، تسقط على صورة تجمع بين جديه ومكتوب عليها إهداء بخطهما المشترك.. «إلى حفيدنا يوسف.. لا تنسنا»، ثم توقيع جده مكتوب تحته «الإخواني» وجده الآخر مكتوب تحته «الشيوعي» في مرح الدعابات القديمة في زمن أكثر قدمًا مما هو حقيقي.

حين كان على مشارف العاصمة كان قد اتصل بزوجة الطباخ التي استمهلته على التلفون حتى تستطيع الرد عليه، قال لها:

ـ هل عزيت زوجة مهندس القصر الرئاسي.. كويس.. تعرفي الاسم

والعنوان.. طيب أنا عايزك تروحي لها من الفجر.. اقنعيها تخرج معك ضروري.. عارفة المكان اللي قعدنا فيه.. آه.. أيوه.. الساعة التاسعة صباحًا.. آه ولا أحد يعرف.. آه هناك جديد.. ضروري جدًّا.. حياة أو موت.. أنا معتمد عليك.. الله يكرمك.. حاضر.. خلي إنت بالك من نفسِك.. آه بإذن الله.. لأ ولا يهمك.. مين.. لا لم أقابله.. إيه.. طيب.. عمومًا مش مهم.. أنا في انتظاركم.. الله يحفظك.. وإنت من أهله.. محمد رسول الله.. أشكرك جدًّا.. الله يكرمك.. بإذن الله.. مع السلامة.. سلامة.

وصل إلى الفندق، كانت رغبته حارقة في الصعود لإحضار ديسك الكمبيوتر، وصل للاستقبال طالبًا المفتاح، رد الموظف بأدب بالغ:

ـ آسف.. يا أفندم.. الغرف اتعمل تشيك بتاعها واتسدد حسابها واتسكنت صباح اليوم.

ـ وحاجتي.

التفت الموظف لزملائه باحثًا عن إجابة فتدخل آخر:

ـ الحقيقة أن الموضوع كله كان بالاتفاق مع أمن الأوتيل.. احنا خلصنا الورق فقط وواضح إن الإخوة اللي حاسبوا خدوا كل حاجة معهم.

أومأ يوسف شاكرًا وانطلق إلى الخارج شاعرًا بأن ثمة أحدًا يطارده، تذكر «ريتا» فأخفى دمعة جديدة كأن المآقي لا يفرغ دمعها أبدًا. قرر أن يذهب إلى حي قريب عتيق، كان يحبه في صباه حتى الهوس.. هناك أوقف سيارته وجلس على رصيف مقهى يفتح الليل كله.. طلب شايًا ثم أشياء كثيرة، قضت به الليلة على الرصيف متأملًا ومفكرًا مهمومًا

ومغمومًا ومثارًا ومفكرًا وناعسًا ومضطربًا، ومنتعشًا، وحاسمًا، ومترددًا، ومهزوزًا، وواثقًا، يائسًا، مندفعًا، متراجعًا، مؤمنًا، زاهدًا، ضائعًا، مبددًا، عازمًا، متوكلًا، دامعًا، باسمًا، شاردًا، وصامدًا.

جاءت متأخرة نصف ساعة وكان تأخرها قد أذاب نصف جسده مزقًا، وأحضرت زوجة المهندس، شابة في أواخر الثلاثينيات أنيقة وجميلة ومتماسكة، وإن كان التردد والتشكك والريبة حقًّا واضحين في عينيها.

تدخلت زوجة الطباخ في دائرة الصمت لتكسرها:

ـ أنا قلت للمدام على كل حاجة.. أقصد يعني حضرتك رجل مهم وبتحقق في الموضوع.

قالت المدام حاسمة باردة:

ـ خير يا دكتور.. هل تشك في شيء؟

رد يوسف:

ـ هل حضرتك لاحظت أي شيء مختلف على زوجك الراحل قبل وفاته؟

ـ الحقيقة.. حصلت له نفس الأعراض التي حكتها لك الحاجة عن المرحوم زوجها.. لكن كانت التطورات أسرع والموضوع لم يأخذ وقتًا طويلًا.

ـ ألم يقل لك أي إشارة ذات أهمية.. أي تلميح.. لا مؤاخذة خطرفة؟

ـ كان زعلان بس إنه مش ح يقدر يقعد مع الخبير الأجنبي اللي جه للإشراف على حمام السباحة يومها الصبح.

ـ خبير إيه؟

ـ خبير خاص بأحواض السباحة وحاجات لها علاقة بتقطير المياه وتطهير الأحواض وتفاصيل فنية لا أفهم فيها.

ـ ولماذا جاء الخبير؟

ـ لا أعرف.. هو لم يطلبه، لذلك كان مفاجئًا، وكان خايف حد يفهم مرضه على أنه هروب من خبير مفروض عليه خصوصًا أنهم شدوا مع بعض يومها.

ـ اتخانقوا؟

ـ آه.. الخبير صمم إن زوجي ينزل حمام السباحة بعد ما الريس مشى، وقال له لازم تعوم قبل الريس وبعده كي تعرف درجة دفء المياه ونقائها وحاجات كده..

ـ وزوجك غضب منه لهذا الطلب؟

ـ آه كانت أوامر وليست طلبات كما قال زوجي، أيضًا هو لم يكن مطمئنًا لحكاية التجارب الجديدة على المياه.

ـ تجارب؟

ـ آه.. قال الخبير جاب معاه مادة من الخارج لتطهير المياه عند درجة معينة.

ـ حد حضر هذا الحوار بين الخبير وزوجك؟

ـ لا أعرف..

ـ وهذه التفاصيل كلها حكاها زوجك قبل المرض؟

ـ حكاها كلها على العشاء.. لقد كان سر زوجي دائمًا معي.

تأمل يوسف الزوجتين المكلومتين، غطس بنظراته في دماء قلبيهما المجروحين، قال في هدوء وشجن وهو يعرف ماذا سيفعل هذا بهما:

ـ طبعًا ممكن تتعاملوا مع كلامي كأنه لم يكن.. وترتاحوا وتريحوا أعصابكم، لكن أنا لازم أقولُه حتى لو كانت هذه هي النتيجة.. أنا أشك لدرجة كبيرة في أن الوفاة في الحالتين لم تكن طبيعية.. وكما وضع أحدهم شيئًا في حمام السباحة، احتمال يكون أحد آخر وضع شيئًا في الطعام، لأن الطباخ ـ بشكل أمني وعادي معًا ـ لازم يتذوق الطعام المقدم للرئيس.. والذي وضع السم ـ إن كان سمًّا ـ كان يعرف في الحالتين سواء مع الطباخ أم مع المهندس أنهما سوف يموتان مع الرئيس.

توقفت زوجة المهندس بنظراتها عند عيون يوسف، وباحت بسؤالها:

ـ ليه.. هو الرئيس مات إزاي؟

قال يوسف وهو يضرب بيده تمساحًا على وجهه:

ـ مات مقتولًا.

٣٠

ـ منذ زمن لم أحضر إلى هذا المكان.

قالها الشيخ عبد التواب بتأثر وطعم الزمن في حلقه.

رد عليه ماضي بابتسامة فيها رعدة منعشة:

ـ والله ولا أنا يا شيخ عبد التواب.

كان النهر بزرقته ورقته وبقائه المحفور في قلوبهما، قد أيقظ دنيا غاطسة في النوم تحت جفونهما.. المكان هادئ، ووديع وخال في هذا الوقت من النهار القائظ، في هذه المساحة المكشوفة للريح من ذلك الكازينو التاريخي الذي أكسبه التاريخ أهمية وأكسبه النسيان فوضى وإهمالًا.

ـ لم يكن المكان على هذا الإهمال زمان.

قالها عبد التواب، فرد عليه ماضي مداعبًا:

ـ يا سلام ومنذ متى يهتم الإخوان بجمال الأماكن.. من أين جاءت هذه الشاعرية؟

ضحك عبد التواب فبان طقم أسنانه منتظمًا ونظيفًا ومرتبًا إلى حد أنه يشي بكونه طقم أسنان لأمراء:

ـ أهو إنت من يومك فاكر إن الشيوعيين من أمثالك هم الفنانون وأنصار الجمال ومفكروا الحرية.. أما نحن فشوية شيوخ مخرفين من بقايا عصر معاوية بن أبي سفيان.

ـ لا والله وإنت الصادق يا عبد التواب يا خويا.. من عصر المنصور السفاح.

قال عبد التواب وهو يتحسس لحيته الخفيفة البيضاء:

ـ لا فائدة منك يا ماضي.. بعد كل هذا العمر.. أنت عمرك كام سنة؟

رد ماضي باختصار موجز:

ـ أصغر منك.

رنت ضحكة عبد التواب مع نحنحة كحة وسعال خفيف:

ـ صحيح أصغر مني طبعًا.. لكن شوف عمري ٨١ سنة وصحتي تمام والحمد لله.. مش زي جماعة!

دافع ماضي عن نفسه بضراوة جادة هازلة:

ـ أنا.. أنا صحتي مالها يا خوي.. ماذا يعني شوية سكر على ضغط، على انسداد أوعية دموية.

قهقه عبد التواب:

ـ لأ وإيه.. وإنت الدكتور الطبيب العلامة.

في استسلام قال ماضي:

ـ والله كله من المعتقلات يا عبد التواب.

في حسم ولوم وتهكم:

ـ يا سلام.. إنت بس اللي دخلت المعتقلات.. يا واد أنا دخلت أكثر منك بيجي بسبع سنين.. عارف يعني إيه سبع سنين..

في ملامة بائنة العتاب:

ـ آه لكن السنين التي سافرت فيها السعودية، نغنغتك وروقتك وعوضتك أيام الشقا.

في حروف مغموسة بالشجن:

ـ بقى إنت تقول كده يا ماضي.. أنت أكثر واحد تعرف أنه لا يوجد شيء في الوجود يعوضك ظلام ليالي السجن وعلامات آثار التعذيب.

في إيمان حار:

ـ صح يا عبد التواب.. صح والله يا خويا.

عاد عبد التواب إلى نفس الدعابة:

ـ ثم سعودية إيه يا راجل يا أهبل.. أنا اشتغلت هناك مدرس لغة عربية، مهنتي التي أحبها ويشهد الله أنني لم أتقاض مليمًا من حكومتهم به دعم لي أو للجماعة وأنني اختلفت مع الإخوة الذين رضوا برعاية سعودية لهم وقلت إنني أجمد عضويتي حتى نتحرر من إغراء السلطان في السعودية هناك كما نتحرر من إغواء السلطان هنا..

صمت وهو ينهج وتتقطع أنفاسه ثم واصل:

ـ وتعال هنا يا دكتور ماضي يا بتوع الاتحاد السوفيتي والحزب الشيوعي والدعم المالي والتحالف مع حكومات تسجن وتعذب.

ضحك ماضي ملء فمه:

ـ طبعًا أنت الود ودك أغضب وأتنرفز والسكر يزيد عندي.. لكن بعينك يا عبد التواب أفندي، على إيدك أنت والحاج زمان.. أنا كنت في المعتقلات مسجونًا ومهانًا والرفاق الشيوعيون وزراء ورؤساء مجالس إدارة، كنت طبيبًا فقيرًا على قدي في أوسخ حتت في الريف، وهم هنا صحفيون وكتاب في مكاتب التكييف والرفاهية.. إحنا يا عبد التواب وش فقر إذا كنت أنا ولَّا أنت..

خبط عبد التواب كتف ماضي وسأله كمن يسأل طفلًا في السابعة من عمره:

ـ إنت بتصلي يا واد يا ماضي!

أشاح ماضي بوجهه معلنا التمرد والغضب:

ـ يوووه.. شوف برضه بيقول لي إيه..

ثم التفت له في موضع مواجهة العين بالعين:

ـ طيب يا عبد التواب دا أنا وأنت كنا فرجة بين جماعتنا، أنا الشيوعي الوحيد الذي يصوم وأنت الإخواني الوحيد الذي يسمع أم كلثوم.

ضحك مهللًا كمن قبض على جناحي عصفورة:

ـ كنت أنا وأنت كل واحد الفاسد على طريقته في جماعته.

دمعت عيونهما من التأثر والشجن، أجسادهما مليئة وعريضة وملابسهما كاملة وتقليدية ونظارات ذات طراز قديم على عيونهما وفنجانا القهوة يلفظان أنفاسهما الأخيرة.. قال ماضي:

ـ تفتكر دكتور يوسف رضوان عايزنا ليه؟

هز رأسه نافيًا وقال عبد التواب:

ـ والله ما أنا عارف.. لكن صوته كان متضايق وليس طيبًا.

متأوهًا ومتألمًا:

ـ الله يرحم جدوده، كانوا أعز الناس في قلوبنا، أصدقاء عمر وأبناء بلد واحدة وحتة واحدة ومدرسة واحدة.. بس أنتم كنتم أكبر مننا يا عبد التواب.

زعق فيه عبد التواب معلنا ملله منه:

ـ يا واد قاعد تصغر في سنك كأنك على وش جواز.

نظر له ماضي في تحديق وجدية:

ـ أنت بتقول فيها، الواحد فعلًا ممكن يتجوز ويعيد أيام مجده.. هوه احنا كنا لحقنا نتجوز في شبابنا.

دخل يوسف فانتعش قلبه وارتعش بدنه لما شاهدهما.. من الواضح أنهما جاءا معًا قبل الموعد.. اتصل بهما بالأمس.. رجاهما أن يحضرا كلاهما.. أعز أصدقاء جديه.. وأنبل من عرفتهم الحركة الوطنية.. كان

يعرف أن له دلالًا عليهما منذ طفولته.. كان يعرف أنهما ـ كلٌّ على حدة ـ يعتبرانه حفيدهما (الذي تمناه من الدنيا) لذلك كان يلجأ إلى حضن عقلهما وخبرتهما وإلى قوة ذراعين تحميانه من دوامة البحر المخادعة.

امتزجت الأحضان بالدموع، والسلامات بالابتسامات، الضحكات بالآهات، التربيت على الكتف، الطبطبة على الظهر، الحنان يبزغ من العيون، الدفء والأبوة ينفخان في الجو رائحة الربيع.

ـ خير؟

ـ مالك؟

ـ فيه حاجة وحشة حصلت؟

ـ أوح تحصل؟

ـ قول، إحنا مثل أجدادك.

ـ قول، إحنا نحميك بعيوننا.. لا يغرك أننا كبرنا وعجزنا ولا إيه يا عبد التواب؟

ـ عجزنا.. إلا عجزنا.. طبعًا شباب يا ماضي.

أخذا يحدثانه معًا وهو صامت.. حتى قرع طبلة الحقيقة وبدأ يحكي لهما.

لم يكن سهلًا على رجلين ـ هذا سنهما وذلك كفاحهما ـ أن يتعاملا مع تفاصيل الوقائع.. ضربات كالصدمات.. مفاجأة تخلع الجذور.. ريح تكسر أعواد الشجر.

قال يوسف:

ـ أنا أعرف أنني أتحدث عن الرجل الذي أعدم زملاء العمر، إخوة وأصدقاء، اعتقلكما وعذبكما زبانيته، ديكتاتور قضيتما في سجونه أجمل أيام العمر، أجهض أحلامكما وأحلام وطن.. سبق سابقيه في كل أصناف مطاردتكما وملاحقتكما.. رفضتما تحديدًا المشاركة في مبايعته ثلاث مرات، وكاد يعدمكما، وقد بلغتما ما بعد الستين والسبعين.. قاطعتما زملاءكما الذين وضعوا أيديهم في يده، وطبقوا معه الشريعة على هواه من الإعدام والتقتيل، وطبقوا معه العدالة على هواه من مناصرة الغني ضد الفقير.

أن آتي اليوم وأطلب منكما المساعدة في كشف قاتله فهذا أمر صعب قطعًا؟

قال عبد التواب:

ـ وماذا ستستفيد من معرفة القتلة الحقيقيين.. لقد عرفت أحد القتلة فماذا فعلت؟! هل تظن أنه يمكنك معرفة الحقيقة، وبفرض أنك عرفتها هل يمكن أن تعلنها؟.. وبفرض أنك أعلنتها.. ماذا ستستفيد؟

قال ماضي:

ـ قبل ما ترد على عبد التواب، أؤكد لك ـ وأنا الشيوعي القديم ـ أنني فعلًا مع قتل الديكتاتور واغتياله.. الكلام عن استبعاد التصفية الجسدية مع ولاد الكلب دول كلام حضاري لا يفهمونه.. لكن هذا ليس معناه أنني مع الإرهابيين ولا مع شوية المجانين بتوع التكايا اليومين دول.

رد عبد التواب:

ـ ما هو الراجل ده يا ماضي اللي رمى الناس في أول عهده على الإرهاب وفي آخر عهده على التكايا.

قال ماضي:

ـ لعلمك كان مبسوطًا في الحالتين.. لأن الإرهابيين والتكايا ليسوا حلولًا للبلد.. كانوا يبعدون الأنظار عن أن الحل هو التخلص منه ومن نظامه..

سكتا فجأة ونظرا إلى يوسف الذي همس:

ـ أنا لا يهمني أنه مات.. أنا يهمني أن قاتله الحقيقي غامض ومجهول وموجود وراء قفا هذا الشعب.. هم لم يتخلصوا من الرئيس لأنه حاكم ظالم.. هم تخلصوا منه حتى يحلوا محله.. حتى يستمر نظامه بكفاءة أعلى في القتل والظلم والديكتاتورية.. أنا كنت أبحث عن الحقيقة.. الآن أبحث عن الحق، كنت أبحث وراء المقتول.. الآن أبحث عن القتلة، لأنهم يمكن أن يقتلوا الشعب كله كما قتلوا رئيسه.. يقتلون من يقف ضدهم وضد سياستهم ومصلحتهم.

قال عبد التواب:

ـ وهل تعتقد أن مجرد تحليل جثة ولّا اثنتين وإثبات ـ مثلًا ـ أنهما كانا قد تعاطيا سمًّا تعاطاه الرئيس.. هل يعني ذلك معرفة القتلة الحقيقيين؟

قال ماضي بسرعة ومقاطعًا يوسف قبل أن يبدأ:

ـ لأ يا عبد التواب.. بس معناه كشف الفضيحة، رفع الملاءة عنهم جميعًا

وهم عرايا.. خلخلة النظام.. تفكيكه أو المساهمة في تفكيك قلب المائدة عليهم.. يخبطون بعضهم في بعض.. عارف ماذا سنفعل؟ سوف نقطع الخيوط التي تربط العرائس بأيدي لاعبي العرائس الجالسين فوق، فوق خشبة المسرح.

التفت عبد التواب ليوسف:

ـ الكلام الذي يقوله الراجل الأهبل ده صحيح.. يعني هذا قصدك.

صرخ فيه ماضي قبل أن يرد يوسف:

ـ ولو مش قصده يا أخي.. إيش فهمه هوه في السياسة، دا راجل بتاع عدل وحق وسيادة المستشار وسيدي القاضي ورفعت الجلسة.. إحنا بتوع سياسة والذي أقوله هو الصح.

استبعدا يوسف من الحوار تمامًا وكان يوسف على الرغم منه يبتسم من صراع الديكة بين العجوزين الرائعين.. أخذا يتبادلان الرأي والمشورة والمشاغبة والملاعنة الخفيفة والمداعبة.

قال عبد التواب:

ـ أنت ما زلت تفهم في الطب.. يعني ممكن تشرح الجثث؟

رد ماضي:

ـ يعني أنا كنت ماجستير في التشريح.. لكن عمومًا ح أرجع لكتابين ثلاثة.

قاطعه عبد التواب حاسمًا:

ـ ح تفهم ولا مش ح تفهم.

قال ماضي وهو لا يقل حسمًا:

ـ يا راجل عيب.. التقرير ح يبقى عندكم ولا أحسن كبير أطباء الطب الشرعي في بلدكم.

باترًا قال عبد التواب:

ـ وأنا عليَّ تحضير المستشفى الذي سنستخدم مشرحته وأدواته ولو عايز أيضًا كام ممرض وممرضة.

والتفت ليوسف أخيرًا:

ـ وإنت عليك تحديد الموعد.. وأيضًا خبرتك بعد ما نثبت الحقيقة.

لمعت عينا يوسف ثم بكى.. بكى بكاء حارًّا يفضح في عز هذا النهار، حاول ماضي أن يخفف عنه قال:

ـ لا تبك.. أنت لك حق تضحك لما تفطس على نفسك من الضحك.. الذي لم يفلح فيه أحد أنت أفلحت فيه.. أنا وعبد التواب سنشتغل سياسة معًا.. دي ح تبقى مسخرة.. يا راجل اضحك.

٣١

كانت «ريتا» في تلك الحجرة الأثيرة لديها في التكية البحرية، فيها رطوبة من رائحة النهر ونسائم وادعة كأنما تتسرب من الأسقف وسرير صغير أقرب إلى الكنبة الواسعة مغطى بفرش من الألوان الزاهية، لون الفطرة والوسائد القطنية الدائرية ونقوش مرسومة على الحوائط من عبث أطفال صغار في ألوان تذهب سراعًا للبهتان، كانت تنام فيها، وتستقبل فيها ـ تحت ستار الخلسات رزق ـ وتكتب فيها شيئًا مما رأته وتوقفت عنده بقية نهارها وطيلة ليلها تحت دفوف الدروشة في صفوف الدائخين حبًّا في الله وفي الحلم بالعدل القادم في التفقير والرقص الدموي حينًا في طبول وأبخرة ونيران مبعثرة على مساحات جسدها يحرقه حنين لغموض آسر أو يأسره غموض حنون.

لعلها كانت تنتظره فجاء.

دخل رزق عليها وقد بدت شقراء مفعمة بالحيوية صبوحة مشرقة على نحو ما، كان يرتدي جلبابًا قصيرًا فوقه صديري أسود بنقش أبيض.. قال لها:

ـ مبسوطة؟

ردت في رقة وبلا مجاملة:

ـ جدًّا.

سألها:

ـ هل أنتِ هنا؟

قاطعته:

ـ نزوة.

نفى برأسه وقال:

ـ غزوة.

قالت:

ـ لا أفهم.

رد عليها وهو تقريبًا يحضنها بقامته الطويلة فوجدت رأسها عند صدره:

ـ أقصد مجرد استكشاف للعالم، كشفًا لغموض، فكًّا لطلاسم حياتنا ثم تملين أو ترحلين.

شعرت قلقًا في رنة صوته وحروف لغته:

ـ هل تعتقد أنني هنا للتجسس؟!

نفى عن نفسه تهمة هذا التفكير:

ـ إطلاقًا.. أنا أقصد.

قاطعته:

ـ فيه إيه يا رزق.. حصل حاجة؟

أخرج من تحت الصديري صحفًا، قدمها لها على الصفحة الأولى، كانت تتصدر الأجزاء السفلية من الصفحة صورة يوسف رضوان.. شيء ما غريب وفوري وكاسر جعلها تغيب عن الوعي.. بعدها بساعات قرأت الصحف على التفاصيل وكان مما قرأته:

«القبض على عصابة للعبث في القبور يتزعمها أستاذ قانون مشهور».

والعنوان في صحيفة أخرى جاء هكذا:

«اضبط.. لص القبور يعمل أستاذًا جامعيًّا في كلية الحقوق».

وفي ثالثة على هذا النحو:

«سر الاعتداء على جثث النساء في المقابر.. ضبط أستاذ جامعي عاريًا في مقبرة نسائية».

وجاء في التفاصيل:

«نجحت قوات الأمن في كشف غموض حوادث الاعتداء على المقابر في أكثر من منطقة في ضواحي العاصمة، وأسفرت هذه الحوادث عن نبش القبور وسرقة محتوياتها والتجارة في الجثث لطلاب كلية الطب، وثبت كذلك حدوث بعض الاعتداءات الجنسية الشاذة على جثث حديثة لنساء».

«وقد ضبطت مباحث العاصمة مساء أمس الأول أستاذًا جامعيًّا «ي. ر» يعمل أستاذًا بكلية الحقوق يقود عصابة لنبش القبور، وأكدت التحقيقات الأولية أن هذه الهواية الشاذة بدأت بقيادة الأستاذ الجامعي منذ فترة ونجح في ضم بعض المحترفين من حفاري القبور وشحاذي المنطقة في عصابة

قامت بأكثر من عملية خلال الشهور الماضية، وقد قامت النيابة بتحويل المتهم الأول دكتور «ي. ر» إلى الكشف الطبي للتأكد من سلامة صحته العقلية والنفسية. وعلمت مصادرنا أن هناك تأكيدات على أن الأستاذ الجامعي يعاني من مرض «النيكروفيليون» وهو اسم يطلق على الذين يهوون نبش القبور والعبث بالموتى قد ينتهي به إلى الإيداع في مستشفى الأمراض العقلية للعلاج وتنفيذ الحكم الذي ينص القانون على أن عقوبته قد تصل إلى عشر سنوات سجنًا».

في اليوم التالي كانت عناوين الصحف كالتالي:

«النائب العام يحظر النشر في قضية نبش القبور وإحالة الأستاذ الجامعي إلى مستشفى الأمراض العقلية».

ليلتها كانت «ريتا» ترقص محمومة في حلبة الدفوف والطبول، وكانت تبكي بصوت عال كنحيب له دوي ووقع الجنازات البعيدة، وتصرخ ملتاعة مولولة كالأرامل:

ـ يا لهوي.. يا خرابي.. يا عيني عليك يا خويا يا يوسف.

وانسدل شعرها مفكوكًا منكوشًا بصفاره الغريب، وكان كحل عينيها قد ساح وساب وانسكب على خديها مبللًا بالدموع وصراخها صار مبحوحًا:

ـ أنا اللي عملت فيك كده يا خويا.. معلهش يا حبيبي حقك عليَّ يا يوسف.

وقد اقترحوا على رزق لما كادت «ريتا» تُجن حزنًا أن يعطيها مسحة أفيون كي تهدأ وتروق وتنام.. ولكنه رفض ثم لان لما زاد نحيبها وصار خرابًا نفسيًّا مهولًا، وقدموا لها فنجان القهوة الصغير الممزوج بشعيرات

من الأفيون.. بعدها نامت كثيرًا وطويلًا، ولما استيقظت بين الإغفاءة والإفاقة قال لها رزق:

ـ أنا سأتزوجك يا «ريتا».

ابتسمت وطبطبت على خده برقة وقالت:

ـ هل لك دخل فيما حدث ليوسف؟

هتف وهو يضمها في سبيله للبكاء:

ـ أقسم بالله العظيم مالي دعوة ولا دخل.. بل أنا متعاطف معه جدًّا.. لكن لا أحد يفر من قدره.

٣٢

دخل عليه سكرتير الرئاسة، كان الرئيس فرحًا دهشًا وحده في الصالون الواسع داخل البرلمان، كان رئيسَا البرلمان ومجلس الشيوخ قد انصرفا مع حشود الوزراء والضيوف الأجانب ليجلسوا في مقاعدهم بقاعة البرلمان الكبرى، وكان في انتظار سكرتير الرئاسة الذي جاء في موعده تمامًا ليعرف منه الإجراءات اللازمة والخطوات القادمة، بادر الرئيس سكرتيره بسؤال مباغت:

ـ إيه رأيك؟

ارتج السكرتير الذي قال:

ـ في إيه يا أفندم.

زعق فيه الرئيس:

ـ في البدلة يا جدع؟

تنفس السكرتير راحة، راحة جعلته يحلق، يسبح، يطير في سماء المكان، إنه نفس السؤال الذي سأله الرئيس السابق بعد استفتائه الأخير

«إيه رأيك؟ في إيه يا أفندم؟ في البدلة يا جدع»، حتى «يا جدع» هي نفسها ليست مثلًا «يا راجل، يا حمار، يا بني آدم»، لأ.. نفس الكلمة، نفس الوصف، «يا جدع».. هذه المرة رد أكثر حفاوة وبلاغة من المرة السابقة مع السابق.. قال:

ـ رائعة يا سيادة الريس.. جميلة ومذهلة ولائقة جدًّا على المناسبة وعلى القوام والشخصية.

رد بفرحة:

ـ والله.. هذا رأيك بجد؟

أسرع:

ـ بجد جدًّا يا أفندم.. هل هذه إيطالية؟

رد الرئيس:

ـ آه.. عرفت إزاي؟

قال سكرتيره:

ـ الخامة والشياكة.

مال على سكرتيره وهمس في أذنه:

ـ أقول لك على حاجة سر؟

ـ في بير يا أفندم.

نظر حوله وقال بفرحة طفولية غامرة:

ـ جاءتني هدية.

رسم السكرتير التعجب على وجهه:

ـ والله؟

أومأ الرئيس بفرحة أكثر طفولية مما قبل:

ـ من رئيس مجلس إدارة شركة إيطالية.

ـ راجل عنده ذوق.

ضحك وهو يضرب كتف سكرتيره:

ـ لأ وإيه.. بعتها ومعها ترزي مخصوص لضبطها على جسمي.

ـ يا عيني.

خرج من فرحته بالبدلة إلى الجدية المضطربة:

ـ قل لي ماذا سنفعل الآن؟

ـ سنخرج إلى الممر، تقف سيادتك دقيقة واحدة حتى أدخل إلى منصة البرلمان، وأعلن عن حضورك، فتدخل سيادتكم. في الأول سيرغي رئيس المجلس بالشويتين بتوعه.. وبعدين يقدم سيادتك كي تخطب في البرلمان خطبتك التاريخية. هز الرئيس رأسه مستعدًّا، خرجَا معًا، سبقه السكرتير بينما كان اضطراب الرئيس باديًا في عيونه التي تتحرك بسرعة وبتوتر في المكان الذي بدا خاليًا إلا من بعض الحرس العابرين والمبتسمين له والمنحنين لطلعته، سمع السكرتير ينادي في الداخل:

ـ السيد رئيس الجمهورية.

دخل فاشتعل المكان بالتصفيق المندلع حمية، تقدم وواجه المصفقين، رفع يده اليمنى تحية لهم، ثم رفع يديه الاثنين وهم يواصلون تصفيقًا غزيرًا مدمدمًا، كان ينظر للوجوه فلا يراها، للأكف الملتهبة تصفيقًا فلا يلمحها، لشرفات المجلس حيث الصحفيون والضيوف فلا يدركهم، كان أمامه بحر هادر من الألوان والأضواء، وكان قلبه مندفعًا في ضرباته ونبضاته لا راد لهديره، يتخيل دمه أمواجًا من دم ثائر مرتفع تضرب في صخور قلبه فتفتتها.. أدرك أنه لا بد أن يجلس فجَرَّ قدميه جرًّا حتى المقعد الذي يتوسط رئيس البرلمان ورئيس مجلس الشيوخ.

كان اضطراب قلبه طاغيًا حين تحدث رئيس المجلس وقال فيما قال:

ـ إن هذا اليوم من أجلِّ الأيام في تاريخنا الحديث ومن أجمل الأيام في سنواتنا القادمة، اليوم نسلم واحدًا من أعظم الرجال ومن أشجع الرجال ومن أنبل الرجال، نسلمه مسيرنا ومصيرنا ليكون رمزًا للأمة، وزعيمًا للوطن ورائدًا وقائدًا لنهضتها التي ستكون على يديه، سيرفعنا من العثرة إلى القمة، من السفح إلى السطح، يتسلم مهمته التي لم يعرف غيرها في حياته الغنية الخصبة، أن يكون قائدًا لنا، أن يكون نورًا وكشمسنا، أن يكون فجرًا بعد ظلامنا.

أقدم لكم الآن البطل القائد والرمز الرائد والهادي المنير والفارس الشجاع، المسموع المطاع، الحاكم الحكيم، السيد رئيس الجمهورية.

كان الرئيس.. وهو لا يصدق أن هذا التقديم لم يكن لأحد الأنبياء الذي حضر هذا الاجتماع على سبيل الصدفة.. قام مع تصفيق ـ لو كان صادقًا حقًّا لأعطاهم قلبه أمانة ـ ومشى من المنصة إلى سلمتين تقودانه إلى المنصة الأخرى التي سيقف عليها وحيدًا يلقي خطابه، حين وقف

أمامها توقف التصفيق، وران صمت، ورأى الملف مكتوبًا عليه «خطاب السيد الرئيس»، ذلك الذي تركه السكرتير منذ لحظات، عندما حركه تحرك معه ملف آخر تحته كان بنفس اللون والشكل والحجم، جذب دهشته من يدها ففتح الملف الغامض (من الذي وضع هذا.. كيف جاء به إلى هذا المكان) أول ورقة كانت بالإنجليزية، وخلفها ورقة بالعربية مكتوب عليها نص ترجمة التقرير الأول، عاد للصفحة الأولى إنها صادرة من المستشفى الذي كان يعالج فيه، آه، إنه ملفه الطبي، عند الصفحة الأولى رأى سطرًا مكتوبًا بخط اليد يقول: «اقرأ صفحة ١١ السطر رقم ٩، ١٠»، بسرعة فر الورق بينما البرلمان كله صم بكم ينتظر الرئيس ليتنحنح ويبدأ خطابه، وصل الرئيس إلى صفحة ١١ جرى بعيونه فإذا بالسطر التاسع والعاشر محطوط تحتهما خط أصغر وقرأ بنظرات أوشك أن يشعر أنها آخر ما سوف ينظر إليه في الحياة.. قرأ:

- وحالة القلب بعد إجراء العمليات تمنح المريض فرصة للحياة شبه الطبيعية بين ستة إلى ثمانية شهور وهي المدة التي يمكن أن يتحملها القلب، بعدها سيكون الموت وشيكًا في أي لحظة.

٣٣

كان الممر طويلًا، معتمًا على الرغم من ضوء النهار القادم من فتحات السقف الزجاجية، كان يوسف يمشي ببيجامته البيضاء ويجر حذاءه الكاوتش الأبيض على البلاط البارد العاري، وتظهر لحيته التي بدأت في الكثافة، ونظارته التي كُسرت عدستها اليمنى وبان شرخها واضحًا، وعلى الرغم من ذلك لا يخلعها أبدًا. ازداد نحولًا، وانفضح قِصر قامته بجوار ممرضين عملاقين في جسدهما الضخم يقودانه من ذراعه إلى غرفة جانبية، لما دخلها بلعه اتساعها الشديد وخلاؤها الكامل، أجلساه على مقعد حديدي مطلي بالبياض وقيدَا ذراعيه في مسندي المقعد بسلسلتين من الحديد فيه ملامس الصدأ، تركاه وخرجا، تجول بنظراته في المكان، سقفه المرتفع حتى كأنه سقف السماء هو الذي انخفض، الحيطان عالية كجدران القلاع، الغرفة باردة كأنها ثلاجة للموتى. فجأة انفتح الباب ودخل عليه العجوزان الرائعان عبد التواب وماضي، نهشت المفاجأة قلبه، أهو حلم أم حقيقة؟ خيال ومرض أم حدث وحق؟ كان على وجهيهما حزن بلا حل، والتجاعيد وضعف النظر خلف النظارات التقليدية، النبت الأبيض للشعر في الذقن غير الحليقة والبياض الثلجي

لشعر الرأس، وقطرات الدموع المصبوبة في العيون، ورجفة الشفة ورعدة اللسان ورعشة الكف وهي تحضنه وتقبله وتمطره حنانًا حتى الامتلاء. أخذ نحيبهما يشتد وارتدا طفلين لا يملكان لصراخهما رادعًا، جفت دموعه منذ فترة، لم يعد يعرف كم طالت، لكنه يحس قدوم دمعة من مكان سحيق في جوف ذكرياته تندفع في جري محموم ولاهث في قناته الدمعية تبلل جفافها الجدب، كالفيضان كالطوفان، ها هي وصلت أخيرًا، ها هي انفجرت موجًا عاتيًا عاليًا رهيبًا، ها هي تنزلق ساخنة لهيبة من تحت جفنه إلى خده، فصرخ طويلًا موجوعًا وناطقًا في عودته من رحلة الخرس الطويلة:

ـ آه.. آه.. آه.

حين أمرهما الممرض بالخروج وانتهاء مدة الزيارة المتاحة والمسموحة قام العجوزان وئيدين ضعيفي الجسد واهني العظم، اقتربا برأسيهما يقبلانه كلٌّ في خد.. همسًا في أذنيه (كلٌّ في أذن):

ـ لا أحد عرف أنهم قبضوا عليك وأنت تعيد الجثث وليس وأنت تخرجها.. لقد شرحناها فعلًا وحللناها.. المادة لم تكن سمًّا، لقد عملنا البدع.. لا يغرك أننا «مهكعين».. اكتشفنا أنهما مادتان تؤديان نفس الغرض.. اضطراب في الدورة الدموية يؤدي إلى هبوط حاد ثم موت صادم، المادة لم تعط على جرعات في الطعام إنما اتحطت كلها في حوض السباحة مرة واحدة، وهي يمكن دخولها من الجوف أو الجلد.. هذه المادة لا تملكها إلا معامل المخابرات، وفيه مافيا ورجال أعمال اشتروها.. والمخابرات ورجال الأعمال وغيرهم استخدموا ناسًا مسؤولة داخل القصر والبركة فيك لما تخرج تفضحهم.

ثم استدارا ومضيا إلى الباب تاركين يوسف مقيدًا في مقعده، قلبه يرتجف، وعقله يزوم، وأذنه تسمع دوي رياح الخماسين القادمة.

همس عبد التواب وهو ينظر له نظرة نهائية:

- ربنا يخرجك بالسلامة يا يوسف يا بني.

أما ماضي فقد ضحك عاليًا وصرخ على يوسف:

- اسكت.. مش أنا ضبطت الشيخ عبد التواب الإخواني بيغني مع نفسه بصوت عالي.

وبدأ يغني هو بصوت مبحوح وخلفه عبد التواب مرحًا بأصوات سن الثمانين معًا:

- يا أهلًا بالمعارك.. يا بخت مين يشارك.. ملايين الشعب تدق الكعب تقول كلنا جاهزين.

النهاية

٢-٢٩ أبريل ١٩٩٩

مقاهي واشنطن وسان فرانسيسكو وبيركلي

الساعة الثالثة ظهرًا بتوقيت واشنطن

مقهى ستاربكس

مقتل الرجل الكبير

عندما كَتب المؤلف هذه الرواية عام ١٩٩٩ لم تتحمَّس أيُّ دار نشر آنذاك لنشرها، لأن اسم «إبراهيم عيسى» كان ممنوعًا من الصُّحُف، ولم يكن مسموحًا له بالكتابة، وقد أغلقت الدولة جريدة الدستور، ومنعته من إصدار أي صحيفة.

فقام بطباعتها على نفقته الشخصية، وتعاقد مع مؤسسة صحفية حكومية كبرى على توزيعها.

انتظر الأسبوع الأول، ثم الثاني، لتوزيع الرواية إلا أنها لم توزَّع. وعلم من مدير التوزيع بأن «أمن الدولة» زار المؤسسة الصحفية بسبب روايته، وقد تمت مصادرتها. فطلب أن يحصل على نسخة من أمر المصادرة، فأعلموه بأنه لا يوجد ورقة بذلك... الرواية مُنعت وصودرت والسلام!

طلب من المؤسسة الصحفية استرداد نسخ الرواية - وكانت ٣ آلاف نسخة - ليقوم بتوزيعها بمعرفته، فأُخبِر بأنه لا توجد أي نسخة من الرواية! وبعد ٤٨ ساعة طلب منه مدير المؤسسة آنذاك أن يتسلم مبلغًا من المال من المؤسسة مقابل بيع جميع نسخ روايته!

وبذلك خرجت المؤسسة من مأزق المصادرة ومطالبة إبراه[illegible] بناءً على العقد المبرم بينهما. ولذلك فإن إبراهيم عيسى يَعتبر أ[illegible]جل الكبير» هي أسرع رواية كسب فيها في حياته؛ فقد بيعت [illegible]لال ٣ ساعات!


978-99921-95-62-8
90100
9 789992 195628



دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY QATAR FOUNDATION PUBLISHING



تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي